

إبراهيم أحمد عيسى



مكتبة ياسين

رجال واللهة



رجال
وآلهة

روايات إبراهيم أحمد عيسى

الصادرة عن دار الكرمة

- ١ - ذئب وحيد: الجزء الأول من ثلاثية تلال الشمس
- ٢ - بنو الأزرق: الجزء الثاني من ثلاثية تلال الشمس
- ٣ - ابقَ حيًّا (طبعة جديدة منقحة)
- ٤ - باري (طبعة جديدة منقحة)
- ٥ - رجال وآلهة

إبراهيم أحمد عيسى

رجال وآلهة

رواية



telegram @
yasmeenbook



الكرامة



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

© دار الكرمة ٢٠٢٤

© إبراهيم أحمد عيسى ٢٠٢٤

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

الاقتباسات من كتب «الخروج للنهار: كتاب الموتى» و«متون الأهرام» و«كتاب الطريقين»
ترجمة شريف الصيفي (من إصدار دار تنمية).

عيسى، إبراهيم أحمد.

رجال وآلهة: رواية / إبراهيم أحمد عيسى - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.

٣٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

تنمك: 9789778727333

١ - القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٦٥٩ / ٢٠٢٣

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إهداء

إلى مصر، والتاريخ، وصاحبي أحمد ضيوف.

ملاحظة

في نهاية الرواية قائمة ببعض أسماء الآلهة التي ورد ذكرها وصفاتها.

أرواح ممجدة

نون، بدء ما كان وما سيكون، محيط لُج، تعلو سواد مائه عتمة الخواء. من العدم وُجد وبقي بقدر ما بقي. لا سماء رُفعت ولا أرض بُسُطت، ولا بشر من صلصال الطين صُنِعوا، إلى أن بزغت منه عنوة، ربوة مدببة من طين وثرى، لطمها بأمواجه العاتية من كل جانب قاصدًا إغراقها، لكنها صمدت وأخذت تعلو، وانشقت ليخرج منها خالق نفسه، آتوم رَع، صانع الكون الكامل التام. في أثر خطاه نبت العشب، وانبثقت براعم وسيقان البردي والأشجار. صعد إلى التلة الآخذة في الارتفاع، وجلس فوق قمته وحيدًا. أراد نون الغاضب فناءه، وأراد هو الحياة. توهج جسده وانفجر بضياء غشَّى الفراغ، رافعًا كيانه الذهبي المنير إلى فضاء العدم مشرقًا، وبقوة نوره حفظ ربوته المقدسة، وتراجع الموج أمام جلال قدرته. ولسنوات لا يعلم أحد عددها بقي آتوم رَع محلَقًا مشعًا كطائر فينيق بُعث من رحم الظلمة. ولما استقر فوق كل شيء وانقشع الضباب، تفل على الثرى، وأمطر التل الترابي أسفله بمنيه المبارك، وتشقق الطين وخرج منه زوجان.

ذكر وأنثى، أخ وأخت، شو وتفنوت، انبثقا مثله من تراب الربوة المقدسة، أنس بهما ومنحهما من قدرته ما شاء، الولد قوي كالريح يهب مثيرًا الغبار، متقلب المزاج يهدأ ويثور، يرطب الأجواء تارة ويخففها تارة أخرى، أما أخته فمن نار لا تخدم، فاتنة رشيقة كلبوة لعبوب مكتحلة العينين، اعتنت بالأرض وحفرت بمخالبها قنوات للمياه، وعلى عكس أخيها تحكمت في مزاجها، تعرف متى تزفر الصهد، ومتى تنفخ نسيماً من برد لطيف. لقبهما أبوهما بالحقيقة والحياة. كبر الأخوان على عيني آتوم رع، وساعدها لبناء مركب الشمس الخاص به، وأقاما بُنيان أون أولى مدن الآلهة وأقدسها، وهناك تزوجا بأمره ليعمر اربوته، ونفث شو في رحم تفنوت ذرية مباركة، ووُلد لآتوم رع حفيدان، ذكر وأنثى ككل شيء أسس خلقه، أسماهما «جِب» و«نوت»، ووهبهما ما لم يهب والديهما، وشكّلهما بقدرته وعلمه لحاجة في نفسه، ونفخ فيهما قُبساً من قوته ليكونا له عوناً في حرب نون.

مرت السنون وأخذ الماء الأزلي في الانحسار رويداً، تراجع بسواده خاسراً مدحوراً، كاشفاً مزيداً من الأرض التي بُسطت تحت آتوم رع، الذي صنع لنفسه بعض الأعوان، أولهم جحوتي ذو المنقار والقلم، خلقه بقبضة من قلبه المشع، وجعله قيماً على النظام ورسوله الخاص، ومنحه مع الحكمة جناحين. وأضحى الطائر المعتد بنفسه خير عون للفتاة ذات الحسن والدلال، وخير رفيق للولد القوي ذي البنيان. ولما بلغ الشقيقان من العلم والعمر مبلغ ما أراد جدهما، صنع جب من الطين إوزة بيضاء، أهداها إلى أخته نوت وباركها الجد الفرح

والأبوان. وشبَّ عوداهما، وتفاخر بهما الذي أفنى عليهما وقته مربيًا ومعلمًا، أحب ما كانا عليه وظلل عليهما بجناحيه، وأخفى أمر حبهما وشغف بعضهما ببعض عن والديهما وجدهما.

والحب يفضح صاحبه وإن أخفى. رآهما جدهما، لم يفزعهما وظل ينظر إلى فعلهما؛ جب مستلقٍ ونوت من فوقه تتلوى بغنج. لم يعجبه ما رأى، غضب ونادى أباهما وفصل بينهما عنوة، وعوقب الأخوان ووُبخا، وجزاءً لفعلهما نال كلُّ منهما عقابه. رُفعت نوت لتصبح سيدة السماء وحاكمة قبتها، وعُزي إلى جب بأن يحكم الأرض، ويبقى أبد الدنيا مستلقياً أسفلها، يتطلع إلى محبوبته ولا يستطيع الصعود إليها ولمسها، وكانا قد ظنا ذات يوم أنهما سيكونان مثل والديهما، زوجين متحابين، وبدلاً من هذا حُكم عليهما بالفصل والفراق. ولما خشي الجد آتوم رع أن يستميل الأخ أخته مرة أخرى، صنع بيديه من صخر جزر شلالات النيل خنوم ذا رأس كبش له قرنان عظيمان، منحه من القدرة ما أراد، وجعله حارساً على جب وجائماً فوقه.

وخلق من وهج نوره الوضاء خونسو قمراً بدر التمام، ليراقب حفيدته في غيابه، وقيماً على التقويم وحساب الأشهر والأيام، ولم يعِ الجد أن الحب الجارف كفيضان لا يعوقه عائق. حزنت نوت وتلبد قلبها غيمًا، تبكي ويتساقط دمعها فيضاً مؤرقاً مضجع جب، تناديه ويناجيها. وليس هناك أشد مكرًا من أنثى راغبة، بحيلة منها استطاعا أن يقضيا النهار منفصلين، وفي الليل حين يذهب جدهما إلى معركته الأزلية ضد نون، تلتحف الظلمة وتهبط على جناحي

جحوتي لملاقاة حبيبها، ولا يشعر بهما خنوم الغافي من تخمة رعيه
في جسد جب الخصيب، ولا يدري خونسو المتباهي بضيائه الفضي
إلى أين مسيرها. يجتمعان وينهل كلُّ منهما من فيض محبة الآخر،
عشقته بقدر ما أحبها وهو المقيد بالجبال والسهول والأنهار الجارية،
وكل سر إلى العلن مكشوف.

علم آتوم رع بخطيئة حفيديه، وعاقبهما مجدداً وأقسم أن يلعنهما
إن خالفا أمره، ألا تكون لهما ذرية ولا نسل، وأن يُنفيا إلى عمق
نون إلى الأبد، وشدد على تابعيه خونسو وخنوم باليقظة، ومنحهما
مزيداً من قوته، وأمر الأخير ذارأس الكبش بأن يصنع بشراً من طين،
ليدبوا الأرض بأرجلهم ويثقلوا جسد جب فلا يقوم، وليبنوا مدناً
وصروحاً متينة تثبته فلا يميل. وأظلمت نوت للفراق وما حاق من
الجد العنيد، توسلت إلى أمها وأبيها، ولم تحظَ بردٌ ولا شفاعة، مَنْ
الذي يجروء على مخالفة خالق الكون العظيم؟! باتت كئيبة ذابلة،
شحبت وامتلات روحها بالغمام، وأسى عليها جحوتي وأحزنه ما
ألمَّ بالحبيين. فكر ودبر وانتهاز ذو المنقار الطويل غياب الجد في
حربه، وطار لمقابلة خونسو حارس السماء واحتال عليه وأسكره،
لاعب النرد والداما رهائناً، وكلما شرب القمر قدحاً خسر، وأمسى
مُحاقاً خافت الوهج، تنازل مدحوراً عن خمسة أيام من تقويمه لسيد
الحكمة، صار عليه أن يتضاءل ويختفي تاركاً موضعه بالسماء كل نهاية
شهر، ونزلت نوت نضرة فرحة إلى حبيبها وقد حظيت بأيام النسيء،
أثارت عواصف وزعابيب لينشغل خنوم بحماية مَنْ صنعهم من طين.
والتقى الحبيبان مجدداً بشبق وشغف وبهجة خصبت الحقول، ودفق

جب مَنيه نهرًا في رحم نوت، فولدت في اليوم الأول ذكرًا قويًا سُمي «أوزير»، ونودي في الكون الرحب أن قد وُلد ملك للأرض من نسل الآلهة المبجلين، وفي اليوم الثاني ولدت له أنثى رقيقة جميلة ساحرة أطلقت عليها «إيست».

وفي اليوم الثالث عاد آتوم رع بعد اختفائه، شاحب الوجه جريحًا ينزف ذهبًا ويقاوم الآلام، تهشمت درعه وخسر معركته، ومسه شيء من عتمة نون. كُسف بمركب شمس، هُشم صاربه وتهلّلت أشرعه، ونُهِش بدنه بفعل وحش انقض عليه مثيرًا الأمواج، ثعبان ضخّم تموج حراشفه السوداء بخضرة لامعة، وفي عينيه الشهاولين شقٌّ كأخدود عميق مظلم، جاء زاحفًا إلى طرف الربوة المقدسة، وبث سُمه فرحًا وزهوًا بانتصاره الأول على آتوم رع، ولمست قطرات منه بطن نوت المنتفخ، فولدت في اليوم الرابع على عين جدها الجريح، مسخًا شق رحمها فأرعدت وخرج مخضبًا بالدماء، بوجه ذئب حاد الأنياب وأذنين طويلتين، ووسط تجهم الجميع حملة الجد مبتسمًا، أسماه «ست»، وأخذه على مركبه السماوي قائلاً: «لا يهزم الوحوش إلا مثيلها».

أراد أن يكون له عونًا في حربه، ومقاتلاً عتيدًا ليواجه نون وثعبانه «أبوفيس». وفي يومها الخامس وُلدت سيدة بيت الآلهة نفيس، بنت قوية ذات جناحين من ريش بديع، يضوي بألوان الكون الفسيح، ووجهه وضاء جميل.

واطلع آتوم رع من على عرشه على ذريته، شعر بغبطة تملأ قلبه لأول مرة، وأدرك أن من الحكمة أن تكون له قوة من أبناء وبنات،

سلالة قوية تعينه على التصدي لأتباع نون. نظّم كونه كما أحب أن يراه، أنشأ خلقًا جديدًا منحهم فيضًا من قواه، وخصص لكل واحد منهم قدرة لا مثيل لها، وتعددت صورهم وهيئاتهم ومهامهم، وبُسط حُكم الآلهة في كونه الشاسع، وجعل فوقهم تاسوع عائلته الممجدة، واكتفى هو بالإبحار بمركبه مؤمنًا حدود العالم الذي صنعه بيديه. وتُوج أوزير الشاب القوي كأول ملك للبشر والخلائق، وبدأ عصر الآلهة بالعدل حتى نبت بقلب ست غل وحقد لأخيه.

خطيئة أولى كافية لأن تُتبع بالمزيد، ظن أن أوزير أغوى زوجته نفبتيس، فدبر وخطط واستمال الشرير قلوب البشر وجعلهم يتمرّدون، بذر في نفوسهم العصيان والطغيان، وزين لهم الآثام والجحود بنعم الآلهة أجمعين، منحهم قبسًا من إرادة حرة فعرفوا كيف يظلمون، وناطحوا الآلهة متباهين، أغاروا على المدن والمعابد والقرى، وعاثوا في الأرض مفسدين، وصار الطمع والشهوات فضائل أتباع ست في كل الربوع، يبجلونه ويستجدون قوته وعونه، وهو القريب الحبيب من جده آتوم رع.

وفي قصره أوّلّم ودعا أوزير، قدم إليه هدية، تابوتًا بديع الصنع. ابتهج أوزير وأحب أن يجربه، من دون إلحاح أو طلب من ست، الذي أغلق الغطاء فور استلقائه، وألقى به إلى عمق النيل الجاري، وهكذا قُتل أول ملك للأرض بيد أخيه، فاجعة لم يشهدها قبلهم أحد من الآلهة والبشر. خُلق الموت لأول مرة، مات الحاكم العادل واغتصب العرش سيد الظلام والفوضى. واحتفالًا بنصره ضاجع بقوة وقسوة زوجته نفبتيس الحزينة على أخيها الصريع. وبعد تسع

ليالٍ وضعت ابنًا شرسًا قريب الشبه من أبيه، ولم يلق المولود ترحيبًا أو عطفًا، إلا أن جده آتوم رع باركه وتكفل به، وأسماه «إنبو». علمه كيف يحفظ الأجساد ودربه عاهدًا إليه ببوابات قاعة الحساب، وتهئية الموتى للعبور إلى الحياة الآخرة. لم يكل الجد يومًا عن رعاية أحفاده وسلالته، ولم يتدخل في اختياراتهم وما يفعلون، وعلى الرغم من ذلك نال الحزن من قلبه، ابتأس وأسى وهو يتأمل حالهم، وقد بات الشر جزءًا من النفوس، وهو الذي أخذ على عاتقه محاربته لآلاف السنين، وهو الذي يحب ست ويفضله عن الميت أوزير.

لم يهدأ قلب إيست، انفطرت حزنًا على زوجها المغدور، ضربت الأرض بحثًا عن جثمانه حتى وجدته، والذئب في أعقاب النعجة المكلومة يحوم، عثر عليهما القاتل مرة أخرى، ومثل بجثة أخيه وقطعه ملقيًا بأشلائه في مقاطعات الأرض المباركة. ومن جديد راحت الزوجة المنكوبة تنوح لما حلَّ بجسد أوزير، راحت تجمع أشلاءه، وساعدتها في ذلك أختها نفتيس وابنها الصغير إنبو. وبقدرة سحرها ومساعدة أمها العجوز نوت، سرقت النزر اليسير من قوة وسحر جدهما التليد، وأعادت الميت إلى الحياة لبرهة كانت كافية لأن تحمل نطفته.

وولدت الأمير الوراثي لعرش أبيه، أسمته «حور»، أي الذي يعلو، مقاتل من نور، له جناحان قويان ريشهما من ذهب وفضة، وعينان ثاقبتان، بشوش الوجه طامح إلى الخير، شبَّ في أحراش بوتو بين البشر الذين بجلوه وقدسوه وأحبوه. ولما بلغ مبلغ الرجال جمع أنصاره في الشمال، وأعلن حربه على عمه المغتصب. معركة ضروس

دارت رحاها بينهما، وخسر الصقر القوي إحدى عينيه، قرباناً في سبيل غايته، وتمايلت الحرب بين نصر وهزيمة، والغلبة لِسِت الذي حشد أتباعه في جنوب الأرض، وقاتل بضراوة رفقة عشيقته نيث ابنة نون، سيدة الحرب الدموية، وتقدمت جيوش البشر تتقاتل كلٌّ من أجل إلهه. ولسنوات أريقت الدماء وساد الخراب، ولم يتدخل من الآلهة أحد، إلا جحوتي الحكيم الذي مديد العون لحور. وذات نهار وعلى مرأى ومسمع الآلهة والخلائق أجمعين، استطاع الصقر الشاب أن يهزم عمه ست، وينتزع بيديه الداميتين خصتيه، وأقرت ماعت سيدة العدل والميزان انتصار حور الذي أعاد ما كان لأبيه أوزير، ونُفي ست إلى صحراء الغرب وحيداً من بعد هزيمته النكراء، وكُتب عليه ألا يرث ولا يلد وأن يُجرد من بعض قواه.

ونُصب حور الذهبي سيداً للأفق، وملكاً على الآلهة والبشر، وكان الشاب عادلاً رحيماً، أرسى في الأرض السلام من بعد حروب ومآسٍ. رفع الظلم والعسف، فاضت النعم ببركاته، وأقام ما هُدم من مدن وبلدات ومعابد، وجعل له مجلساً من الآلهة يشاورونه ويعاونونه، أراد بالناس خيراً وابتغى أبناء الطين الشرور، وقد لوثت قلوبهم الآثام وجنحت نفوسهم إلى الشهوات. تجبر البشر وتمردوا، وتركهم حور مرتقياً إلى الأفق رفقة جميع الآلهة، هجروا الأرض إلى مقصورة جدتهم الخالق الذي باركهم باسمه، بعد أن علّموا الأنقياء من الناس كل ما يعينهم على العيش والسمو لبلوغ حقول الآرو.

وورث أتباع حور من البشر المُلْك، ليحكموا باسمه ووفق مشيئته وعدله، وتتابع الملوك على العرش الذهبي لآلاف السنين، بين قوي

وضعيف، صالح ولئيم، غاصب ومغдор، ومدن تُعمر وبلدات تُمحي. نُصبت المسلات وشُيدت الصروح ومُجدت أرواح الآلهة، وامتألت الأرض بنسل البشر، ممالك تقوم وأخرى تندثر، والناس في غيهم مثابرون، صار منهم كهنة يرفعون بمذاهبهم من قدر آلهة، ويحطون من قدر آخرين، وأمراء طامعون بحثوا عما يفرقهم، وانقسموا سائحين متقاتلين، والأرض الواحدة أضحت أرضين، والتاج صار تاجين، أحمر وأبيض، يتنافس أصحابهما دومًا، ومرة تلو مرة تتوحد الأرض على يد أبطال مؤمنين، شهدت لهم الآلهة ومنحتهم بركات وفيضًا من خير، وخلودًا يليق بما حققوه من نصر وعدل وقوة.

الطمع خطيئة ست الأولى، ورثها للبشر الذين سنوا النزاع والفرقة. يموت الطيبون ويرث الماجنون، ومن خلفهم قوم تنازعوا المُلْك، وما ملكوا إلا الخراب والفوضى، واجتاح الخوف المدن والبلدات، وزكمت رائحة الموت الأنفاس، وانحط ذكر كل مقدس. وجاء الرعاة الغرباء عبّاد ست وأقاموا قواعدهم في الأرض، وبنوا في أنحائها صروحهم مستحلين ما لأهلها من خير، حتى برز آمون من الخفاء، هبط إلى طيبة في هيئة بشرية تعلو رأسه ريشتان عظيمتان ذهبيتان كجسده اللامع المشع، مهيب يمسك بصولجانه. لم يكن يحظى بشهرة واسعة بين أقرانه من الآلهة، وسرى بين جموع الناس أنه ابن نون، فتوجست القلوب منه خيفة، إلا أنه كان مخلصهم الذي تمنوه، وبقدرته وحكمته اجتبى عائلة مقاتلة، ومنح نسلها قدسية مطلقة وقوة ونفوذًا، وعاون ملوكهم الذين أعدّهم كأبنائه، وحارب إلى جوارهم حتى وُحدت الأرضان من جديد. طُرد

الغرباء، وقُدست الآلهة مرة أخرى، وزُفِع ذكرها في أرجاء الأرض،
وتُوج آمون كابن لآتوم رع ملكًا للآلهة والبشر، وبرز مذهبه بين
الآلهة ومدنهم، حتى جاء الذي لا يُذكر اسمه بإله جديد، وتبدَّل
كل شيء.

حور في الأفق

«ماؤك قُدر لك، وفيضانك قُدر لك،
رُفعت السماء عاليًا لأجلك، والأرض فُصِلت لأسفل لأجلك.
حلَّق عاليًا يا حور الأفق، مثل نجم الصباح السارح في دروب
السماء».

واست - طيبة

مساء بهي جميل، تخلله نسيم ريح شرقي، أثار شذى حقول الوادي
الخصيب، وأغدق خونسو على عباده بنعيم ضيائه الفضي، تهادى
بروية في أفق البر الغربي الشاسع، مبددًا العتمة عن حواف الجبال
ومزيحًا الظلمة عن المعابد والحقول. تفرق انعكاسه على صفحة
النيل الجاري، وأنار قمم المسلات بوهج إشراقه. توارت الظلال
عن واجهات الصروح والتماثيل العملاقة، ووجد قُرصه مستقرًا على
سطح بحيرة الكرنك المقدسة. أوقد السدنة مباخرهم، ورتل الكهنة
المطهَّرون صلوات شكر وإجلال لابن آمون، وتدفق الهواء العليل
عبر ردهات وأروقة القصر العتيق، تراقصت الظلال على جدران

المزدحمة بقصص وبطولات مَن عاشوا فيه، تعلو رؤوسهم التيجان
المزدوجة، بعضهم يقدّم القرايين، وآخرون يقودون عرباتهم الحربية،
وتحت سنابك الخيل والعجلات تتناثر أجساد الأعداء. أبهة وعظمة
تليقان يارث عائلة مقدسة، حررت البلاد وحكمت بالعدل والقوة.
على باب الشرفة الملكية وقف عبدان من حاملي الرماح،
وعلى مخدع مخملي استلقت الملكة الشابة سليلة الآلهة، حنطية
جميلة المحيا، ناعمة الملامح تعتمر شعرًا مستعارًا، قصيرًا مضفرًا
ومزينًا بخرز ملون، نحيلة القوام يكسوها ثوب أبيض مذهب
الحواف، وأحاطت عنقها الطويلة قلادة الصقر الحامي، وفي
سواد عينيها المكتحلتين انعكس ضياء القمر وبهاء حضوره. داهمتها
ذكريات عدة، وهامت روحها بدهاليز ماضي قريب، لم تستطع
كبح جماح حزن اجتاحت جوارحها. شردت طويلًا، وأفافت على
صوت خادماتها المتطفلة نبت:

- يقولون إن خونسو يقود مركبه الدري مبحرًا في زرقة ليل
السما، تحيط به تعاويذ نوت المباركة، ينير للهائمين الطريق
ويؤنس ليل الساهرين، يُنصت لترانيم وغناء محبيه، مجيبًا
لأمنياتهم وسرائرهم، هو انتصار النور على الظلام والخوف،
وإنها لليلة فريدة بسحرها وعجائبها، باركتها الآلهة، كما أشيع
في أرجاء طيبة والكرنك، الناس يفترشون الطرقات وأسطح
المنازل، والكهنة يجزمون بأنه تدلى من السماء لأمر جلل،
ويؤكد بعضهم أن الآلهة يحتفلون بذكرى انتصارهم على الذي
لا يُذكر اسمه وإلهه الزائف.

ضاق صدر عنخ إسن آمون، وودت لو أن تصفع خادماتها المتبجحة. صار اسم أبيها لا يُنطق، لا تعرف أتلومه على كل ما حاق بأسرتها أم تلتمس له الأعذار، أكان على صواب حين ترك مستقر المُلْك الحقيقي، وذهب لبني مدينة جديدة ما لبثت أن نُهبت ودُمرت أجزاء منها بعد موته؟ هل عليها أن تتمنى له الخلود رفقة إلهه المحبوب؟ أم تنساه وتمحو ذكره كما ينصحها من حولها؟ قلّبت بصرها في أطراف السماء باحثة عن ملاذ من الأسئلة وثرثرة خادماتها، تأملت نجوم الليل بصمت، كانوا من قبل ملوكًا عظماء ارتقوا إلى الخلود الذي يليق بهم، كما يردد كهنة آمون.

مر على قدومها إلى طيبة سبعة أعوام، وما زالت تشعر بالغربة وقلبها يتأرجح تشتتًا بين الآلهة، لأيٍّ منهم تصلي وتتضرع وتقدّم قرايينها؟! إلى آتون محبوب والدها، الواحد الواجد الذي وُهب له وُسُمت على اسمه، ومن عاشت لأكثر من نصف عمرها تتعبد له مع أبيها وأمها وإخوتها، أم تبتهل إلى آمون الذي حارب كهنته والدها لسنوات، وافتعلوا المؤامرات والدسائس لزعة ملكه؟ يوم جاءت وأخوها الصغير إلى مدينة الصولجان، أملت في بداية جديدة وحياة هائلة سعيدة، ولكن الحزن طاردها ووجد مستقرًا له بمجرى نفسها. فقدت طفليتها في أشهر الحمل الأخيرة، وتهامس من حولها بلعنة حلت على نسل الأسرة المقدسة، التي لم يتبقَّ منها سواها وأخوها، زوجها الملك المحبوب توت عنخ آمون.

لا تدري لمَ تأخر في اجتماعه، بالكاد تعافى من مرض أنهكه. كم تمت أن ينال حظًا من عظمة جده أمنتب الثالث، أو يحصل

على نصيب من مجد ابن رع المحارب تُحتمس الثالث، لكنه ليس كأسلافه، وهذا ما يحزنها ويثقل كاهلها، كُتب عليها ذلك وهي الأخت الكبرى له، وزوجته المنوط بها إنجاب وريث يحمل دمًا ملكيًا نقيًا. ليس من السهل أن تكون ملكة، يقع عليها الكثير من الواجبات تجاه زوجها وسلالتهما والعرش، وما مرت به في مضارب الحياة رسخ بداخلها قناعة لا تستطيع تجاوزها، إن كان قُدر لتوت أن يكون ملكًا عظيمًا، إلا أنها لن ترتقي يومًا لتصير مثل أمها وجدتها العظيمتين، رحلت الأولى من دون أثر يُذكر بعد صراعها مع العم المارق سنخ كارع، والثانية ماتت حزنًا على ابنها. كان من العسير على الملكة الأم تقبل عدم نطق اسمه، وكذلك هي. تراحمت الذكريات حولها، وما زالت خادمتها تثرثر، حتى برزت المريية مايا بملامحها الحازمة ونظراتها الحادة، وجفلت الخادمة فور رؤيتها لها، وكان رد فعلها كافيًا لجعل ثغر عنخ إسن آمون ينفرج. رحبت بالسيدة الموقرة، وهرعت الشابة الثرثرة تاركة المكان بعد أن استأذنت مليكتها التي سألت مايا:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟!

- أُشرف على تقديم الضيافة ببهو المُلك.

أدارت الملكة وجهها ناحية النهر والقمر الساطع، ودنت منها المريية وحدثتها بنبرة متوجسة:

- سيدتي، ما بك؟! هل هناك ما يزعجك؟

- لا شيء.

تبادلتا النظرات وصوت عصا تطرق الأرض بانتظام من خلفهما، التفتتا إلى بهو المقصورة ذات الأعمدة الملونة لتستقبلا القادم،

خفضت المربية رأسها إجلالاً ومالت بجذعها إلى الأمام، وابتهج وجه الزوجة الرقيقة بقدم رَجُلها. توجهت إليه من فورها مختصرة عليه المسافة، تحسست ساعده ومشت إلى جواره، بينما قرب حارسه الكرسي ليجلس ملكه، وتناولت مايا العصا من يد ربيها، وجاء أحد الخدم للملكة بكرسيها لتجلس قبالتها، وشفقت المربية لينصرف الخدم وحملة المراوح، واستأذن حارس الملك في الرحيل، أوماً إليه توت قائلاً:

- نَم جيداً يا تحوتي، أماننا يوم طويل غداً.

ما إن رحل الحارس، سألته عنخ إسن آمون:

- كيف كان وقتك؟!

لمعت عيناه بسعادة:

- من الرائع أن يحظى المرء بجلسة سمر بصحبة رفاقه.

- أرى أن قائد الفرسان آي لم يحضر؟

- إنه في إلفنتين، يشرف على تجديدات معبد خنوم. قبل أن يأخذنا

الحديث وأنسى، اتفقت مع رفاقي أن نذهب إلى الصيد غداً.

جمدت ملامح مربيته وهي تناوله كأس عصير الأعشاب، وتلاشت

ابتسامة زوجته التي اعتدلت في جلستها متطلعة إليه وهو يكمل:

- أعد باسر وتحوتي كل شيء، سنخرج في الصباح إلى الجبال،

الكاتب معي سيأتي أيضاً، سنمضي ثلاثة أيام ناحية أيون منت،

نقنص النعام والغزلان وما نجده من طرائد.

فور سكوته، تدخلت مايا الواقفة بجواره:

- جلالتك، إن كان لي بإدلاء رأي، سأقول إنك بحاجة إلى الراحة

كما أوصى الحكماء. ما زلت تحتاج إلى الراحة، للتو نهضت من فراش مرضى كاد يفتك بك.

رماها بنظرة ضيق، وناولها الكأس من دون أن يرتشف منها:
- مايا، يمكنك الذهاب إلى النوم الآن.

بُهِتَت السيدة وارتعشت يداها، تلك المرة الأولى التي يحدثها ربيبها بهذه الطريقة! جزعت روحها، وشعرت بالخزي يسري في عروقها، هي مَنْ تولت رعايته بعد موت أمه المفاجئ، هل هذا جزاؤها؟! أفنت حياتها في حمايته والاهتمام به، حمته في ظل جنون عالم متوحش يتربص به. لم تقوَ المربية العجوز على النظر إلى وجه عنخ إسن آمون الذاهلة من قوله، وما لبثت أن خرجت تجر ذيل الألم، عاتبته زوجته وهي تحيط كفه برقة:

- كنت قاسياً معها، لا تستحق السيدة هذه المعاملة منك.

- سئمت الوصاية والأوصياء، لا تكفون عن تذكيري بما أنا عليه.

- أنت حور الذهبي ملك مصر العليا والسفلى، ابن رع، ومَنْ

ترضى عنه جميع الآلهة. العامة يحبونك ويتلون صلواتهم

لأجلك، وتُنقش صورك على جدران المعابد، تخليداً لأفعالك

الجليلة التي تقوم بها من أجلهم.

قاطعها بحنق بدا واضحاً في هيئته وكلماته:

- بل كسيح واهن عليل، لا أستطيع فعل أبسط الأمور وحدي

ووفق رغبتى، أي ملك هذا الذي ينظر إليه رعيته بعين الشفقة؟!!

وما يُنقش على الجدران والأعمدة ليس إلا ادعاءات لأمجاد

وبطولات خيالية وقصص أسطورية لم أقم بها. والعامة

الساجدون لمواكبي تأييدًا قد ينقلبون في الغد، وينادون
بموتي ومحو ذكري من الوجود. أعرف ما يقولونه عني وعنك
وكيف أن كثيرًا من النبلاء والكهنة يبغضوننا، لم ينسوا سنوات
أبي العجاف.

- سيصيبهم النسيان يومًا.

- وهل نسيتِ أنتِ؟!!

ألقي سؤاله ثم أطبق صمت ثقيل، كلاهما علق بشباك الماضي،
تحيط بهما أطياف عدة وكثير من الحنين. شيء ما جعله يبتسم،
وسرب إوز يبحر في بياض القمر البديع. حدثها بنبرة رائقة من دون
أن ينزل عينيه عن السماء:

- أتعرفين. أفقد حياتنا القديمة في آخت آتون، كنت أصغركم
عمرًا، أجلس طوال الوقت محاطًا بالوصيفات والمربيات،
أشاهدكم بصمت تلهون وتمرحون، وحدها والدتك الملكة
نفرتيتي كانت عطوفًا معي، كنت محظوظًا أن اجتبتني الآلهة
ومنحتني زوجة أب تقية صافية القلب، أحببت الحديث معها
والركون إليها، ما زال صوتها في أذني وهي تخبرني بأن ما بي
من مرض وعجز هو في الحقيقة هبة، علمتني المشي وساعدتني
في كل شيء. وعلى الجانب الآخر أذكر كيف كانت تنظر إلى
عمنا المتنطع سنخ كارع، كانت تمقته، ولطالما وبخت أختنا
الكبرى ميريت آتون لدفاعها عنه، والأيام تجري كفيضان لا
مصد ولا مستقر له، ونحن على متن قارب خوص مهترئ
بالكاد يطفو، ما زلت أسمع ترانيم أبي وصوته الرخيم يردد

صلواته وابتهاالاته، كان مرحًا على الرغم من جديته، وناضر الوجه طيب المحيا، عكس ما أشيع عنه، زاهدًا محبًا ومخلصًا لإلهه. في أيامه الأخيرة حين اختلى بروحه متعبدًا وحيدًا. كان يفتقدها، نعم. عشق أبونا والدتك أكثر منا نحن ذريته، وربما أكثر من آتون. ذات يوم ظننت أننا سنبقى إلى الأبد في آخت آتون، والحياة لا تسير وفق ما نتمنى، وجميع من نحبهم رحلوا، ولم يتبقَّ سوانا يا عنخ إسن آمون.

نهضت واحتوت رأسه بين ذراعيها مغممة:

- أنا إلى جوارك. لم أعهدك إلا قويًا على الرغم من كل شيء، وهذا ما يجب أن تكونه دومًا. تكفل الزمن بهزيمة أسرتنا، فقدنا إخوتنا الصغار، ودبَّ الخلاف بين أبوي قبل أن يفترقا إلى الأبد، من كان يُصدق أن أختاتون ونفرتيتي اللذين اتخذا من دون قومهما إلهاً واحدًا، وهاجرا معًا إلى أرض جديدة تكون تلك نهايتهما، حتى خالتي الوحيدة موت نجمت اتخذت من معبد آمون سكنًا لها، زهدت الحياة ولم تعد تلقي بالاً لنا. لا أنسى يوم ماتت والدتك، وأنت رضيع في قماط كتاني ومهد من خوص وتحيط بك تمائم سحرية، اعتنت بك جدتنا الملكة تي باهتمام، علم الجميع أنك ملك المستقبل وعاملوك بما يليق بك، ليس شفقة أو عطفًا، ولا ينكر أحد ذكاءك وفطنتك وحدسك الذي لا يخيب، شجاعتك عيان لكل الأشهاد، يقدسك الكهنة ويسجد لك الأحياء، الأمراء والسفراء والعامّة يعلمون أنك أحق بالملك من عمنا سنخ كارع، لم يحبه أحد إلا أبونا، وكان أول

من تخلى عن عقيدته، عاد إلى طيبة وتقرَّب من كهنة الكرنك،
وصار ملكًا لوقت قليل، وأين هو الآن؟! لا أحد يعلم ما حل به
وأختنا ميريت آتون، وإن كان بعض الناس يقولون إن أمي هي
السبب في تنحيته لتتولى أنت. لعامين ظلت تحاربه وتسعى إلى
خلعه بكل السبل، حكمت البلاد من الظلال بينما لم يكن هو
إلا أداة لكهنة آمون. ما زلت أتساءل هل انتصرت حقًا لآتون؟!
أم هُزمت يوم تنازلت لنا طوعًا عن عرش البلاد، ورحلت عن
أخت آتون إلى الأبد؟!

انسل من بين ذراعيها بروية، معيدًا ظهره إلى مسند كرسيه، وعدلت
هي جلستها إلى جواره، قال لها وعيناه تجولان بملامحها:

- تشبهينها كثيرًا، تُرى أين هي الآن؟!

- بمكان ما تراقبنا، وتحميننا.

- عنخ إسن آمون، أريد إخبارك بسر.

ابتسمت، وحكت أنفها بأنفه:

- صار حبيبي كبيرًا، ويخفي أسرارًا.

- نقلت جسد أبي وإخوتنا من أخت آتون إلى المدينة الجنائزية
الملكية العظيمة الواقعة بالبر الغربي.

ارتجف جسدها، ووجمت، أحست بأن حواسها تخلت عنها،
وغُيبت عن الدنيا. شردت لبرهة وأفادت على صوته ونبرته الجادة:

- كان عليّ فعل هذا. خشيت عليهم.

نهضت عنه وهي تتلفت حولها، دارت في أرجاء المكان قبل أن
تعود إليه عاقدة حاجيها:

- ماذا فعلت؟

- الصواب، لم أفعل غيره، خشيت أن يدمر المتعصبون والصوص مقبرته، ورأيت أن يُدفن إلى جانب والديه وبقية عائلتنا. كذلك أتيت بأمي وإخوتنا.

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟ جعلتني آخر من يعلم؟!

- لا يعرف أحد بالأمر، حرصت على هذا.

- كيف قمت به؟ العمال والعبيد سيتحدثون، للجميع ألسنة، ولا أحد يصمت إلى الأبد. من ساعدك؟! حور مُحِب، القائد أي، فرسانك؟!

- عنخ إسن آمون، اهدئي أرجوك، منذ قليل تنعتيني بالذكي الداهية، والآن تتهميني بالحمق، لا يعلم مخلوق بالأمر، ثقي بي، حرصت على فعل الأمر بسرية تامة، وتكفل حارسي تحوتي وقائد المدجاي نب خنوم بالأمر، وأقسما أمام الآلهة بحفظ السر، لقد صرت كبيرًا كفاية لأحكم وأفكر، علمتني الحياة الكثير، ولن أقع في الأخطاء كما فعل أبي، ولم يكن عليه أن يبقى هناك وحيدًا منبوذًا، لا يقوى أحد على ذكر اسمه.

قالت وجلة:

- ولكنه كره طيبة، لم يتمنّ العودة إلى هنا، ونقش هذا على كل الألواح والجداريات، لمَ دنست قبره وأقلقت راحته يا توت؟ لم يكن عليك فعل هذا. ماذا لو علم كهنة آمون بالأمر؟

أخذ كأس عصيره بعصبية، ودفع بعضًا منه في فمه قبل أن يقول:
- لا يشغلني أحد، إنهم ينعمون الآن بحرية العقيدة، فُتحت معابد

ومدارس مذاهب تاسوع أون وثامون الأشمونين وثالثو منف
للوجود، وما زال معبد آتون قائمًا في الكرنك إلى جوار معبد
آمون، الجميع سعداء وكذلك الآلهة، الأعياد والاحتفالات تقام
وتوزع العطايا والهبات، وبينما نتحدث الآن تقام في حضرة
خونسو الصلوات والترانيم، كل قدس أقداس بمعابد مصر
عاد إليها بخورها وقرابينها، خدم وسدنة وكهنة يقومون على
رعاية كل ما هو مقدس، وجيشنا في فينقيا وغياهب كوش يسيطرون
سطوة الآلهة ويمجدها، ماذا يريدون أكثر من ذلك؟! يستحق
أبي مكانه في الحياة الآخرة، حيث يحظى بخلود لا فناء بعده،
كم أتمنى لقاء مرة أخرى على سفينة رع، وأن نجوب السماء
معًا في رحلة الأبدية.

- مخطئ، ما كان يجب عليك فعل هذا، يبدو أنك من نسيت
أننا بدلنا أسماءنا لنرضي أتباع آمون، وكل شيء نفعله تحت
أبصارهم ورضاهم، وبأيديهم تُهدم عقيدة آيينا وما كان يطمح
إليه. ستثير بفعلتك هذه حفيظتهم، وهو الملعون على ألسنتهم.
- إن كنت أخطأت فقصص الآلهة مليئة بالزلل، أنا فقط أسعى
إلى تصحيح ما اقترفه أبي، ليعبد الناس ما يشاءون، ولا ضير
إن بدلنا أسماءنا وألقابنا، ما دمنا نعتنق الخير، هناك حساب
وعقاب، وسيفترس عمعم القلوب الفاسدة، ولن يشفع لهم
أحد عند أوزير. نحن نسل الآلهة، وما آتون إلا واحد منهم،
وعلينا جميعًا أن نعمل لملاقاة مصير مرهون بأعمالنا، وعلى
حور أن يرتقي إلى الأفق يومًا.

شرب ما تبقى من كأسه قبل أن يقبض على عصاه المعلقة على يد كرسيه متابعًا حديثه:

- ألم تشتاقي إلى زيارة منف مرة أخرى؟ أفكر في زيارة حور محب، والبقاء هناك بعض الوقت.

لم تفلح محاولته لتغيير الحديث أن تبدد مخاوفها، أو مات برأسها وشردت، لم يُرق لها حور محب يومًا على الرغم مما يفعله من أجلهما، عصفت صورته بذهنها قبل أن تعود لتأمل حبيبها الذي أخذ يحكي بحماسة عن رحلة صيده الأسطورية في صحراء سقارة. حالم هو توت، يأمل في غدٍ أفضل لشعبه ومملكته، وبداخله تتقد ثورة ورغبة لمنح رعيته حياة هائلة في ظل حكمه. قضيا كثيرًا من الوقت يتحدثان، وحين فرغا ساعدته على النهوض، وخطا ببطء ضاربًا الأرض بعصاه. تعلم ما يعانيه من آلام، والمرض الذي ألم به مؤخرًا، لا تقوى على إظهار ما بداخلها تجاه وهنه الجسدي. روحه قوية، وإرادته ثابتة، وجسده يضعف أكثر. لا تستطيع منعه مما يريد فعله، وتخشى اختياراته، بالكاد تحرر من سلطة الرجلين الوصيين عليه.

أجلسه على طرف الفراش ورفع ساقيه ببعض المشقة ليمددهما، وخلعت عن معصميه وعضديه الأساور والحلي، قبل أن يريح جسده على الفراش. تناولت قدحًا فخاريًا، وبأطرافها غرفت من الدهن الذي يحويه، فركت صدره بلطف ورقة، مسدت ذراعيه وفخذه وركبتيه بالمرهم البارد. لمستها كسحر نافذ المفعول، تحبه وترعاه وتخشى عليه، هو سندها وآخر من يحمل دماء أسلافهما، تمت

لو منحته وريثاً، لكن الآلهة لم تشأ بعد. قبل يومين قدمت القرابين للإلهة الأم موت، التمسست عطفها وناشدتها أن تمنحها ما ترنو إليه. مسدته بالطيب والزيت، ووضعت رأسها على صدره، أنست بدقات قلبه الناعمة، وغفت.



مع ضوء النهار الأول بدأت أفراس النهر بالعودة إلى المياه. تقدم الذكور إلى حافة الشاطئ بعد ليلة رعي بين الحقول، تبخترت كتل العضل واللحم بين العشب متفاخرة بقوتها، تفتح أفواهها على اتساعها بارزة الأنياب والأسنان الحادة، وتقود الإناث الصغار بعيداً لحمايتها من العراك المحتمل بين الفحول، والشمس تبرز في مشرقها ببهاء، وحلق الحمام بين هامات التماثيل وصروح طيبة. وفي باحة القصر اصطفت العجلات الحربية الفريدة المذهبة، خيول قوية يعلو رؤوسها الريش، سرجت أزواجاً في كل عربة، وتراصت فرق الخيالة حاملين رايات بيضاء وسوداء وحمراء مزينة جميعها بألقاب الملك ووسمه.

عظيم الهيئة بهي الطلة، نضر الوجه باسم الثغر، عيناه ذابلتان بحزن لا يفارقهما، بخرته الوصيفات بالكندر واللبان والمر، وعطرت زوجته رقبته وصدره، وقبل رأسها بعد أن ألبسته تاج الخبرش الأزرق، ودعها واعتذر إلى مايا عن ليلة أمس. ومن بين الأعمدة الضخمة بواجهة القصر، نادى مُنادٍ بصوت جهوري تردد صدها:

- انحنوا أمام جلالة حور الذهبي صاحب التيجان الرفيعة، الثور القوي، جميل الولادة صاحب القوانين الطيبة، من يهدئ

الأرضين، مُرضي الآلهة، ملك مصر العليا والسفلى، ومعطي الحياة مثل أبيه آمون رع إلى أبد الأبدين. توت عنخ آمون.

ودوت الأبواق، وسجد الحضور في خضوع وسكون، وبرز الملك بين تمثالي آمون الكبيرين، مشى متكئاً على عصاه، يجر قدماً ويكاد يرفع الأخرى بصعوبة. ينتعل صندلاً ذا خُفٍّ جلدي عاونه على المسير، وعلى الرغم من عرجه فإنه كان مشرقاً بإطلالته الجميلة، يرتدي شنديت أبيض وحزام غمد عريضاً مذهباً عُلق فيه خنجر ورثه عن جده، وغطت صدره درع حربية من حراشف جلدية مذهب، وأحاطت ساعديه أساور من ذهب مصقول مليئة بنقوش وتعاويذ، وفوق رأسه تاجه الأزرق الذي تتوسطه أفعى وادجيت الحامية. لم يجرؤ أحد على رفع رأسه والنظر إليه، تحامل على آلامه وحث خطاه حتى ارتقى عربته الحربية، أضيفت إليها مظلة ومقعد وأحزمة جلدية لتثيته، ساعده حارسه المخلص تحوتي في ربطها. ومن ردهتها راقبت الملكة وحاشيتها خروج الموكب المهيّب. الرايات الملونة تخفق والعربات الحربية تسير على مهل تشق طريقها بين صفّي الجند إلى خارج القصر، وعبر الركب المدينة وسط ابتهاج العامة وزحامهم، هتفوا باسمه ورفع يده محيياً إياهم. وما لبث أن خرج الركب إلى الأرض الرحبة، انطلقوا يسابقون الريح، ومن خلفهم راحت طيبة وعمائرها الضخمة تتضاءل رويداً حتى ابتلعها الأفق.

أحب ركوب العجلات الحربية، ورُسمت اللوحات التي تمثله وهو يقود عربته ويقتل أعداء المملكة. لم يخرج للحرب يوماً، إلا أن المحيطين به أرادوا منحه ما عجز عن تحقيقه، سجلوا بطولاته

في معارك على أراضٍ بعيدة لم يذهب إليها قَطُّ، ووجد هو في الصيد ما يعوضه عن الحروب ومشقتها. وقع حوافر الخيل ذكره بآخر رحلات صيده في منف حين كان في ضيافة وزيره حور محب. قاد توت فرسانه بمهارة على الدرب المؤدي إلى وجهتهم، وعلى ربوة عالية وقف يرقب بقية الدرب، الوادي الشاسع يشقه النهر الملتوي الملتحم بالأفق، وجبال الصحراء تحيط بجانيه بصفرتها وقسوتها، سيكون عليهم عبور النيل على طوافات الخشب في تلك الناحية، حيث يضيق النهر عند بقعة مليئة بالجزر قبالة مستقر إله الحرب.

استقبل الملك بترحاب بالغ، وعمت أرجاء أيون منت فرحة عارمة، بلدة قديمة مكتظة بالمنازل، مرور جاله أسفل بوابتها التي تقف على جانبيها ثيران جرانيتية عملاقة، وتشق قنوات ماء جارٍ شوارعها المؤدية جميعها إلى بستان متورع، ويقسمها درب يقود إلى المعبد الذي ينتصب أمامه تمثال ضخم لإله الحرب، جسد بشري له رأس صقر ذي منقار معقوف، وفوق رأسه قرص شمس وريشتان، ممسكًا بمفتاح الحياة في يساره، ويمد يمانه مستندًا إلى رمح عملاق.

توافد الناس إلى أبواب المعبد ليروا ملكهم الشاب، بالكاد رأوه يدلف إلى رواق الأعمدة ذات تيجان البردي والنخيل، ونُقشت أقطارها بصور جده البعيد تحتمس الثالث، المحارب الذي لم يُهزم قَطُّ، وأقام مملكة مترامية الأطراف. أخذ كبير الكهنة يشرح لمليكه مراحل تطوير المعبد، وتوقف الجمع عند بحيرة صغيرة يتوسطها محراب قدس الأقداس، وإليه حمل السدنة صناديق القرابين وخرجوا من دون أن تستقيم ظهورهم، ودلف توت إلى حرم إله الحرب،

أسند عصاه إلى الجدار، وارتكز بيديه عند قدمي متو، طأطأ رأسه، وأخذ يهمس بصلواته وأمنياته. توقف برهة مبتلعاً ريقه قبل أن يكمل بخفوت: «أيها الثور العظيم، متو، إله الحرب والنصر، من أجلك تُراق دماء أعدائنا. إليك جئت وأرجو أن تعتذر إلى أبي عند بقية الآلهة، إنه لم يقصد كرهكم. بل قدس رع وصورته المتمثلة في آتون. أرجوك عاونه على الصعود إلى السماء على جناحيك العظيمين، ولتشفع له عند الإلهة نوت لتقبله بين نجومها، كن دليلاً في حقول القصب الأبدية، واجعل صيدنا رهن أيدينا، لنطعم منه الفقراء والمساكين، وتقبل قرباني من غنائم كوش وآسيا».

أنهى صلواته وخرج مبتسماً صافي الذهن، مشى رفقة صحبته الذين كانوا بانتظاره، وشكر الكاهن المتملق، وهم بالرحيل، ولكن الرجل أوقفه قائلاً:

- ملكنا العظيم، سيكون من الرائع أن تزور الثور المقدس الذي حل به الإله متو.

تبادل النظرات مع حارسه تحوتي الذي أوماً برأسه موافقاً، وتحركوا إلى فناء شاسع محاط بأربعة جدران يتوسط كلاً منها تمثالٌ لملك جالس كأوزير، وفي وسط الساحة المعشبة وقف ثور كبير يرعى. جسد مشحم مكمل العضلات، أبيض الجلد أسود الرأس، عظيم القرون ومزين بالقلائد وسلاسل من ورد، وعلى ظهره بُت قرص شمس ذهبي. هادئ الهيئة شديد الهيئة، رفع رأسه ونظر تجاه زائريه، وعاد إلى وجبته من العشب من دون أن يبالي. اقترب منه الملك وسط نظرات مرافقيه الحذرة، ووضع يده على ظهر البهيمة

المقدسة، وأخذ يتحسسها والأخير يلوك طعامه ببطء والزبد ينسل من بين شفتيه، يرف جفناه بين الحين والحين، والملك يغوص في سواد عينيه، باحثاً عن منتو المتجسد في ذلك الحيوان القوي، ومال إلى أذنه هامساً: «ليبقَ ما طلبته منك سرّاً أيها القوي».

على الرغم من أن المحيطين به لم يسمعوا قوله، فإنهم ضحكوا من فعله، وانشرح قلب الكاهن الأعظم للمعبد، وامتلاّت أعين السدنة والخدم بالسرور. بعدها دار الملك وأخذ يتفحص تماثيل الملوك الأربعة بفناء الثور المقدس، ملامح وجوههم مختلفة ما بين تجهم وصرامة وإشراق وابتسام ظفر، ولما أطال النظر إلى تمثال كبير ذي وجه أسود ويرتدي رداء حابك، وعلى رأسه التاج المزدوج، تدخل الكاهن قائلاً:

- إنه الملك متوحتب نب حبت رع، الذي انتشل البلاد من الفوضى بعد سقوط المملكة القديمة، والآخر ذو الملامح القاسية والأذنين البارزتين هو سنوسرت الثالث. وهذا تعرفه بالتأكيد، جدك أحمس الأول، معتمراً تاج مصر العليا الأبيض، والذي قبالة ذو النمس والصل...

قاطعته توت ببرود:

- العظيم تحتمس الثالث... سأعطي أوامري للنحاتين والرّسّامين بتسجيل زيارتنا للمعبد.

- إن هذا من دواعي شرفنا، وأمر جليل يستحق التدوين، منذ زمن لم يزُرنا حور الأرض، ملك مصر العليا والسفلى.
بدأ الملك في التحرك قبل أن ينهي الكاهن كلماته. خرج ورفاقه

من المعبد، وانحنى له العامة والخاصة، كانوا يتفاءلون به وما يستطيع فعله، زيارته المفاجئة أضفت على يومهم كثيرًا من المتعة والفضول والبركات، وبدأ أنه مختلف عن أبيه المتعصب لآتون. غادر الموكب أيون منت باتجاه الغرب، حيث أعدت مقصورة الصيد على حافة الصحراء.



أقيم مخيم الصيد وحُلت الخيل ووُضع لها العلف والماء، وتحلق رفاق الملك أمام كوخ اللبن الممحر بالملاط الأبيض، ألحق به حمام وحوض للراحة والاسترخاء، تجاوره سقيفة من السعف تظلل بئر ماء، وبضع نخلات من ورائها جبال شاهقات كجدار يفصلها عن وادي النيل الظليل. أوقدت النيران وجُهزت قدور الطعام، وتحرك الخدم بنشاط ينفذون أوامر قادة الرحلة، والذين يشرفون على جميع الأعمال، أولهم النشيط معي، لم يكن فارسًا، ولم يعرف عنه يومًا أنه يحب الصيد، يعمل كاتب مالية الملك، نبيه دقيق الملاحظة، يُسجّل كل شيء وينفذ ما يؤمر به، قصير القامة مشحم الجسد عريض الكتفين غليظ الرقبة، له نظرة حادة ثابتة على الرغم من البلادة البادية على هيئته.

وثانيهم ذو النفوذ والكلمة العليا، باسر بن حوي أو كما يطلق عليه «مربي الثعابين»، فهو شاب أسمر متين الجسد رشيق الهيئة، طويل القامة يتوسط خصره حزام مذهب عريض، ومن تحته شنديت أبيض، وعلى ساعديه أساور حُفر عليها اسمه ومنصبه، مشرف الخيول الملكية وقائد طليعة العربات الحربية، صديق الملك منذ الصغر،

تربى معه في آخت آتون، وكبرا معًا، نبيل المولد وهذا ما يميزه عن البقية أن والده نائب الملك على كوش.

ثالثهم تحوتي بن عَحا المنفي، شاب من منف، وهب نفسه لحماية المَلِك، وهو أقرب الناس إليه، حارسه الشخصي وأمين أسرارهِ، يلازمه أينما حل، هو ساعده وسيفه ودرعه، أقسم إنه لن يتخاذل يومًا عن نصرة ملكه. حنطي ذو جسد مفتول يليق بسيف ماهر، على كتفيه رداء كتاني ذهبي أنيق، ويحيط عنقه بصديرية من البرونز مرصعة بالزجاج الملون عليها ألقاب فخره. يكبر الملك ببضع سنوات، ويحظى بمكانة عظيمة داخل البيت الكبير.

مع المغيب وأمام كوخ الصيد فُرشت الأرض بالحصير ووسائل الريش، وعلى كرسي مذهب جلس توت وصحبته حوله. مشاعل عدة نُثرت في أرجاء المعسكر، ودوريات حرس تجوب الأنحاء فرادى. دخان ورائحة شواء جَدِّي صغير أثارا شهية الحضور. محظوظون جميعًا بتناولهم عشاء رفقة الملك، الرقيق في تعامله مع خدمه ويتلطف بهم، لا ينهر ولا يعبس، باسم الثغر على الدوام، يأنس بقصصهم وحكاياتهم مكتفياً بالإنصات، وتسابقوا في سرد مواقف طريفة وأخرى مرعبة، يأكلون ويشربون ويتسامرون، وقام أحد الخدم وقلد رقص امرأته، بئس تزوج متسلطة جعلته مجنونًا. وبعد العشاء تكلم باسر بن حوي، وراح يقص على سيده والحضور رحلته قبل سنوات إلى كوش لزيارة أبيه، والإبحار الصعب في الشلالات الهائجة، وجزيرة الفتين البديعة وأسواقها العامرة بصنوف البضائع النفيسة، متباهيًا ولا ينفك يذكرهم أنه أنبل الحضور وأقدمهم رفقة،

وأنه سمير الملك الوحيد، وعرج على هواية تربية الأفاعي والشعابين، منذ أن كان صغيراً يلهو في آخت آتون، ختم كلماته:
- كان ذلك في عهد الملك أخناتون.

صمت مهيب حلّ عليهم، وهبت ريح باردة مرت بالوادي كادت تخمد النيران، نهض توت متكئاً على عصاه، فانتفضوا قياماً مطأطئين الرؤوس، رحل من دون أن ينطق كلمة، ومع يعاتب باسر بنظراته، لم يكن عليه ذكر اسم الملك الوالد، وتبع تحوتي الملك إلى استراحته. استلقى توت على فراشه الوثير ممسكاً بخنجر جده الأثير، قلبه بخفة بين أصابعه، على الرغم من شعوره بأنه صار سيد قراره بوصفه ملكاً فإنه ما زال مقيداً بذكرى أبيه، إن كان من نسل الآلهة حقاً لماذا يولد مريضاً، لماذا عليه أن يعاني بفقد من يحبهم؟!

فطن لوجود حارسه ما زال يقف عند الباب، ألقى ببصره ناحيته وسأله:

- تحوتي، لماذا لم تذهب للنوم؟!
- أيها الملك، واجبي البقاء قربك وحمايتك.
- ممن، وحولي كل هؤلاء المخلصين؟! من ذا الذي يريد إيذائي؟! معي أفضل صديق وحارس شخصي، أليس كذلك أيها المنفي؟! يوم رأيتك أول مرة في منف، كنت تواجه أفراس النهر وحدك، تحاول إبعادها عن صياد علقت طوافته بينها، أبهرتني بمهارتك وقفزاتك فوق الأجساد الضخمة الزلقة متفادياً الأفواه والأنياب المدبية، رأيت على الشاطئ أناساً بلداء، وأنت تخاطر بحياتك لأجل رجل هزيل!

- من حسن طالعي أن جاء محبوب آمون ورآني، وأوقن أن الآلهة اجتبتني، وماذا يريد المرء أكثر من شرف خدمة حور الذهبي سيد الأرضين، الذي أصلح حال بلاد على شفير السقوط، وعُمرت المعابد بعد أن كانت قاعًا صفصفًا، وانتصرت الجيوش في فينيقيا بعد هزائم عدة، هل هناك أسمى من كوني خادمًا لسيد الأقواس التسعة الذي انحنت أمامه، بفضلك أقبلت الآلهة تستجيب لدعاء الناس من بعد إعراض. أرجو ألا تكون ساخطًا على باسر بن حوي، إنه لم يقصد شيئًا.

- لست ساخطًا عليه ولا ألومه، عاش باسر في رعاية أبي وبلاطه ويكن له كل تقدير، ومن العسير أن يجد المرء رفيقًا مخلصًا مثله، ثم من يستطيع محو ذاكرة الناس، ثمانية أعوام ليست كافية لمحو ما حدث، وربما يتغير كل هذا يومًا وأعيد صياغة التاريخ مرة أخرى.

صمت برهة قبل أن يتابع:

- العامة لا يعلمون ثقل ما كُلف به الملوك، اختارت الآلهة أسرتنا لتقيم ميزان ماعت، وهو أمر ثقيل على عاتقنا، علينا ألا نظلم ولا نفسد ولا نعتدي، ونسعى إلى إنقاذ أرواحنا والانتقال إلى الأبدية، نشرع في بناء معابدنا الجنائزية ومقابرنا فور تولينا الحكم، ونعلم أن طريق الصعود إلى السماء مليء بالمهالك ومظالم الناس والآلهة. إن حياة الملوك بائسة حقًا، أو أنا فقط من يشعر بهذا، سنوات قضيتها تحت وصاية القائدين آي وحور محب، لا أنكر أنني تعلمت منهما الكثير، وما ألمَّ بي من مرض

منعني من تخطيها في الآونة الأخيرة، وها قد استعدت عافيتي
وسأخرج للحرب والصيد كما يحلو لي. أفكر في أن نذهب قبل
الفيضان إلى منف، قل لي هل اشتقت إلى مدينتك؟

- سيكون عليّ حمل كثير من الهدايا لأمي وإخوتي، هذا ما
يشغلني كلما تذكرت منف الصاخبة.

- صاخبة، لكن عتيقة وجميلة، عمائرها ومعابدها شاهدة على
قدم وعراقة أسلافنا وما أنجزوه من آلاف السنين، كم أتمنى
أن أزور كل مدن وقرى مملكتي، والتجول بعربتي الحربية في
أصقاعها كما كان يفعل أجدادي.

رأى تحوتي مسحة الحزن الجلية على وجه ملكه على الرغم من
حماسته، وحدثه بلطف:

- ستفعل بالتأكيد كل ما ترنو إليه نفسك. سأدعك تستريح الآن،
أمامنا يوم حافل غدًا، أنا بالخارج إن احتجت إلى شيء.

غادر بعد أن دثر ملكه ووضع بقربه إناء ماء. كانت هذه المرة
الأولى التي يرى فيها توت حزينًا بهذه الطريقة، ليته يستطيع فعل
أي شيء من أجله، لكنه ليس سوى حارس شخصي يحمل على
عاتقه حمايته.

* * *

صباح ندي مشرق أعدت فيه العربات الحربية وسُرجت الخيول،
مُلئت جعاب الأسهم ونُظمت الحِراب، وجاء الملك باسم الوجه،
وصعد إلى عربته الخاصة، جلس على كرسيه واضعًا عصاه في
الزاوية، وجاوره سائق العربة ممسكًا بلجام الجوادين القويين.

الجميع كان بانتظار إشارة توت الذي أمسك بقوسه وشد وتره يجربه، لوح بيده، وانطلق ركب الصيد إلى الصحراء. تسابقوا وهو يصيح في الخيل لتنتقل أكثر. طرقت السياط في الهواء، وارتفع صرير العجلات، حمحت الجياد وزفرت، وخفقت رايات ابن آمون مع الريح، مبهجًا والهواء يلفح وجهه وصدره، تقدم رجاله مبتعدًا عنهم، حتى نجح تحوتي في مجاراة عربة الملك، نادى في السائق بأن يهدئ السرعة:

- علينا الإبطاء قليلًا لرصد القطعان، وإلا فزعت من جلبة سباقنا هذا.

نظر الجندي إلى الملك الذي أوماً إليه برأسه، وشد برفق لجام الخيل لتبدأ العربات في التباطؤ حتى توقفت تمامًا، وراح الكشفاء يرصدون الأفق، وتوت يحدث باسر بن حوي قائلاً:

- أتمنى أن نجد زمرة من الأسود واللبؤات.

- سنجد ما يسر روح محبوب آمون.

قال جملته وهو يراقب رجاله الذين انطلقوا مستكشفين الوادي المكسو بالشجيرات الجافة، تقدموا كثيرًا عن موكب الملك الذي قال ساخرًا للكاتب معي:

- وأنت يا معي، هل ستقنص اليوم أم ستكتفي بالمشاهدة كعادتك؟!

- تكفيني صحبتك أيها الملك العظيم، جلالتك تعلم أنني لا أستطيع الرمي، ولكني قدمت قربانًا للإلهة نيث لتوفّق في صيدك اليوم.

كاد توت يتابع حوارہ، ولكنه لمح شيئاً، ضاقت حدقته وهو يراقب عودة باسر بعربته الحربية، اقترب صائحاً:
- هناك قطع من الغزلان قرب سفح الجبل.
ابتسم توت وهو يقول لكاتبه:

- يبدو أن قربانك تُقبل يا معي. انطلق يا رجل، ماذا تنتظر.
تحركت العربات، شكلت قوساً مقلوباً يتوسطها ملكهم الباسل الشجاع، وانتبه قطع الغزلان لوقع حوافر الخيل ورجرجة العربات، ركضت مشتتة تطاردها وتحاصرها العجلات الحربية، تتفادى الأسهم المتطايرة من حولها. وزاد سائقه حماسة مع صياح ملكه، أرخى اللجام للجوادين وتسارعت المطاردة، يطرقع الهواء بسوطه وبالكاد تلمس الحوافر الأرض. سرعة جنونية ارتجت بفعالها مفاصل العرب المذهبة، والتقط توت سهمه، ثبته، وشد وتر قوسه مغمضاً عينه اليمنى، والأخرى تترصد غزاً في مرماه، وتباطأت حركة الكون حين قرر الرمي وإفلات سهمه. وما إن تركه، طارت العجلة اليسرى فجأة، انفكت وراحت تتدحرج بعيداً عن جسم العرب، اختل توازن السائق الفزع، وسقط خارجها مرتطمًا بعنف محطم العظام على الحصى والرمال، جنّ الجوادان وراحا يركضان بقوة أملاً في الإفلات مما يجرانه خلفهما، وقبل أن يتدارك توت ما يحدث اصطدمت العجلة الأخرى بصخرة، بقسوة وقوة تهشمت وسقط الملك أرضاً.

وقع تاجه الأزرق بعيداً عنه، والدماء تسيل من جرح برأسه، ألم هادر تملك من مفاصله وأوصاله. فتح عينيه فزعاً، والغبار والدم يلطخان وجهه، حاول أن يعتدل جالساً ولم يقوَ. خارت عزيمته ولم

تسعه قوته، طنين تملك من قاعي أذنيه مرججاً رأسه، واقتحم سحابة الغبار فجأة فحلان قويان يطرقان الأرض طرقاً ليعلنا عن النهاية، حاول سائقهما الحول دون دهس ملكه المصاب، جذب لجامهما بقوة مما جعلهما ينحرفان قليلاً. ولكن الأمر لم ينجح تمامًا، مرت إحدى العجلات على صدر الملك، وتفجرت الدماء وتناثرت.

ساد الهرج والفرع، أوقفت العربات وهبط رفاقه مرتاعين، انقشع الغبار رويداً، وكان أول الواصلين تحوتي، انكب على ملكه يحدق إليه، وما لبث أن فغرفاه وجمدت الدماء في عروقه. تجمع الفرسان والهلع يحتل وجوههم، ومن وراء الأجساد كان معي يتحسر ويندب على ما حل بملكه. دفع باسر بكل قوته الرجال بعيداً، ودلف إلى الدائرة، خر على ركبته ليتفحص صاحب عمره، وبين يديه كان توت يحملق إلى السماء بعينين مفتوحتين، تعقدان دماً بيياضهما وانعكس في سوادهما صقر كان يحلق فوقهم. رف جفنا الملك وارتعشا قبل أن يثبتا وقد زفر نفسه الأخير.

٣ ثور أمه

«النجوم لا تعرف الكلل، زينة نوت،
وسع خطوتك وعظمها على أرض جب.
خلقك خنوم لغاية، وباركك رع بضياه
واجتباك بتاح كابنه نفرتم.
كن أنت ولا تكن غيرك، يا ثور أمك الجليل».

منف

قبل أيام...

مدينة سيد الحقيقة سامع الدعاء، راعي الحرفيين والصناع، بتاح إله
المخلصين والصادقين، الذي اتخذ من مدينة الأسوار البيضاء قصرًا
ومستقرًا له، يتوسطها معبده عالي البنيان، يتضاءل بجواره كل شيء،
وتحيط به ساحة شاسعة تحدها أشجار النخيل والجميز المصطفة
على جانبي طريق ممهد بكسر الجرانيت، وتتصب عند بوابته مسلتان
عظيمتان، وعلى الواجهة الكبرى اصطفت ستة تماثيل عملاقة، ثلاثة
في كل جانب، يتوسطها بتاح بوجهه الأخضر وجسده المكفّن برداء

أبيض، ويداه مضمومتان إلى صدره تقبضان على صولجان واس يعلوه
مفتاح الحياة، وعن يمينه وقفت زوجته ومحبوبته السيدة الجبارة،
إلهة الانتقام، سخمت اللبؤة القوية، يعلو رأسها قرص الشمس،
وعلى يسار الأب يقف ابنهما نفرتم صبي جميل له ضفيرة على
جانب رأسه الأضلع، إله الشفاء والجمال، ومباخر المعبد لا ينطفئ
جمرها، ورائحة الطيب لا تُمحى من تلك البقعة الهائلة. يجاور
المعبد حي عنخ تاوي الضارب في القدم، مشجر بصنوف الأشجار
المزهرة والكرم، مقام النبلاء وسكن الأمراء، ويُشاع أن تحته سرايب
قديمة تصل حتى جبانات سقارة، هنا عاش بناء الأهرام من المملكة
القديمة، وهنا وُحِدت الأرضان مرة أخرى على يد نعرمر، يقولون
إنه بناها على أنقاض مدينة من زمن غابر سحيق، وأهلها يفتخرون
بأن مدينتهم قائمة منذ أيام أتباع حور، ومن قبلهم الآلهة.

داخل المعبد وفي بهو بتاح وتحت قدميه، انحنى حليق الرأس
ساجداً، بسط يديه على الأرضية الباردة الملساء وأسند إليها جبهته،
هامساً: «أنا حور، لست إلهاً ولا ملكاً. تعرفني يا سيد الحقيقة، رسام
بائس الحظ، ابن صياد لا يملك إلا كوخ لبنٍ وسقيفة قش، وطوافة
خوص يبحر بها قرب ضفة النيل، وأمي هي نفح الطيب من الآلهة،
تفلح وتبذر وتعزق حقلاً صغيراً يختفي كلما جاء الفيضان، وكان
لي إخوة قضوا في صغرهم. لم يتبقَّ لهما أحد غيري، تعلم أنني دائم
التردد والمبيت قرب معبدك المقدس، هنا تعلمت على يد كهنتك
تجهيز خلطات الألوان للطلاء والرسم، وفي حضرة زوجتك المباركة
سخمت كتبت وقرأت، ولازمت الكهنة المرتلين لابنك الجميل نفرتم

حتى في سنوات الضيق والتشديد، بحثت عن ذاتي وما أريد كثيرًا، في كل مرة أقول سأنجح، وما ألبث أن أعود إلى ما قبل نقطة البدء، وأجد أن عليَّ النهوض من جديد. أعني حقيقة الحياة التي خلقتنا من أجلها الآلهة، وكيف صاغ خنوم حواسنا لنخدم بها الخير. أرسم وأنحت قصص الآلهة لعلها تشفع لي في قاعة الحساب أمام ميزان ماعت وحكم أوزير. أنا ابن أبي وأمي، زوجين تقاسما الفقر والبؤس وعلى الرغم من ذلك صبرا، مؤمنين يؤديان طقوسهما ونذورهما متلذذين ببساطة العيش، لا يحملان غلاً ولا حقدًا لأحد. أكره تهكم العامة على اسمي، سُميت به تيمناً بملك الآلهة والبشر ابن أوزير وإيست، اسم اختُص به الملوك وقلّة من النبلاء دون غيرهم من الناس، فكيف بفقير معدم يجوع إن لم يعمل؟! لم تأبه أمي بما يقوله الناس لها، ومنحتني كما تقول بركة حور الذي في السماء، بسيطة ترجو الخير والصالح للجميع، سمحة الوجه باسمه الثغر، لا تريد من الحياة إلا ما قسمته الآلهة لها. إن أمي تجسيد لإيست وتضحيتها وعزمها وصبرها على البلاء، أما أبي بصلادته وجديته وقلبه الذي لا ينبض، فهو كمثّل أوزير سيد الغرب وعالم الأموات، وإن كانا كذلك فأنا حور الفقير وليس الذهبي ملك السماء والأرضين، لا أسخر من قدري، وأرجو أن تحفظ أبوي في غيابي، وأن تيسر لي سفري ومقامي، وليشهد تاسوع أون على مآثري ورضاي التام بمشيئتهم».

أنهى حور حُتب صلواته، ونهض رافعاً رأسه نحو وجه بتاح ذي الخضرة اللامعة، راجياً أن تسير رحلته على ما يرام. أتم عامه العشرين منذ أيام، وها هي ذي الآلهة تقرر مصيره بالذهاب إلى

طيبة في رحلة يشتهيها منذ الصغر. مر بالسوق الكبيرة للمدينة، متفقداً بعض المعارف، وقادته قدماه إلى ورشة عحا النَّسَّاج. رجل هَرَم محني الجذع ذو حاجبين نال منهما الشيب، حليق الوجه كثير التجاعيد، لا يخلع غطاء رأسه إلا داخل بيته، يكتحل كل صباح، ويرعى بستانه قبل الخروج إلى حانوته وورشته الملحقين بمنزله الكبير، الواقع قرب البوابة الشمالية في بقعة مميزة على أطراف حي مشجر بالنخيل والنباتات المتسلقة، عتيق البنيان يسكنه موظفون ومهندسون وكُتَّاب، وهم أكثر زبائنه، ويبيع لهم أجود أنواع الكتان، يفصل المآزر والنقب والشنديت للرجال، والأثواب الطويلة المطرزة والأردية الخفيفة الشفافة للنسوة. ابتهج الكهل فور رؤيته للزائر على عتبة الحانوت، خرج إليه بعد أن أوصى صبيانه بإتمام أعمالهم، حيَّاه بصوته الخشن:

- هبطت علينا النعم والبركات برؤيتك يا حور.

ضحك الشاب ممشوق الجسد، ورد على الكهل بمرح:

- لستُ مَنْ تقصد بالتأكيد، ليس لديَّ جناحان كملك الآلهة والبشر.

- بل أنت يا ابن حتب الصياد. أتفاءل بك ويعلم بتاح كم أذكرك في صلواتي ودعائي، ثلاثة أشهر وأكثر منذ رأيتك آخر مرة.

- كنت في إهناسيا. نعمل على ترميم سدود ومعابد قديمة.

- جميلة هي تلك البلدة وأنحائها، يقولون إن سدودها عظيمة الصنع، وتخزن الكثير من ماء الفيضان في بحيرة كبيرة لا مثل لها بجميع المقاطعات.

هز حور رأسه إيجابًا:

- إن ما وصل إلينا من علوم القدماء ليس إلا كغرفة ماء من بحر شاسع.

وضع الرجل ذراعه على كتف ضيفه، وانفرج ثغره بابتسامة عريضة:

- كم اشتقت إلى الحديث معك يا رَسَام الآلهة. لطالما قلت لتحتوي إنك أفضل صديق اختاره في حياته.

- على ذكر تحوتي، أنا ذاهب إلى طيبة. سنبحر مع شروق الشمس...

وجم الرجل، وتمتم مقاطعًا إياه:

- سترحل أنت أيضًا؟

- إننا ذاهبون بناءً على طلب أحد الوزراء المهمين في بيت الملك،

عدد كبير من العمال وأصحاب الحرف طُلبوا إلى هناك، كما

تعلم أنه منذ تولي الملك توت مقاليد البلاد وتبدلت الحال.

امتعض عحا، ورفع ذراعه عن كتف حور ليدلف إلى حانوته قائلاً:

- لا شيء يعود كما كان. آه يا فتى، تعرف أنني وُلدت في آخر

عهد أُمْنَحْتَب الثاني، وعاصرت الشاب القوي تحتمس الرابع،

ومن بعده ابنه العظيم أُمْنَحْتَب الثالث، عهد ذهبي عمرت فيه

الأسواق بصنوف البضائع من جزر البحر وآسيا وبلاد بونت،

وكان يأتي التجار من كنعان وكوش للبيع والشراء، ونعمت

جميع مقاطعات مصر بالرخاء والترف، حتى جاء ذلك اللعين

بمعتقداته الغريبة ليمحو آلهتنا. اتخذ لنفسه مدينة حشد فيها

مؤيديه ومناصريه، سخر الأطفال واستغلهم لحمل الحجارة وبناء معابده، أهمل حدودنا وتنصلت وتمردت الأمم التي كانت تخضع لنا، وشحت البضائع وأهملت الدواوين. بدّل كل ما عهدناه وأصابنا بالقحط والجذب. انظر أين هو الآن، لا يجروّ أحد على ذكر اسمه، حتى ابنه.

لكزه حور بلطف، لا يجب أن يذكر الملك بسوء، ولكن الرجل حانق غاضب، أربعة أعوام مرت على رحيل ولده إلى طيبة، ولم يأت فيها لرؤية أبيه وأمه وإخوته. حاول حور إخراجه من شروده قائلاً: - انظر إلى نبل ما يفعله ابنك، التمس له العذر وابتهج بالمنزلة الرفيعة التي حظي بها ويتمناها أي شخص.

رماه عحا بنظرة طويلة، وقال بوجه خالٍ من أي تعبير: - أخشى عليه من مكائد القصر، وست الذي يغوي القلوب، أعلم أن الملك الشاب كمثّل جذوة مشتعلة في سبيل رشاد هذه البلاد، وأعلم أن حالها لن تصلح إلا بشبابها، ولكنني عشت ما يكفي لأرى سوء الحال يزداد أكثر. دعك من كل هذا يا حور، سأجهز لك بعض الأغراض لتحملها إليه.

ضحك الشاب وقال:

- ما جئت إلا لهذا.

غاب الرجل داخل البيت بعض الوقت، وتجول حور في أرجاء الورشة حيث تتراص أنوال خشبية، يجلس أمام كلّ منها عامل أو عاملة تنسج خيوط الكتان، هذا خفيف وهذا ثقيل، وآخرون يجففون أعواده وينسلونه، وفي الجانب الآخر نسوة يخطن الأثواب، وأخريات

يطرزن الحواف. جاء عحا بجعبة من الجلد وضع فيها وزوجته بعض الأغراض لابنهما، وبردية لُفت بعناية، وكذلك أهدها الرجل شنديت جديدًا وصندلًا. أخذ حور الأغراض، وأراد أن يدفع ثمن الشنديت والصندل، وبخه الكهل وقال وهو يودعه:

- أبلغ تحوتي أنا راضون عنه، وأن أمه وإخوته يأملون رؤيته قريبًا. وأنت يا حور لا تجعل طيبة تسلب روحك مثله.

مضى عبر طرقات منف العامرة بحوانيت وورش الحرفيين إلى بوابتها الجنوبية، سار بين الحقول والأطلال وشمس المغيب تتهدى راحلة في حمرة الأفق، مانحة الأهرام المطلة على الوادي ظلالًا مهيبة، والبط والإوز تعود إلى أعشاشها على حافة الماء، قرب كوخ والده القائم وحده على ذراع رملية تعلو ضفة النيل، وطوافه الخوص مستقرة على وحل الشاطئ، يعلم في قرارة نفسه أن الليلة لن تمر إلا بمشادة مع أبيه، الذي ينعته تهكمًا بـ «ثور أمه»، لطالما سخر منه بسبب تدليل والدته له. على العتبة الخارجية كانت أمه تنظف سمكتي بياض. سُرّت لرؤيته، وضاحت عيناها وسألته بينما تتفحص ما يحمله:

- حور، أين كنت طوال النهار؟!

ابتسم بفعل فضولها لما يحمله:

- في الصباح اجتمع بنا رئيس العمال، وقضيت الظهيرة وبعد الظهيرة جلست في رحاب معبد بتاح وعرجت على السوق.

- ماذا اشتريت؟

- لم أشتري شيئًا، إنها أغراض تحوتي.

توقفت عن تنظيف السمك، وتطلعت إليه بعينيها الواسعتين:

- عاد من طيبة؟

- لا، بل طلب مني والده أن أحملها له. أنا ذاهب إلى طيبة في الصباح.

رمى جملة الأخيرة، ودلف إلى المنزل ليصطدم بوجه أبيه الجالس في أحد الأركان وبجواره مصباح زيت فخاري صغير. لم تستطع الأم صبرًا، دخلت إلى الدار خلف ابنها قائلة بحدة:

- ماذا يعني أنك ذاهب إلى طيبة؟ للتو عدت من إهناسيا.

وضع حور ما في يده بحجرته الصغيرة للغاية، وعاد إليها قائلاً:

- لدينا عمل هناك. الملك أرسل في طلب مجموعة كبيرة من الحرفيين والصناع، ونحن رهن إشارته وأوامره.

زمت شفتيها، وضعت سلة السمك من يدها وهي تقول:

- متى ستعود؟!

جلس قبالة والده الصامت قائلاً:

- لا أعلم.

جاءت بجرة ملح، وأخذت منها لتفرك السمك:

- كان عليك إخبارنا من قبل، حتى لا نقع في حرج مع الناس.

- أي أناس هؤلاء؟

- أهل الفتاة التي سنزوجه إياها.

- من قال إنني أريد الزواج، لم أطلب منك أن تفعلني هذا.

هنا تدخل أبوه بغلظته وصوته الرخيم:

- ماذا دهاك أيها الشقي، ألا تراني جالسًا أم أن خصامي لك

جعلك أكثر تبجحًا، هل ستبقى شريدًا هكذا تنتقل من مقاطعة

إلى أخرى، ولا تجني سوى الشقاء. من هم في مثل عمرك لديهم
عيال وأنت زاهد في الزواج، هل بك علة؟!
وأضافت والدته وهي تدعك خياشيم السمك بالملح:
- يا بُني عليك الاستقرار وبناء أسرة وإنجاب أطفال.
- ماذا سيصبحون؟ مجرد بؤساء فقراء لا يعرفون سوى مرارة
القحط. إن الحياة معاناة، ولا أريد أن يصبحوا مثلي.
أشاح والده بوجهه عنه وقال:

- كفاك كآبة، وكن راضياً تغنم السعادة.

احتد صوت حور وهو يرد على أبيه:

- أأنت أنت من كنت تخبرني بأن عليّ الاقتداء بتحوتي الذي
ينتهب الفرص ولا يغلب إلا مصلحته! لن أتزوج وأنا بالكاد أعيّل
نفسي وأقيم معكما.

تبدلت نبرة صوته مرة أخرى حين رأى الحزن على وجه أمه،
واستطرد بلطف:

- أنا راضٍ بما أنا عليه الآن، سأبحر في الصباح ولا أنوي الذهاب
وأنتما غاضبان عليّ، وسأعود فور انتهاء مهمتي هناك، أعدكما
بذلك، وحينها ننظر في أمر الزواج.

تناولوا العشاء كعائلة ولم يفعلوا هذا منذ زمن، وحكى لهما عما
رآه في إهناسيا، وعمائرها وأهرامها مختلفة الألوان والأشكال،
وأخذت أمه تعيد عليهما حكاية حفظتها عن ظهر قلب، يوم تمرد
الناس على الآلهة وأرادوا محاربتهم، ظنوا أن آتوم رع شاخ وهرم،
خرجوا عليه وترصدوه محاولين قتله، وكان عقابه شديداً على البشر،

أرسل إليهم ابنته سخمت التي خلقها من أنفاس تفنوت الحارقة، لتنتقم منهم وتسومهم سوء العذاب، وعاثت اللبؤة في الأرض قتلاً وفساداً، وأسرفت المفترسة في سفك الدم وشربه وكادت تفني الناس، ولكن آتوم رع رحيم بعباده حكيم بفعله، جعل لها بحيرة من النبيذ بلون الدم الذي تشتهيه، شربت وارتوت وهدأت وتوقفت عن القتل. أما قصص أمه عن الآلهة وجيرانها جامعي البردي فلم تتوقف. وأفرج الأب عما يخفيه بقلبه، أراحه إلى جانبه يساعده في طرح الشباك وصيد الأسماك، ويعاونه في بناء بيت من اللبن بجوار منزله. أراد حتب أن يفرح بأحفاده ويلعب معهم، وحين يحل أجله يكون ولده إلى جواره ليشرّف على دفنه هو ووالدته، عليه أن يتم تجهيز رحلتهما إلى العالم الآخر، حتى يتسنى لهما أن يجتمعا في نهاية المطاف بحقول الآرو الأبدية رفقة الصالحين.

مع خيط النهار الأول نهض حور من فراشه، لم يذق طعم النوم طوال الليل، بقي يفكر في رحلته وجمع أغراضه. بجعبة أكبر مع أغراض تحوتي المغلفة وحدها، خرج من عتمة غرفته إلى صحن الدار، ليجد أمه وأباه جالسين. قال مستغرباً:

- استيقظتما مبكراً!

نهضت إليه أمه واحتضنته:

- أردنا توديعك، خشينا أن ترحل كيوم إهناسيا من دون أن تودعنا. ووقف أبوه إلى جواره مربتاً على كتفه قائلاً:

- سأوصلك حتى المرفأ بطوافتي.

وبعد وصايا أمه التي أهدته عيشاً وجنباً وسمكاً مملحاً، خرج حور

وأبوه، تتبعهما أمه وعيناها ممتلئتان بالدمع. ساعد والده على إنزال طوافة الخوص الصغيرة إلى الماء، صعدا إليها ووضع حور ما في يده في منتصف الطوافة، ووقف أبوه ثابتاً ممسكاً بعصا غليظة راح يدفع بها الماء لتحرك الطوافة. أبحرا مع التيار صعوداً بمحاذاة الشاطئ، لم يجتمعا معاً وحدهما منذ أمد بعيد. أحاط بهما الصمت، يخشى والده أن يذهب ولا يعود. يقتربان من المرفأ وسفنه من ورائها سور منف وأبراجها، وقرر حتب الحديث بينما يجدف بعصاه الطويلة:

- حور، أعتذر إليك يا بُني عما حرمتك منه وما فرضته عليك، ولكنك تعلم أنك وُلدت في وقت أصاب الناس فيه الجنون، وخارت قوة ملكنا ووهنت بلادنا، خشينا فقدانك أو أن يصيبك سوء، ما زالت لعنة الذي لا يُذكر اسمه حاضرة.

- توت ليس كأبيه، إنه طيب كريم يأبه بأمور العامة وهمومهم، تذكر كيف نال الناس الكثير من العطايا أيام زيارته إلى منف.

- إنه صغير ضعيف يا حور، وهذه الأرض لا يحكمها الضعفاء. أريد منك أن تفكر في أمر الزواج بجدية، أبهج قلبي برؤية أحفاد قبل أن نرحل أنا وأمك، وأوصيك أن تأخذ حذرك في طيبة، ولا تتحدث مع أي شخص، وإذا مررت بأبيدوس فاذكرني وأمك عند أوزير.

مع ختام كلماته وصلت طوافتهما إلى المرفأ، حيث تتراص السفن الضخمة، وفي الأفق البعيد تبرز الأهرام ببياض كسوتها وقمتها اللامعة، وشمس الصبيحة تلقي بأشعتها على منف والتلال العالية من خلفها، ودَّع حور أباه وصعد إلى سفينة العمال، ألقى التحية على

رفاقه ورئيس العمال، قبل أن يلتفت تجاه أبيه الذي أخذ يبحر إلى وسط النيل الجاري.

* * *

أيام من الإبحار ليلاً ونهاراً، تتبادل فرق المجدفين الأشداء، أربع سفن حُمِلت كُلُّ منها بأربعة وأربعين رجلاً بعتادهم ومتاعهم، والكثير من أجولة حبوب وجرار زيت، واستجاب شو إله الريح لصلوات الملاحين، قُبِلت قرايبنهم ونفث هواء شمالي بأشرعتهم دافعاً بهم إلى حيث يبتغون. جدفوا بقوة ليزيدوا من سرعة إبحارهم وهم يغنون مبهجين للإلهة حتحور، شاركهم حور التجديف والغناء، وكان في الأيام الماضية قد تعرّف إلى بعضهم، تقاسم معهم الطعام والشراب والسهر. رجال صالحوون تمتلئ نفوسهم بآمال وأحلام عائمة عكس تيار النيل، تصادفهم السفن الهابطة إلى منف وأحراش الدلتا، يتبادلون الأخبار ويتقايضون بما يريدون، جعة وخبزاً وفاكهة وتذكارات، وفي اليوم السادس رست السفن على إحدى الجزر، قضوا نهارهم مستقلين يتنسمون قسطاً من الراحة، اصطادوا الطيور والأسماك وأقاموا ليلتهم حول حلقات النيران، وحرصوا على وضع مشاعل على حواف الشاطئ لإبعاد التماسيح وأفراس النهر.

وبعد نهار وليلة من الإبحار مجدداً، برزت آخت آتون على الضفة الشرقية، كأنها انبثقت من صفرة رمال الصحراء، ومن وراء جبالها بدأت شمس الصبيحة تعتلي عرش السماء، أنارت صروحها الضخمة وحقول ضفة النهر اليانعة بالخضرة، اشرأبت الأعناق وسكنت

الأنفاس، ومعبد آتون يطل عليهم بسمو، ومن حوله قصور أُهملت بساكنيها، كثرت الشجيرات المتسلقة واحتلت زاوية كبيرة من الواجهة المطلّة على النهر، وتماثيل الذي لا يُذكر اسمه تقف بمظهرها الغريب، ما زالت أجزاء من المدينة عامرة بالقرويين والبسطاء، ویرسو في مرفئها عدد قليل من قوارب الصيد وطوافات خوص، على الرغم من بهاء عمارتها فإنها مقبضة، هكذا شعر حور الذي تجاوز البحارة وصولاً إلى مقدمة السفينة، أخذ يتطلع إلى عمائرها منبهراً، وعلى مقربة منه وقف ربان السفينة يقول بنبرة يشوبها الأسى:

- حين بُنيت استبشر الناس خيراً، ولأكثر من سبعة عشر عاماً كانت مقصداً للفقراء الطامعين في سخاء وعطف صاحبها، أوت جدرانها كثيراً من الراكضين وراء المنفعة، والآن هجروها بعد موت لتصبح كما ترى، مأوى للمشردين والمساكين، أما أتباعه المخلصون الذين بدلوا أسماءهم مرضاة لآتون، فتخلوا عنها. شرد الربان برهة قبل أن يكمل بنبرة عميقة:

- الناس يبدلون معتقداتهم وإيمانهم في سبيل غايتهم، ربما كان مصلحاً متديناً زاهداً، وهو الذي تربى في قصر ترف وعز وملك، أخطأ حين فرض معتقداته بهذه الطريقة، أبى إلا أن يبطش، ودخل في حرب مع الآلهة، نسي أن تلك أرضهم، وهنا حكموا منذ آلاف السنين. انزوى عاكفاً ليعبد إلهه وأهمّل كل شيء. بغضه العامة والنبلاء والأمراء، وتكاسل الولاية عن تأدية الضرائب والجبايات، وانفض من حوله أتباعه، حتى أخوه غير الشقيق سنخ كارع تبرأ منه، جميعهم عادوا إلى طيبة مرة أخرى

وقد ارتدوا عن معتقداتهم، استرجعوا أسماءهم القديمة، بدلوا
جلودهم كثعبان الظلام الأبدي...

قاطع حور ساخرًا:

- آتون محب صار حور محب.

تبدلت نبرة الربان وقسمات وجهه:

- صه أيها الشقي، لا تذكر قائد الجيوش الوصي على العرش
بسوء على سفيتي، أما تعلم بأخبار انتصاراته في أرض كنعان
وساحل فينيقيا، وبينما تنعمون بالأمن داخل مقاطعاتكم يخوض
هو حروبه من أجل الآلهة والبلاد والملك. يبدو أنك لا تعرف
أن الذي لا يُذكر اسمه عزله قبل أعوام من هلاكه، وعلى الرغم
من كل شيء فإن الرجل عاد ليقف إلى جانب الحق ويكون
سندًا لملكنا الشاب، لولا حور محب الذي تتهكم عليه لهلكنا
جميعًا. إنك يافع ولم ترَ من الحياة إلا النزر اليسير، مرت البلاد
بصعاب وخرجت أقوى في كل مرة، والزمن يمضي وكم من
مشهد ونصب نمر بها فتذكرنا بأوقات ضعفنا وقوتنا، الآن الحال
أفضل من أيام المغبون. يا رجل أي ملك هذا الذي يتخلى عن
لقبه الحوري واسمه، ويعزل الكهنة المطهّرين والموظفين،
ويبدل حال المملكة؟! الثناء والمجد للآلهة التي عصفت به.
يقولون إن الجنون مسه قبل موته، وإن مقبرته نُهبَت ودُنست،
وهناك من يمحوا اسمه من جدران القصور والمعابد، هذا لظلمه
وما اقترفه في حق الآلهة والناس.

اكتفى حور من حديث الرجل، يعرف هذه القصة التي لا يكف

الناس عن ترديدها. صمَّ أذنيه عن بقية الحديث، وما لبث أن عاد إلى مكانه في السفينة، أخذ ينظر إلى المياه شاردًا، هل يستحق ملك مصر السابق هذا المصير؟! أن يتيه في الآخرة من دون اسمه، وألا يجد الخلود الذي عاش لأجله؟! تذكر حديثه مع أمه وأبيه ليلة رحيله عن منف، وأمانيهما أن يعود ويبقى إلى جوارهما، وأن يدفنهما بشكل لائق، وأن يُحفظ جسدهما ويُكتب اسماهما على لفائف الكتان، وأن يُزوَّدا بمتاع وزاد يكفي رحلة الآخرة.

الذي لا ينبض قلبه

«وقال رع لحفيده أوزير: ثارت الأرباب لك، وقهر ابنك عدوك، انتقم لك وفعلها من أجلك حتى ترضى، أحضر لك ست مقيداً إلى قلعة الأرواح بمعبدك المقدس بأبيدوس، ليزورك الأحياء متعبدين، ولتمسح على قلوب المخطئين فتغفر لهم، أشعر بنبضات قلوبهم، كذلك كان قلبك من قبل يا سيد الأموات وشفيع الأحياء».

مرفاً أبيدوس

ميناء كبير ذو رصيف حجري مائل ينبت في فواصله العشب، مزدحم بسفن وقوارب مختلفة أحجامها، حمّالون لا يكفون عن الحركة، وبائعون تصدح حناجرهم بعروض بضائعهم المختلفة، يقولون إنها سُميت «بلينا» على اسم ملكة قديمة قبل زمن توحيد الأرضين، أسوارها من اللبن وكذلك منازلها البسيطة، وشوارعها ممهدة ظليلة كثيرة الأشجار والنخيل، ويتوسط تقاطعات الطرق تماثيل ملوك مقدسين، اختلفت هيئاتهم وتيجانهم، وحُفرت أسماءهم

في مواضع جليلة للعيان، العقرب، نعرمر، حور عحا، جت، دن، جميعهم كانوا من أهل هذه الأنحاء، كما تقول النقوش وألسنة الكهنة المنتشرين بكثافة في الأرجاء. انبث البحارة والعمال يتجولون بالأسواق قرب المرفأ، وآخرون اتخذوا سبيلهم إلى أبيدوس سيرًا على الأقدام، ينشدون زيارة قبر سيد الخلود والأبدية، ومضى حور مع الذاهبين إلى حيث مرقد أوزير.

مروا على السوق واشترى بعضهم نذورًا وقرايين، هذا حصل على قطعتين من لحم فخذ ثور، والآخر أتى بإوزة، والبقية أخذوا سلالًا صغيرة بها بضع حبات من الخضراوات والفاكهة. لم يشترِ حور شيئًا، انتظرهم ومشى معهم، اكتفى بالإنصات لحواراتهم والابتسام بين الفينة والفينة، شغل بما يود قوله في حضرة أوزير، وعلى الدرب الرملي بين الحقول الممتدة إلى الأفق جالت روحه، فوق مروج خضراء تشقها ترع ومصارف، فلاحون وأبقار وجواميس وافية تجر المحاريث، وغلمان يلعبون قرب شادوف تنقل به إحدى النسوة المياه من جدول صغير إلى أرضها. ضاقت حدقاته وهو يحملق إلى وجهها، خيل إليه لوهلة أنها أمه، نهيق حمار أفزعه لتسقط عنه أوهامه ويحث خطاه إلى أبيدوس.

مشوا عبر أطلال قرى ومعابد قديمة تشقها أشجار ترسم دربًا يفضي إلى ساحة شاسعة، اجتمع فيها العشرات من الحجيج رجالًا ونساءً وكهنة قادمين من جميع المقاطعات، يتخللهم باعة يعرضون تماثيل صغيرة للآلهة وتمائم وبخورًا، ويكثر تجار الفخار والطعام والفاكهة الطازجة والمجففة، وقرب البوابة الحجرية الوحيدة في

المكان جلس بائع جعارين حجرية ينقش عليها أسماء المشترين، وعند الباب يقف كاهنان حليقان يتشحان بالبياض، ينظمان دخول العامة إلى المعبد المدفون تحت الأرض حيث لا يصل إليه نور الحياة.

دلف حور إلى البوابة تاركًا خلفه ضياء النهار، تحسس الدرج الحجري، ونزل محاولاً التملص من رهبة تملكته منه. نفق مائل إلى عمق الأرض تهيمن الظلال عليه، الجدران والسقف تكسوهما نقوش ورسوم للإلهة نوت وجسدها الأزرق الرائق المرصع بالنجوم. غمغم بما استطاع قراءته، وجذب انتباه رفاقه بفعلته، التفتوا إليه وأعينهم تفيض بالفضول، همس منبهراً:

- إنها نصوص من كتاب السماء.

أشاح أحدهم بوجهه وهمهم ساخراً:

- نعرف. هل تحسبنا جُهاًلاً!

لم يعره حور اهتماماً، وأخذ يقرأ بخفوت، وصلوا إلى البهو الرئيسي المضاء بمشاعل مثبتة على الحوائط بمقابض نحاسية، بُهتوا وهم أهل صنعة من عظمة ما يرونه، مروا برواق قصير ينتصب على بابهِ مجسدان متطابقان لأوزير، ما إن عبروه تبدل العالم، أحاطت بهم برودة وبشت فيهم القشعريرة، كانوا داخل قاعة محاطة بخندق يضيفي مأواها الأخضر وهجاً سحريراً عجيباً، وفي الوسط يطفو واهن القلب سيد الغرب، أوزير إله الموت والحساب.

ماج الدمع بعينه، لطالما رغبت أمه في أن تأتي إلى هنا. دلف الناس تباعاً واضعين قرايبنهم على طاولة جنائزية صغيرة، ودخل

حور من دون أن يقدم قرباناً، هرع بشوق محموم ليقف أمام أوزير، يحدق إليه، إلى وجهه الأخضر وعينيه المكتحلتين بالذهب كلحيته المستعارة، يعتمر تاجه الأبيض ككفنه، وممسكاً بصولجانه، كان حقيقياً للغاية مع الضوء اللازوردي المتلألئ في المكان، خر راکعاً، وإلى جانبه وقف كاهن مرتل تلا بصوت رخيم، واضعاً يده على رأسه: «ترحالك هذا مثل ترحال وريث أوزير وخليفته، وجهك إلى الأمام وحياتك خلفك، ويحفظ رع مكانك بحقوله. انهض من أجل ماعت، قم للحقيقة ونصرة الحق».

نهض حور ممثلاً لكلمات الكاهن المرتل الذي تابع قائلاً: «مجد أوزير اسمك».

نطق الشاب:

- حور حتب.

رماه الكاهن بنظرة فاحصة وهو يتابع مناشداً أوزير: «يا ابن الإله جب البكري، تذكر اسم الرجل ومجد روحه في مجلس حسابك، يوم يأتي إليك مرتعداً خشيّة من التاسوع وآلهة الحساب».

ختم الكاهن المرتل كلماته وأخذ وعاء ذهبياً، غرف من بركة الماء الزمردي تحت قدمي أوزير، وسقى منه حور الذي تمتم بدعاء وهو يرتوي من كأس أوزير المقدس. امتلأت روحه بالأمل والغبطة، تمنى أن تستجاب صلواته في حق أبيه وأمه. خرج من المعبد المخفي تحت الأرض كأنه بُعث للحياة من جديد، حُرر كطير بروح صافية يحلق بسماء المغيب. عاد ومن معه إلى السفينة وقصوا على من لم يذهبوا ما رأوه. تناولوا العشاء جميعاً صاخبين كعادتهم في الأيام السابقة،

خبزًا وسمكًا مشويًا وحزمًا من الجرجير والكراث. أمامهم ثلاثة أيام حتى يصلوا إلى طيبة. حل الليل واختفى أثر رع من السماء، وخلد البحارة والعمال إلى النوم وكذلك فعل حور بعد أن ظل يحدق إلى النجوم وخونسو إله القمر السيار، فكان مضيئًا وقريبًا كما لم يره من قبل. أغمض عينيه وصم أذنيه عن نقيق الضفادع وغناء صراصير الحقل، وغط في نوم عميق.

* * *

«ألقى ست بجسد شقيقه أوزير على جانب النيل الأيسر. ولكن المغدور رُفع رأسه بفضل رع الذي يمقت النعاس، ويكره الوهن.

ونادى رع أن استيقظ في سلام يا أوزير.

وأنت يا من تقربت إلى سيد أبيدوس، استيقظ في سلام».

فتح حور عينيه بثقل، ثائب وحاول أن يرى ما يحدث على ضوء المشاعل، كانت السفينة قد أبحرت وبدلت نوت برداء ليلها آخر ورديًا بلون الفجر، ناداه رئيس العمال ساخرًا وهو يلوك قطعة خبز بفيه: - حور حتب أيها الكسول. أزعجتنا طوال الليل بغطيط نومك. حك رأسه وزحف إلى حافة السفينة ومال بجذعه ليغسل وجهه، نطق والنوم يغالبه:

- أصابني السمك المشوي بالنعاس.

- إن لم تبتعد عن حافة السفينة، ستنعم الأسماك ببقاياك بعد أن تفرغ منك التماسيح.

ودَّ الرد عليه ولكنه رأى وجهًا جديدًا على المتن، شابًا مضفر

الشعر، يضع على كتفيه رداءً فاخرًا من كتان أحمر داكن، ويزينه بمشبك جعران أزرق، يجلس مع الربان الضاحك، تعجب من الرجل، ها هو ذا يضحك على عكس توجهه وفضاظته بالأمس. بعد الظهر خفتت الريح، وبدل المجدفون مناوباتهم، وقفز الراكب الجديد ليأخذ مكان أحدهم، فعل هذا بكل فرح من دون أن يطلب منه أحد، صار مصدر البهجة على السفينة المبحرة بروية عكس الموج، وإن بدا في عيني حور مريبًا، يخفي شيئًا خلف ابتسامته الدائمة، يبدو على ملامحه جلد الشقاء، وفي عينيه بريق غريب كطريقته في خوض الحوارات مع الجميع بود ومرح.

راقبه وتلمس من خبره القليل، يدعي أنه صاحب تجارة في طيبة، أجزل العطاء للربان ومساعدته، ويحمل جرابًا به بضع قطع ذهبية وفضية، وخنجرًا يواريه عن الأنظار تحت رداءه. وبعد العشاء وعلى ضوء القمر المشرق، جاءه الشاب وجلس إلى جواره، وبابتسامة عريضة سمجة حدثه:

- هل هناك شيء غريب فيّ؟!

فعله وسؤاله فاجأ حور الذي رد وهو يتطلع إليه:

- لا أعلم لي بما هو غريب فيك، ولكنك شخص سهل أن يلاحظ، هذا كل ما في الأمر.

- أدعى كا، كا سُرقت.

- وأنا حور حتب.

- اسم مقدس لشخص من العامة، لعلك تتمتع بحماية الآلهة، وربما تكون تجسيدًا لابن أوزير.

لم يستسِغ حور كلماته:

- الآن أنت تسخر مني، هل تقبل أن أفسر اسمك بأنك قرين
الآلهة العقرب؟!!

- وما في ذلك يا صاح، إنا قادرون على صنع أي شيء، أفلا
نستحق أسماء وألقاب الآلهة، لربما نحظى يومًا بخلود يضاهيهم
أو نُعبد مثلهم. افخر باسمك وتفرده.

أخذ كما يتباهى بحديث منمق وكلمات مختارة بعناية، وجذب بصر
حور الغمد الجلدي المعلق تحت إبط محدثه، قبعة لامعة عجيبة
الشكل، وخزة خوف نكتت قلبه وهو يتفحص المقبض، فائق الصنع
دقيق التفاصيل بهيئة الإله المهاجم سيد الصحراء، باعث الظلام
والفوضى، ست، وارتسمت على وجه صاحبه بسمّة عُجب، توقف
عن الكلام ومد يده إلى خنجره ورفع أمامه:

- يعجبك، أليس كذلك؟!!

همّ حور بقول شيء، ولكن صياح الربان المفاجئ ألجمه:

- نتعرض لهجوم، جدّفوا إلى عمق النهر بكل قوتكم.

كلماته بلغت السفن الأخرى. راح المجدفون يضربون الماء بجلد
وقوة، وأعين الركاب معلقة بالمشاعل المتناثرة على ربوة عالية على
مجرى النهر. مضت لحظات قبل أن يعي حور ما يحدث. مع دوي
بوق الإنذار رُشقت السفن بالأسهم المشتعلة، أصابت العمال وطاقم
الملاحة، والربان يصرخ:

- احتموا.

بضع دروع من خشب مكسو بجلود الماعز لم تُغنِ عنهم شيئاً،

سقط أحد العمال في النهر وسهم مشتعل مستقر بصدرة، وآخر
اخترق السهم رأسه، سقط الرجال تبعاً، وتأرجحت السفينة بضجيج
الهاربين، اشتعل شراعها الكبير مضيئاً صفحة النهر. راح العمال
والبحارة ينشدون النجاة، تركوا سفينتهم المشتعلة قافزين إلى الماء،
وسبحوا بكل قوتهم إلى السفن الأخرى، وعلى المتن أخذ حور
يبحث عن أغراضه. تهاوت السهام المشتعلة مرة أخرى، وعلى وهج
النيران دُعيت التماسيح إلى وليمة مسائية، ماجت المياه وهاجت،
وضجَّ النهر بالصرخات، وفي اللحظة التي أمسك فيها حور أغراضه،
ضرب سهم جرار الزيت القريبة، وانفجرت السفينة.

* * *

جاء الصباح على مهل بعد ليلة قاسية طويلة، مات عشرة رجال
من بينهم رئيس العمال البدين ومعاونه، وأصيب سبعة جراء الحريق
والأسهم، وقضم تمساح ساق أحدهم، أما المهاجمون فابتلعتهم
العتمة بعد أن خمدت نيرانهم، اختفوا كما ظهروا. وعلى المتن
جلس الربان مقرصاً يندب حظه العاثر، خسر بضاعة كان يرجو من
ورائها مكسباً ثميناً، أي رحلة لعينة هذه؟! قُطَّاع الطرق كُثُر، ولكن
ليس في النيل، هذه المرة الأولى التي يصادف فيها هؤلاء الأوغاد،
ولكن لماذا اكتفوا بمشاهدة السفينة تحترق، كأنهم ينشدون إغراقها
وليس السطو، أين قواربهم وطوافاتهم؟!

جلس حور محتضناً الأمانة التي كُلف بحملها، شاردًا لا تفارق
عيناه وجه كا النائم بقربه، وذنه لا يكف عن تكرار مشاهد ما حدث
بالأمس؛ دوي الانفجار، وتطاير الزيت المشتعل مع شظايا الفخار

والأخشاب، وتناثر الأجساد في الهواء، مشهد جنوني، والنيران
تضيء الماء المكتظ بالجثث والناجين. لم تتوقف أمطار الأسهم
عن السقوط، حاولوا النجاة والموج يلطمهم، وما تبقى من بدن
السفينة مضى مع التيار محترقاً مضيئاً ما حوله، ولما توقف الرماة عن
صيدهم جاء سوبيك ليحصد الأرواح، وحلق الفزع فوق الرؤوس،
وضربت السواعد سطح الماء فراّرا من الأفكاك والأنياب. حاول حور
الوصول إلى أقرب سفينة له، وسباق حب الحياة دفع الجميع إلى
الجنون، يزاحم بعضهم بعضاً، لا يأبه أحد بآخر. هاجت المياه وتعال
صرخات الجرحى والضحايا، ووسط الهرج لم يتخلّ ابن الصياد عن
أمانته، على الرغم من أنها كانت تعوق تقدمه وسط زحام السابحين
من حوله، وفجأة أمسك به شيء ما، فزع وهو ينظر إلى وجه معاون
رئيس العمال، مرتاعاً فاغراً فاه جاحظ العينين متعلقاً برقبتة بقوة،
حاول التملص ودفعه بعيداً من دون جدوى، وازداد خنق الرجل
له، جذبه إلى أسفل محاولاً الصعود فوقه وتجاوزه، لم يكن يحاول
إغراق حور، بل النجاة من بين فكيّ تمساح عظيم، وعلى ضوء
القمر طعن الرجل في رأسه، سمع قرقة عظام جمجمته والنصل
يخترقها، ومُدت يد القاتل لتجذبه بعيداً عن المياه العكرة بالدماء،
وحين أخرج رأسه من الماء رأى منقذه، كما سرقت الذي حثه على
التقدم نحو السفن الأخرى.

بعد الظهيرة كانوا قد وصلوا إلى منعطف صخري ضيق في النهر،
وعلى ضفته تمثال عظيم للإلهة الحب والسعادة تحتور. التمس
البحارة الأمان في ظلال إلهة دندرة العظيمة، وتهادت السفن التي

لم يُسمع فيها صوت منذ الليلة الماضية. الجميع شاردون في صمت،
وأحاديث خافتة دارت بين البحارة وهم يطالعون سفناً أخرى ترسو
في محيطهم، اكتفوا بتبادل التحيات معهم ولم يختلطوا بأحد. كانوا
ينتظرون عبور السفن القادمة مع تيار النهر، التي حملت معها خبراً
أنسأهم هول الليلة الماضية، وزادهم حزناً على حزن؛ مات الملك
الشاب.



telegram @
yasmeenbook

موت وحياة

«أمطرت السماء حزنًا، وارتعدت أفئدة الناس كمداً
ماتت كل حركة على الأرض إلا مركبًا يحمل جسدًا
ابكي أخاك يا إيزيس، نوحى والظمي وجهك قهراً
ارثي معاناته واذكري مآثره قبل أن يُكفن، وتولول النائحات
حزنًا».

طيبة

طاف الحزن بجنبات المدينة، وعُمرت الأسواق بالتعاسة الجليلة
على الوجوه، ضاقت الدنيا على الرغم من براحتها، وسكنت البهائم
ولم تحلق الطيور، باغت الموت ملكهم الشاب الذي لم يلبثوا في عهده
إلا بضعة سنين، أصلح فيها الأمور قليلاً عما كانت عليه، وأعاد إليهم
حريتهم ليعبدوا ما يشاءون، ظنوا أنه باقٍ فيهم حتى ينجب وريثًا، وللآلهة
رأي آخر كعادتها، سلالة عظيمة نفذ رجالها، ولم يبقَ منها سوى أرملة
حزينة يحيط بها الطامعون، ومصير مبهم لمملكة بالكاد تتعافى مما حاق
بها، وشغل العامة والنبلاء بإجابة سؤال: «مَن سيكون الوريث؟!».

عَجَّتْ أروقة وقاعات القصر بالخدم والكهنة، واحتشد الوزراء في البهو الملكي الكبير، تبادلوا الأحاديث همسًا، وما لم تُبَحْ به الأعين أكثر، وفي غرفة الملكة وُضع الجسد على منضدة جنازية، بدا غافيًا بعد أن مُسحت الدماء عن وجهه، وَلَفْ رأسه بشريط كتاني، وَغُطِي بثوب أبيض أخفى مواضع الضرر بصدرة، فاضت المباخر بدخانها العطر، ووجد الحزن مستقرًا له على صور ونقوش الملوك والآلهة، وإلى جوار أخيها تكومت عنخ إسن آمون تنتحب باكية، لا أحد في مثل مصيبتها، كأنها لم تُخلق إلا للمعاناة، وما كانت تخشاه تحقق، واجمة بمقلتين محمرتين ثقيلتَي الدمع.

بقربها المربية مايا يعترىها الفقد وهي التي أرضعته، ألقمته ثدييها، وكانت خير عون له في هذه الحياة، ابن لم تلده وكبر على عينيها وبين يديها، لم يذق أحد النوم منذ أن وصل إليهم الخبر الجلل. حُمِلَ إليهم جثمان الملك سرًا، وفي طيبة لا سر يخفى. قطع شرودها همس الزوجة الثكلى: «قم وانهض يا أخي، قف وانتصب لأجلي يا مليكي، يا ابن أبي ليتني أستطيع لملمة جراحك كما فعلت إيست، يا حور الأرضين الذهبي لا أعرف هل أبتهج بارتقائك عرش السماء لتحيا باسمك بين الآلهة راضيًا مرضيًا، أم أندبك لما بقي لي في هذه الدنيا من حياة، لَمْ تركتني وحدي يا توت؟! لَمْ لَمْ تبقى معي كما وعدتني يا أخي؟!».

وَقَعَ أقدام أعلن دخول أحدهم، استدارت لتجد آي، كاهن آمون وقائد فرسانه، والوصي على العرش، يُلقبونه بوالد الملك الإله، أو هكذا أحب أن ينادى، طويل القامة عريض المنكبين، مشدود الجسد

على الرغم من تخطيه الستين من عمره، أصلع مكتحل العينين، حليق الوجه مشرب بحمرة، يرفل في ثوب كتاني طويل ويحيط خصره بحزام مذهب عريض، الباقي الوحيد من حاشية وموظفي أبيها. أمين سرهما الذي أتى بهما إلى طيبة ودعمهما أمام أتباع آمون، متفاني تحت أي ظرف، خر راکعاً أمام ملكه الميت، وعينا الملكة لا تفارقانه، رتل بصوته الرخيم:

ليسعد قلب آمون رع، بارتقاء حور الذهبي إلى جواره

لتكن نجمًا أيها الملك مشعًا كقلب نوت

والنجوم لا تعرف الفناء كما أوزير

كن خالداً بكلمات إيست، وسالماً ببركات نفريس

مقدسًا مطهرًا أنت في الحياتين

يا سيد الأرواح حامل صولجان السيادة

أنعيك والقلب تصدع بفاجعتك

ميت ولكنك ستحيا لتشرق كنجمة الصباح

للخلود خلقت يا سليل الآلهة

ولللخلود ذهبت يا حور الأفق

رتل رثاءه منكسرًا ذارفاً دمع الفقد، قلبه يفيض حزنًا، تكفل به منذ كان صغيرًا، وعلمه كل شيء وصحبه في كل مكان، وشرفه الفتى بلقبه الأسمى والد الملك، رجل من العامة اجتهد وترقى وحظي بمكانة داخل العائلة، عاش عمره كله داخل القصر من أيام جدهما، وكان أول الذاهبين إلى آخت آتون وآخر المنقلين، لم تحبه المريية مايا وتتوجس منه، على الرغم من كونه سندًا للبيت الكبير، وخير عون من

الآلهة لهما، ومستشارًا حكيمًا يعرف كيف يدير البلاد. بكى بحرقة وهو يرفع وجهه نحو ملكته قائلاً:

- جئت فور سماعي للخبر الحزين، لم يكن عليّ الذهاب إلى الفنتين وترككما، لا تحزني أيتها الزوجة الملكية العظيمة، إن محبوب آمون في رفقة الآلهة الآن، وسأحاسب كل المقصرين والمتسببين في هذا الفعل الشنيع، ما كان عليه الخروج إلى الصيد من دوني... لكنها إرادة الآلهة.

لم تنطق عنخ إسن آمون، نظرت إليه والدمع يجري بأخدودين أسودين على وجنتيها، تمنى لو أن يمد يديه ويمسح الأسى وأثر الكحل عنها، استطرد وهو يشير إلى مايا:

- خذي الملكة لتستريح...

قاطعته عنخ إسن آمون بحقن:

- سأبقى إلى جواره.

بهدهوء اقترب منها قائلاً:

- بُنيتي، علينا تجهيز الملك لعبور السماء، عليه أن يحظى بجنابة ملكية ودفنٍ يليق بابن آمون رع، والمتربصون بالقصر كُثر، أرجوكِ أصدرّي أمركِ لنُتم المراسم قبل أن تعم الفوضى البلاد، وليمن الإله جحتوتي عليكِ بالحكمة، سأرسل في استدعاء قائد الجيش حور محب من منف، وسأعطي أوامري بتشديد الحراسة على طيبة وكل المدن القريبة والحصون.

- لا أبه بكل هذا، أوامر أنت الكهنة والمحنطين والنائحات بأن يأتوا من فورهم إلى هنا، ولكنني لن أتركه لحظة واحدة.

- من الأفضل أن ننقل الملك إلى البر الغربي، حيث يُجهز ويحفظ بمعبده الجنائزي، ومنه تخرج الجنازة الملكية العظيمة. هناك أمور غاية في الأهمية يجب تداركها أيضًا، قبره في الوادي الغربي لوادي الملوك لم يكتمل بعد، وهذه معضلة أخرى علينا حلها، لا يجب أن يدفن الملك في مقبرة غير مكتملة.

- سأنتقل إلى هابو وأقيم في قصر جدي. وضع كلتا يديه على كتفيها برفق ولين، وثبت عينيه بمقلتيها وهو يحدثها:

- يجب عليك البقاء هنا، وألا يشغل كرسي الحكم، ستقدم وفود المعزين من جميع المقاطعات والبلاد، وعليك أن تكوني قوية، أعدك أنك ستشاركين في طقس فتح الفم قبل التشيع وتتبعين أثر جنازته حتى يصل إلى بيت الأبدية، ثقي بي. أنهى كلماته وهو يشير إلى مايا، فما كان من المربية الكئيبة إلا أن جاءت وهمست إلى ملكتها:

- مليكتي، القائد آي محق، أنت بحاجة إلى الراحة. رضخت عنخ إسن آمون. وضعت قُبلة أخيرة على جبين أخيها، ورحلت رفقة مايا التي كان قلبها ينزف ألمًا على فراق ربيها. تذكر المرة الأولى التي رآته فيها، كان ملفوفًا بكتان المهد، ضئيلًا، أجزم كثيرون بموته في صغره، ولكنها ألقمته حلمتيها وأرضعته وهي تبتهل إلى الإلهتين تاورت وإيست أن تحفظاه. غنت له وترنمت بالتعاونيد، عانى كثيرًا ورحل فجأة من دون إنذار. مَنْ يتخيل أن شابًا بشوش الوجه مفعمًا بحب الحياة يموت هكذا؟! تبعت الملكة إلى

الخارج تاركتين وراءهما قائد الفرسان أي يحظى بخلوة مع جثمان ملكه الفقيـد.

* * *

أمام تمثال الملك في بهو القصر، وقف باسر بن حوي مطأطئ الرأس يتضرع ويبتهل لأن ييسر إبحار ملكه إلى الحياة الآخرة، وأن يكون معراجـه إلى السماء سهلاً على ظهر البقرة السماوية. الحزن يفتك بجوارحه، والفقد وجد مستقراً بهيئته. عينان حمراوان ووجه مخضب بالأسى، مات صاحب عمره أمام بصره، ما زال مشهد الفوضى التي ألفت بساحة الصيد عالقاً بروحه، ويجوب الألم خواء صدره، لا يستطيع كبح دمه المنساب رجاءً لآمون بأن يبارك الملك المحاط بأرواح أون المقدسة. شعر بضيق أنفاسه وغرست روحه بوحل ذكريات شائنة حاول محوها، واستذكر اليوم الذي جاء فيه إلى طيبة، صغيرين يتبعان خطوات عنخ إسن آمون والقائد أي، هنا حظي بلقبه ورتبته بين الجميع، سمير الملك الوحيد. بات حزيناً تعساً ووجد نفسه يتمتم: «سامحني يا صديقي». قبل أن يفطن إلى حالته البائسة، تلفت ليرى إن كان أحد سمعه أو رأى ضعفه وحزنه. وعند زاوية البهو وقرب الردهة جلس الكاتب معي يتأمل الأفق شاردًا، يمسح صلعته والعرق حول رقبتـه بمنديل كتاني معطر، وشمس الزوال برتقالية شاحبة، مط شفتيه وحدّث نفسه سرّاً، إن آتون وآمون وجميع الآلهة في حداد على روح سليلهم. تذكر سنوات عمله في القصر، لم يشهد ظلمًا أو فعلاً خبيثًا قام به توت نقي القلب طيب السريرة، يفيض حبًا وودًا لكل المخلوقات، على الرغم من الألم

الذي عاناه طويلاً، فإنه حاول استيعاب أنه لن يجالسه مرة أخرى، ولن يحظى بسهرات سمر ولى زمنها وأضحت ذكريات، كانت له أحلام وأمنيات بسيطة على الرغم من كونه ملكاً، ارتضى وقنع بمقتنيات ورث معظمها عن أبيه وعمه وإخوته، أغدق الكثير على الإصلاحات وإعادة الهبة إلى معابد الآلهة. نفى معي الماضي، وبدأ يفكر في القادم، وما يجب عليه فعله، عليه حصر كل مقتنيات ومتاع الملك حتى يتسنى لهم نقلها إلى قبره الذي لم يكتمل بعد.

غادر تحوتي القصر على عجل، يطارده شعور بذنب لم يقترفه، أقسم على حماية الملك حتى الموت، ليته كان معه في نفس العربة، ومن يستطيع تغيير قدر نقشته الآلهة؟! أعاد ترتيب ما حدث عشرات المرات، راجع جميع مهامه في الصباح المشؤوم، وتذكر شيئاً جعله يتجه إلى الحظيرة الملكية حيث وُضعت بقايا العربة المهشمة، تحقق من عارضة يُسرج بها الخيل قُطعت، رُشق نصفها في كتف الجواد الميت، أخذ يقلب في الأخشاب المطعمة بالبرونز والذهب، تحسس الشظايا والسروج المهلهلة، إحدى العجلتين حُطمت تماماً، والأخرى التي طارت في بداية الأمر مستقرة قرب الجدار، التقطها وأخذ يتفحص كل جزء فيها. لمس حافة القطر الذي تثبت منه العجلة، بدا كأنه كُشط حديثاً، تذكر ترنح العربة وكيف كان سيرها تأرجحاً... أفاق من شروده على صوت أحد الحرس يقول له:

- سيدي، قائد الفرسان وصي العرش آي يريدك على وجه السرعة.
تطلع تحوتي إلى الجندي قبل أن يسأله:

- أين هو؟

- يجتمع بالموظفين والخدم في قاعة المُلك.
وضع العجلة جانبًا، بعد أن مرر أصابعه مرة أخيرة على الكشط
الجلي بقطر فتحته، ومضى إلى حيث يقام الاجتماع العاجل. كان
آخر من وصل إلى القاعة ذات الأعمدة الضخمة وتيجان اللوتس
والبردي المتفتح، وكرسي الملك الذهبي خاوٍ، بينما آي يقف
على مقربة منه، جميع من يعرفهم كانوا موجودين؛ باسر والكاتب
معي، الكاهن باواح ورئيس المجندين رعمسيس، قائد شرطة
طيبة حنت تانب، والمربية مايا هي المرأة الوحيدة بينهم. الأسى
والترقب يهيمنان على الأرواح، واستقر بصر قائد الفرسان آي
على تحوتي قائلاً:

- الموت بوابتنا إلى الحياة، هو تذكرة لمن يحبون العيش ولذته،
ويكرهون الحساب وعواقبه. رحل ملك مصر إلى الخلود
الأبدي، وأوكلت الآلهة لنا تشييعه بما يناسب قدسيته، لا تجعلوا
للحزن سبيلًا عليكم، إنه ابن آمون رع الذي يبعث من جديد
سعيدًا معافى، ليبحر على مركب الشمس في الأفق، هي الدنيا
وقد آن لحور أن يرتقي إلى الأفق. سيجب علينا نقل الملك إلى
معبده الجنائزي، حيث تُجرى طقوس التحنيط وتجهيز الأثاث
والأغراض التي سيحتاج إليها، كذلك المقبرة الملكية لم تُجهز
بعد، وما زال العمال ينحتون غرفها، لذا سيكون علينا الإسراع
والبحث عن مقبرة أخرى في وادي الملوك، نستطيع تجهيزها
في أسرع وقت ممكن. وبوصفي حامل لقب والد الملك الإله
وقائد فرسان آمون والوصي على العرش، جمعتكم لتكونوا

عونًا لي في قادم الأيام، علينا حماية الملكة ووحدة البلاد،
هذا واجبنا أمام الآلهة.

باسر بن حوي ستشرف وقوات الحرس الملكي على تجهيز
ونقل الملك إلى معبده الجنائزي، وأنت أيها الكاهن الأعظم
باواح ستكون مسؤولاً عن الغسل والتطهير، وتجهيزات التحنيط
وطقوس الدفن وإتمام نقوش المقبرة، أما سجلات مقتنيات
الملك وأغراضه فسيجردها ويحصيها الكاتب معي ويسلمها
إليّ، وسيكون على رئيس المجندين رعمسيس نشر أكبر عدد
من القوات في طيبة وإفنتين ودندرة وأيون منت، وجميع
المقاطعات القريبة منا، أما مهمة تأمين القصر والكرنك فهي
في رعايتك يا قائد الشرطة.

أوما حنت تانب برأسه موافقًا على ما يمليه عليهم الوصي على
العرش الذي تابع:

- المربية المبجلة مايا دورك هو البقاء إلى جوار الملكة وشد
أزرها، وكذلك إدارة القصر والتأكد من أن كل الأمور تسير
بدقة وانضباط. واعلموا أنني أرسلت إلى قائد الجيش حور
محب لإخباره بالأمر. وأوصيت كل الوزراء وحكام المقاطعات
بالحيطة والحذر وإعلان الحداد. هذا كل ما لديّ، بارككم آمون
رع أجمعين.

أخذوا في الانصراف، تحوتي يقف بينهم، لم يكلف بشيء لذا
ظل باقيًا في مكانه واضعًا يديه خلف ظهره. وما إن غادر الجميع
حدثه آي من دون أن ينظر إليه:

- تحوتي، قُل لي ما الحاجة إلى حارس شخصي إن لم يدفع
الخطر عن ملكه؟! كان يجب عليك أن تقف معه إلى جواره.
لو فعلت هذا، ما كنت لتقف أمامي الآن، ولكانت الجنازة
وطقوس الدفن تُجهز لك.

- سيدي، إن العربة الحربية لا تتسع لثلاثة أشخاص، وهذه رحلة
صيد لم أحسب أن يحدث هذا، من كان يتوقع أن...
قاطعها آي بغلظة:

- الفشلة وحدهم من يبررون أخطاءهم، منذ هذه اللحظة لا عمل
لك في هذا القصر. عُد إلى منف واندب تقصيرك وادعُ الآلهة
أن تغفر لك تهاونك في عملك المقدس.

- سيدي، إني وهبت نفسي فداءً للملك والبلاد. وإن قلبي يعتصر
ألمًا على مصاب محبوب آمون، لم أتخاذل لحظة عن واجبي،
وقد وجدت...

- انتهى الأمر، يمكنك البقاء لحضور المراسم، وبعدها لا أريدك
في طيبة.

أنهى آي جملته وهو يسير باتجاه الباب، ترك تحوتي وحيدًا في
قاعة المُلك الخاوية، لا يعرف لِمَ عُقد لسانه، ولم يفصح ما اكتشفه من
تخريب للعربة. كان حانقًا غاضبًا، وبداخله فيضان من حزن جارف،
تبدلت الحياة فجأة ونال الموت من ملكه طيب القلب، ولا أحد يعلم
بالأمر، يحسبونه حادثًا مؤسفًا، والقاتل ينعم بالحياة وربما تقاضى
أجر فعلته. مَنْ الذي فعلها ووسَّع قطر العجلة؟! حاصرته الأسئلة
وطاردته في طريقه إلى الخارج. قابلته نبت خادمة الملكة ووصيفتها

الجميلة على الرغم من الحزن، ترفل في ثوب أبيض ناصع لا يشوبه
عكر، الأسى يعتريها كحال أهل القصر أجمعين، لم يستطع تجاوز
النظر إليها، واستوقفته سائلة:

- تحوتي، هل ما سمعناه صحيح؟

وقف أمامها وغالب نفسه لينطق:

- يتوقف على ما سمعته.

- يقولون إنك عُزلت وستر حل.

لم يترك نفسه للتعجب من سرعة انتشار الخبر، حدثها متلفتًا:

- نبت. هل تسدين إليّ خدمة، أريد مقابلة الملكة.

ابتسمت الخادمة وهي ترد:

- جلالتها تريد لقاءك بالفعل، وأرسلتني لآتي بك.

* * *

دخل إلى ردهة الملكة، بعد أن تأكدت نبت من خلو تلك الجهة
من القصر، رحلت مايا مع قدومه، ووقف هو مطأطئ الرأس على
مقربة من ملكته التي توليه ظهرها، استندت بكلتا يديها إلى السور
الحجري، وعيناها تتابعان مراكب شرعية من الخوص تبحر مع النيل
المتهادي. صمت عميق لا يقطعه إلا خفق راية ذهبية كبيرة تحمل اسم
الملك توت، ومعابد وتمائيل الضفة الأخرى تغط في ظلال المساء
القريب. وحين طال السكون تنحنح تحوتي ليذكر الملكة بأنه هنا،
من دون أن تلفت قالت بنبرة باردة:

- قُتل الملك.

جمدت الدماء في عروقه، لطالما علم بأن الملوك هم نسل الآلهة،

ولكن ما الذي دفعها إلى قول هذا؟ جف حلقه وانعقد لسانه، وتابعت وهي تلتفت إليه:

- لهذا كنت تتفحص بقايا العجلة الحربية. ماذا رأيت وما الذي تعرفه يا تحوتي؟!

خفض رأسه ورد بنبرة خفيفة:

- مليكتي العظيمة، كل ما حدث قصه باسر، ولكن أخشى أن يكون شخص عبث بالعجلة، ووسّع قطر تثبيت العجلة، الكشط جديد في الخشب، من فعلها كان معنا في رحلة الصيد. من عادتي فحص العربة في أثناء حركتها، والطريقة التي كانت تتأرجح بها العربة في أثناء المطاردة هي ما قادني إلى نبش البقايا.

- هل أخبرت القائد آي بالأمر؟

هز رأسه نفيًا وقال بأسى:

- لم أفعل، قام بتسريحني من الخدمة قبل أن أخبره.

سألته والدمع يترقرق في عينيها:

- من تظن أنه فعلها؟ ولصالح من؟

- أخشى الوقوع في دوامة الظنون، وأن يتصدع قلبي بحثًا عن

الفاعل ودوافعه. علينا أعمال الحكمة والبحث بروية.

احتد صوتها:

- تقول إن ملك مصر قُتل، وتريد منا التريث؟

- لا يجب أن نسير خلف الظنون، الجاني مطمئن لفعلته ويجب

أن يظل هكذا، لا نريد للأمر أن ينتشر فيهرب. أعدك أن أبذل

كل ما في وسعي للتحقق من الأمر.

- تقسم على هذا؟

ركع بسرعة أمامها وردد خافضاً رأسه وضامًا قبضة يمينه إلى صدره:

- أقسمت من قبل لملك الأرضين حور الذهبي توت عنخ آمون، على حمايته وملكته والبلاد ما حييت، وأشهد آمون وبتاح وآتون وجميع الآلهة على بقاء عهدي وقسمي إلى الموت. أنا في خدمتك مليكتي.

قالت باقتضاب وملامحها تتبدل:

- لا أعرف إن كان ما تدعيه صدقًا أم جذوة خيال اشتعلت بقلبك من قهر الفقد. ولكني أثق بك، كما فعل أخي دومًا. انهض يا فارس آمون. للحق عشت وللحق تموت.

شعر كأنه بحضرة إلهة الانتقام، تجلت سخمت بهيئتها، صدقته وأيدت مخاوفها قصته، أخبرته بأنها ستحدث قائد الفرسان أي في أمره. أوصته أن يبقى أمر شكوكه حول مقتل الملك سرًا بينهما، على أن يباشر البحث عن دليل قوي لما يدعي، ويبقى دومًا على مقربة منها. غادر إلى غرفته يرتب أفكاره، وراح يستذكر أسماء الخدم وفرسانهم ووظائفهم داخل معسكر الصيد، رجال باسرين حوي هم المكلفون بالعربات وسروج الخيل، ربما يكون أحدهم! فرك رأسه محاولاً تذكر أي شيء، مرهقًا مشوش الذهن يحدق إلى العتمة مسترجعًا ما حدث خلال الأيام الماضية، صار لزامًا عليه أن يجد دليلًا على ما تفوه به. بجوار جثمان أخيها جلست عنخ إسن آمون، ومن حولها أنارت مصابيح زيت فخارية البهو على استحياء، انكفأت عليه، وتحولت

رسوم الجدران إلى ظلال فارغة، غادرتها الآلهة وأسلافها، تحلقوا حولها وحضورهم كان جليًا، نسيم غريب يعبق أنفاسها ويهدئها، تمت لو ينهض من غفوته ويحدثها، عانى في حياته كثيرًا ولا يستحق تلك الميته. إنه نقي القلب طيب السم، رامي قوس بارع، يحب الصيد وركوب العجلات الحربية، يرعى خيله ويهتم بجديد السلاح والعتاد، أحب تربية الفهود وأشبال الأسود، ترجو أن يكون تحوتي محققًا فيما قال إن الموت مدبر، همست وتمنت أن يسمعها: «لعلهم علموا بما فعلت يا توت، ليتك لم تنقل جسد أبينا، آه لو أعرف من هم الخونة الغادرون، سأقتلهم جميعًا. أتعرف لطالما راودني سؤال مُلح، لماذا جئنا إلى هذه الحياة التي لم نجد فيها سوى الآلام والمعاناة؟! أمل أن يكون ميزان ماعت عادلًا، أما أنت فلا تخش شيئًا يا صغيري، حسابك يسير يا مليكي، إن قلبك أرق من أفئدة الطير، وأصفى من اللبن المصفى، وحيدة أنا من دونك، غريبة في دغل مليء بالشور، لا أعرف ماذا سأفعل بعدك، وكيف ستكون نهايتي. سينقلونك في الصباح إلى معبدك الجنائزي، وستكون محاطًا بالكهنة المطهرين ورفاقك المحبين لك، وحول موكبك حراس أشداء من فيلق المدجاي، وسأحرص على تزويدك بكنوز وقرابين وأغراض لتكون متاعًا يعينك في الحياة الآخرة، إن قلبي يحترق عليك يا توت». أجهشت بالبكاء ووضعت رأسها على المنضدة بجوار صدره، وخفت وهج مصابيح الزيت من حولها، غفت وضوء القمر الباهت يغلف الأعمدة وجسديهما.

* * *

دوت الأبواق تعلن بدء الخروج إلى النهار، اشرأبت أعناق تماثيل
الآلهة وملوك طيبة من فوق هامات النخل. كل جامد وحي شهد
إبحار المركب الملكي، تهادى بخفة تحفه ترانيم جنازية يتخللها
عويل نائحات يقفن على حافة النهر، راكد لا يجري مأؤه، ولا هواء
يعمر الأجواء، واختفت الطيور من الأفق، ورددت الجموع كلمات
أنشودة لأوزير لها وقع حزين، لحن يفيض بالأسى، وجسده الطاهر
يتوسط المركب الملكي، على محفة من الخشب المذهب بهيئة
أسدين ذهبيين، وعن يمينه وشماله حاملو مراوح الريش، وبينهما
وعند رأسه وقف قائد الفرسان آي، ذابل العينين، وبجواره كاهن
يغطي وجهه بقناع إنبو، طاف حول الجثمان ممسكًا بمبخرة لدخانها
شذى عطري، اشتمته أنوف المشيعين على ضفاف النهر، انساب
الدمع جاريًا من المقل، وانتصف آتون السماء، مغدقًا بضياء نوره
على المركب الملكي، تبعه قاربان أصغر حجمًا ولكنهما يشعان
بذات الجلال والأبهة. كانا متجاورين، باسر بن حوي في مقدمة
واحد، وعلى الآخر يقف الكاتب معي.

من ردهة القصر تابعت الملكة ووصيفاتها المركب، جامدة لم
تبك، تملك الهم منها واستوطن الألم كيانها، وعلى الرغم من ذلك
بدت قوية شامخة، في كامل زينتها التي تليق بملكة، وتاج أزرق
يشبه الذي كان لأمها، عنقها الطويلة وهيئتها جعلتا البعض يظن
أنها هي، رست السفن على البر الغربي، رايات المدجاي السوداء
والذهبية تظهر جلية، وما لبث أن ارتفع غبار عرباتهم الحربية في
الأفق، آخذين جثمان الملك إلى معبده، لم يكن أحد من المشيعين

يعلم ما يدور بقلب ملكتهم الشاردة. تماسكها كان ضروريًا، وعلى الرغم من جمودها فإنها خشيت أن تتصدع وتشقق لتخر مهشمة صريعة للحزن.

وعند طرف رصيف الميناء وبين الجند والنبلاء كان تحوتي، ظل واقفًا عاقدًا يديه خلف ظهره، يحدق إلى الأفق والجموع تنفض من ورائه. بالأمس كان مطرودًا غير مرحب به، وفي الصباح أعيد إلى الخدمة مرة أخرى، شفعت له الملكة عند قائد الفرسان، لم يستطع الرجل أن يرفض طلب عنخ إسن آمون، وطمأنت تحوتي بأن سرهما لا يعرفه سواهما، وأنه منذ اللحظة التي يقف فيها أمامها قد بدأت مهمته، عليه التقصي والتحقيق مما أصاب أخاها، وبينما كان غارقًا في أفكاره سمع أحدهم يقول:

- أريد محادثة الفارس، تحوتي بن عحا المنفي.

واستدار إلى جهة الصوت ليرى السائل عنه، وتوقف الكون مرة أخرى.

سيد الحكمة والكلمات

«سيأخذ بيدك جحوتي سيد الأسطورة
رب الكلمات المقدسة، وحكيم كل معضلة
قاضي الآلهة، ومطبب الجراح
هادي الموتى إلى قاعة الحساب».

لقاؤهما جذب الأنظار، احتضن بعضهما بعضاً، وربت كلُّ منهما على ظهر الآخر، لم يستطع حور كبح فرحته بملاقة صاحبه، وقاوم تحوتي فيضاً من دمع الذكرى. صديقان تربيا معاً في ردهة سخمت وبين أعمدة بهو بتاح، أمسك كلُّ منهما بكتف الآخر وتطلع بعضهما إلى بعض، غياب كافٍ لتبدل هيتئاهما، حور حليق الرأس نحيل رث الهيئة، يبس جلده ونالت منه سمرة، أما صاحبه ففي أبهى مظهر، صار متين البنيان يحيط معصميه بسوارين من برونز كصديريته ذات النقوش والحرشف، يعتمر غطاء رأس مخططاً بخيوط ذهبية، ومن خصره يتدلى سيف خاباش بمقبض عاجي، تحركا بين الحشود المنفضة، مشياً باتجاه معبد طيبة المطل عليهما بعلوه، وسأله تحوتي:

- ما الذي أتى بك؟!

لم يتوقع سؤال صاحبه، وبدأ أن حرارة استقباله ولت سريعاً،
أحس بغصة تطرق صدره، وغالب لسانه لينطق:

- عمل، لديّ عمل هنا. جئنا لإتمام مقبرة أحد الوزراء، أعتذر،
جئت في غير وقتي، ولكن هذه من أهلك.

مد يده بجعبة متسخة، أخذها تحوتي متلعثماً:

- ما الذي تقوله يا رجل؟ أنا الذي يجب عليه الاعتذار يا حور،

مررت بأيام عصيبة، كيف حال أمي وأبي ومنف وأهلك؟

- بخير، يرسلون إليك تحياتهم، وتحيط بك بركاتهم. عليّ الرحيل
حتى لا أشغلك عما تفعل.

- إلى أين؟! ستتناول الغداء معاً.

- ربما في وقت لاحق، سنبحر في الصباح إلى البر الغربي، كانت
رحلتنا صعبة فقدنا فيها رئيس العمال ومعاونه.

- خضت مغامرة حقيقية، إذن لديك ما تثرثر به كمثّل عادتك القديمة.

كان تحوتي بحاجة إلى هذه الصحبة والخروج من دائرة القصر،
بداخله كثير من الغضب والحزن، ولا كلمات تستطيع أن تصف ما
يعصف بروحه، أحس بأنه عالق في متاهة لانهاية، وعلى الرغم من
تجاوبه ومجاراته لحديث حور، فإن الأخير علم بضيق صاحبه، قصّ
عليه أمر رحلته حتى وصلاً إلى ساحة معبد طيبة العتيق. صغار يلهون
تحت ظلال المسلات والتماثيل العملاقة. تابعا المسير قاطعين طريق
الكباش إلى السوق، والناس لا يكفون عن الكلام، سيرة الملك وموته
ومن سيعقبه كلها أمور دارت في أرجاء السوق، الباعة يدللون على

بضاعتهم، وكساد يعمر الأزقة زاهدًا البيع والشراء. اكتفى تحوتي بأن يكون مرشدًا لصاحبه، ودليله في المدينة الكثيرة حتى استقر بهما المقام وسط ساحة السوق. فكر قليلًا ودار ببصره في أرجاء العربات الخشبية والحوانيت الطينية المسقوفة بالقش، وما لبث أن ربت على كتف حور محدثًا إياه:

- تعال، اليوم ستتذوق أشهى طعام في حياتك.
- توجهها إلى حانوت أحد الجزارين الذي ما إن رآهما وضع ما في يده وهرع نحوهما، انحنى في تبجيل مستقبلاً إياهما:
- شرف عظيم أن تزورنا مرة أخرى، أيها الفارس الملكي.
- سيخمي، كيف حالك؟ هذا أخي حور قدم من منف، ولا يصح أن يأتي إلى طيبة ولا يتناول لحم كتف الثور المدخن بالثوم الذي تشتهر به، وأضف إلينا طبق كبدة الإوز بالبصل والكراث. رحب بهما وأفسح الرجل الباسم المكان، وأخذ يجهز لهما طاولة متواضعة كحال حانوته، وقدم إبريق بيرة الشعير وقدحين خشبيين. تبادل أطراف الحديث والذكريات ريثما يحضر لهما الغداء، وتصاعد دخان الطهو، وانهمك الطباخ وزوجته في إعداد الأطباق. اعتاد تحوتي أن يأتي إلى هنا بين الحين والحين، وكان محققًا بشأن طعام الرجل المميز، لم يدم انتظارهما طويلًا، جاءهما بخبز طازج وصحون من فخار تفوح منها رائحة ذكية، السر في تبيل اللحم بالكثير من الثوم وعصير العنب وقليل من زيت السمسم ونثرة ملح، أما كبدة الإوز فكانت مقلية بدهن الضأن مع شرائح الكراث والبصل. بدأ حور الجائع بأخذ رغيفه وهم يقطعه قائلًا:

- ما بك يا صاح؟

أفاق ابن عحا النسّاج من شروده وصاحبه يستطرد:

- ما زال أمر موت الملك يزعجك، ولكنها الدنيا، نموت لنحيا.

ألقى بقطعة الخبز واللحم في فمه، وأخذ يمضغ متلذذاً، وهو

يتابع:

- إن هذا أفضل ما أكلته في حياتي. كيف ستكون الأمور في

قادم الأيام؟

- أي أمور؟

- مَنْ سيكون الملك بعد توت؟

جاء سؤاله مباغتاً صعباً، جعل تحوتي يتوقف عن قطع الخبز،

لا إجابة لديه أو معرفة بما يجب عليه قوله، وجم وفم صاحبه لا

يتوقف عن المضغ والكلام، أحاطت به ظلمة وشرد تائهاً، وصوت

حور يتردد من بعيد:

- يقولون إنه مات في حادثة صيد.

وجد تحوتي لسانه ينطق متمماً بخفوت:

- بل قُتل.

ابتلع حور ما كان يلوكة دفعة واحدة بصعوبة، وحقق إلى وجه

صاحبه ذاهلاً متمماً:

- ماذا قلت؟

انتبه تحوتي لما أفلت منه، ارتعشت قسّمات وجهه، وما زال رفيقه

يثبت بصره عليه منتظراً أن ينطق، ولكن الناطق الوحيد في المكان

كان شخصاً آخر يقف على مقربة منهما:

- حور، ماذا تفعل هنا؟!

أدارا وجهيهما إلى صاحب الصوت المرتفع، وعلى عتبة الحانوت يقف كالسرقة، عاقداً ساعديه أمام صدره مبتسماً، اقترب ومد يده إلى صحن حور وأخذ قطعة لحم، تشمها مغمضاً عينيه، وقضم طرفها متلذذاً وهو يقول:

- لم أكن أعلم أن لديك أصحاباً رفيعي المقام في طيبة.
لم يتلقَ إجابة سوى الصمت، ألقى ما تبقى من اللحم في فمه وممص أصابعه قبل أن يتحدث إلى تحوتي:
- أنا كالسرقة.

لم يرق مظهره وفعله للحارس الملكي، رماه بنظرة خاوية ونهض حاملاً جعبته وقال لصاحبه:

- حسناً يا حور، عليّ الذهاب الآن، تعرف أين تجدني. شكراً لحملك هذا المتاع معك، سأراك مجدداً.

ألقى كلماته ودفع لصاحب المكان ثمن الطعام وشكره، ومضى تاركاً خلفه حور يهوي من السماء، أما ذلك الضيف الذي جاء في غير وقته، فجلس بصفاقة وتناول الخبز قاطعاً إياه من دون أن يأبه بما يدور حوله وأخذ يأكل.

* * *

لم يستطع حور تفادي ظنون لعبت به، قضى ليلته يفكر فيما حدث نهاراً، ما تفوّه به صاحبه ورحيله المفاجئ مع قدوم المتبجح كـ، الذي يدعي أن له تجارة جاء ليحبي خراجها، حكايته واهية غير مكتملة ينقصها شيء، وفوق كل هذا متنطع غامض، أنقذه من موت محقق،

لا يستطيع إنكار فعله، ولكن أمر تحوتي يقلقه، ليس هذا رفيقه الذي يعرف، انتقى من الذكرى أسعدها.

شابان نحيفان يركضان على تلال سقارة الرملية، قافزين من فوق الجروف المنحدرة نزولاً إلى الحقول الشاسعة ومن ورائها ضفة النهر، تسللاً وأخذاً طوافه أبي حور، وأبحرا مع التيار من دون مجداف، تبادلاً القفز إلى الماء من على المتن المتأرجح، طقس داوما عليه في الأيام الحارة، ولما علم حتب اكتفى بتحذيرهما من التماسيح، وانصاع حور لأبيه وكذلك فعل تحوتي. يتقابلان بعد زوال الشمس، ويجلسان على ربوة قريبة من النهر، يطالعان منف بهاء أسوارها البيضاء والأهرام العظيمة بكسوتها الحجرية الناصعة وقمتها المذهبة اللامعة، ويلتقيان كل صباح في معبد سخمت، حيث تعلمتا القراءة والكتابة بطريقتيهما، وحظيا برعاية عحا النساج أيضاً، للرجل نفوذ وعلاقات بالموظفين والكهنة، مما جعل لهما مكانة بين أقرانهما، ينهيان دروسهما ويخرجان لصيد دجاج الحقول ومداهمة أعشاش البط. رفيقان اشتد عوداهما معاً، ولعبت الآلهة بمصيرهما أو هكذا ظنا، تشاركاً كل شيء ولم يخف أحدهما سرّاً عن الآخر. أحب هو الرسم والنحت واجتهد ليصبح ما يريد، وكذلك سعى صاحبه جاهداً ليكون جندياً في جيش حور محب، فإذ به يصير حارساً شخصياً للملك. ما زال يحفظ كلمات أغانيهما في الليالي المقمرة وآخر لقاء لهما، ومضى كل منهما إلى ما يطمح إليه، والآن حياتهما وأحلامهما باءت بعيدة عنهما، لدى تحوتي ما يخفيه ويقلقه. وليت بوسعه فعل شيء لأجله، ولكن مع شروق الشمس سيرحل مع بقية العمال إلى البر الغربي.

شُحن العمال إلى السفن، ومن فوقهم غيم صباحي رقيق، قطعوا
النهر إلى الضفة الأخرى، وعلى امتداد الأفق تهيم جبال الغرب
بعلو وقسوة، وسيقوا على الدروب الطينية بين الحقول والترع،
جروا أقدامهم بين عربات خشبية تجرها ثيران ضخمة، وفي الأفق
عن شمالهم وراء الحقول معابد وصروح هابو كظلال بعيدة، وفي
حضن الجبل أمامهم استقرت ثلاثة معابد مدرجة عظيمة، تفاخر
أحدهم بمعرفته لأسماء أصحابها:

- هذا الذي في الأسفل إلى اليسار، بناء منتوحتب، والذي عن
يمينه للملكة التي لا يُذكر اسمها، هُدم بعض أجزائه وتحطمت
تماثيلها وكذلك مُحي اسمها وألقابها الملكية، والآخر البديع
المرتفع فوقهما جميعًا معبد العظيم تحتمس الثالث ابن أخيها
الذي اغتصبت منه الحكم صغيرًا.

ظل الرجل يتحدث، وهور شارد الذهن، حاور نفسه، كيف يُمكن
أن يُمحي ذكر المرء بهذه السهولة من الدنيا، إذا كان بين نسل الآلهة
ملوك طُمست أسماؤهم ونُسوا، ولعل هناك كثيرًا من أمثالهم. أي
مصير ينتظره هو وعائلته؟! يخشى والداه الموت من دون الحصول
على دفن لائق، وتتيه الروح من بعد فراق الجسد.

تبدل ثرى الدرب برمل وحصى، لم يكن يعلم إلى أين يُقادون،
لم يخبرهم مرافقوهم من الموظفين والحراس بأي شيء، كل ما
يعلمونه أنهم ذاهبون إلى مقبرة أحد الوزراء. ازداد الطريق وعورة وهم
يخوضون واديًا تحده الجبال الشاهقة، ومر بجانبهم تجاه وجهتهم
موكب من خمس عربات حربية، خلفوا وراءهم عاصفة من غبار من

دون أن يأبهوا بهم، واختفوا مع عطفة الوادي يسارًا. تابعت القافلة السير على خُطى من سبقوهم، وعند المنعطف اتسعت أعينهم مما رأوه أمامهم. اختلجت القلوب وتسارعت الأنفاس، الوادي يتسع من بعد ضيق، ورايات سوداء مزينة بنقوش ذهبية تتدلى على ساريات عالية، عربات حربية وخيول وخيام كثيرة، وتتناثر أبراج حراسة خشبية على المرتفعات والمنحدرات الوعرة، ومن ورائهم ترتفع قمة جبل هرمية مدببة. جاب حور الأرجاء بانبهار تملؤه الحماسة، وقد علم موقع عمله الجديد، وادي الملوك.

* * *

فرغوا من إنزال العدد والآلات، سُحبت الثيران والجياد إلى خارج الوادي المقدس، استلقى البعض على الحصير وآخرون تبادلوا الحديث، انتظروا انتهاء السادة من جولاتهم وتفقدهم للوادي، ومر الوقت ببطء حتى جاءهم رجل ذو طول ووجاهة، رفيع الشأن تحيط به زمرة من المرافقين والحرس. نهض حور والعمال من فورهم خافضين رؤوسهم، أمعن فيهم النظر قبل أن يكسر الصمت بهيبة صوته:

- أخبروني بأنكم أمهر المهندسين والصناع، والرَّسامين الذين حافظوا على أسلوب الأجداد في أعمالهم. اعلموا أن صنع أيديكم ستراه الآلهة، وأنكم قد اجتبيتم لتجهيز مقبرة محبوب آمون ملكنا، حور الذهبي توت عنخ آمون.

اعترت الجمع فرحة لم يفلح بعضهم في إخفائها، لكن التعاسة على وجه مُحدثهم جعلت من الحداد واجبًا مقدسًا، كلماته لامست

قلب حور، والرجل يوصيهم بإتقان صنيعهم، وضرورة الإخلاص ليحظوا ببركات ابن آمون. أمر تابعيه ورؤساء العمال باليقظة والحرص وتجنب أي خطأ، ورحل على متن عربته الحربية ومن ورائه حرسه، وتناقلت ألسنة العمال اسم الرجل ومكانته، إنه قائد فرسان آمون، أي الوصي على العرش الخاوي الآن. حاول حور ترويض ما بداخله من فرح ودهشة وقلق. تحققت أمنيته بالعمل في مقبرة ملكية، مصادفة عجيبة أن يأتي به من منف للعمل في مقبرة أحد الوزراء، ثم يجد نفسه أمام بوابة لسرداب صغير يقود إلى المدفن. فقط رؤساء فرق العمال هم من دلفوا، بقي مع رفاقه في الخارج تلعب به الهواجس حول موت الملك، ومن حولهم المدجاي النوبيون الأشداء، مميزون بدروعهم الصغيرة الموسومة بجعران مُجنح. بقي حور مقرّصاً إلى جانب صخرة كبيرة يستظل بها إلى جوار المدخل، ومن حوله لم تتوقف الأحاديث المتفرقة، ألقى ببصره ناحية رئيس البنائين الذي خرج للتو، ليقف على مقربة منه، بدا الرجل غاضباً متذمراً ومساعدته يحدثه:

- المكان ضيق بالأسفل. هل هذه مقبرة تليق بملك حقاً؟!

رد رئيسه بنبرة حزن:

- للملك مقبرة بالفعل في الجانب الآخر من الوادي، لكنها لم تكتمل أيضاً، لا أعلم مَنْ الذي اقترح وضعه في هذا المدفن الصغير، عدد العمال هنا يكفي لإنهاء القبر الأكبر، ولا يسعنا إلا أن ننفذ ما أوكل إلينا من عمل، سندفع بالبنائين والنحاتين لتسوية الحوائط والأسقف ومحارثتها بالملاط، وسيكون علينا إدخال التابوت الحجري فور وصوله أيضاً.

- ماذا عن هؤلاء الرّسّامين من منف؟ غرق رئيسهم وأصيب كثير منهم.

- انتقِ أمهرهم وادفع به إلى الكاهن باواح، هو من طلبهم في الأساس.

أنهى الرجلان حديثهما وحوار يتابعهما حتى لفت شيء انتباهه، رأى طائر «أبو منجل» يحط في قلب الوادي، ظن أنه يتوهم وتلفت قبل أن يعود إليه ليجده في مكانه، روح سيد الحكمة إله الكلمات المقدسة جحوتي، تنقل بين الصخور والأحجار بساقيه الطويلتين، وأطال النظر في عيني حور الشارد في صاحبه.

* * *

انشق الدخان ليخرج منه فارس ملكي، تقدم إلى حضرة آمون رع وزوجته الجميلة موت وصغيرهما خونسو، وضياء النهار ينسكب من فتحات ضيقة بالسقف المرتفع. المرات التي زار فيها الكرنك كان برفقة ملكه الفقيد، والآن يركع وحيداً، واضعاً سيفه على مذبح ندور حجري، عليه أطباق من ذهب وفضة وورد، أغمض عينيه وتمتم: «آمون رع، يا سيد الأرضين، نتر الكرنك النبيل الذي يصغي إلى الصلوات، أنا تحوتي بن عحا النّسّاج، تعرفني ولعلها الصلاة الأولى الخالصة لك، وأنا الذي على مذهب أهلي في منف، أقدس بتاح وأرفع ذكره وهو الذي أرشدني إليك، وهأنذا في بيتك وفي قدس أقداسك، يا مانح النسيم للبائس، وملبي نداء التعيس، إنك راعي الصامتين، وتأتي عند صراخ المتألمين. أتيت إليك متطهراً سائلاً عونك، القصاص غاييتي والحق سبيلي، وأقسمت من قبل إن حياتي

سُخرت لخدمة الملك وعرش الآلهة، يا سيد المبجلين اشهد لي حين يُنصب ميزان ماعت، ولتوصِ جحوتي بأن يكتب قلبي وسريرتي، ولتبارك سخمت سيفي إذا ما أريقَت الدماء، وأن تلطف بي زوجتك المقدسة موت. وليحصِ خونسو الماضيء أيامي وليالي، ولترَ أنت وجميع الآلهة صنيعي».

أنهى كلماته ورفع رأسه من دون أن يفتح عينيه، انحنى ساجدًا وحمل سيفًا مستطردًا: «تكلمت، وأنت سمعت».

فرغ من صلواته وشعوره طيب يراد قلبه، حيا الكهنة وغادر القاعة، وفي أثناء مروره ببهو الأعمدة الضخمة أحس بنسيم بارد بعث في نفسه طمأنينة وسلامًا، وراود قلبه أمل بتحقيق ما يتمنى. قضى يومين في تجهيز قائمة بأسماء من كانوا في رحلة الصيد، وهي مدة كافية لجعل الفاعل يظن أنه نجا. وفي اليوم الثالث ذهب إلى أول الأسماء في قائمته، مُساعدَي الكاتب معي، لم يكن من العسير إيجادهما. موظفان أحدهما مُدوّن، والآخر حامل أدوات الحبر والأختام، الأول باهت لا يجيد سوى الإحصاء وتنميق كتاباته ومراجعة لفائف البردي، والثاني ثرثار لديه هاجس ترتيب محتويات جعبته والرفوف الخشبية. حوارهما معهما كان عاديًا ولم تثر أسئلته شكوك الرجلين، ولم يجد فيهما أي شيء مريب. حدثاه عن الفاجعة وما حاق بملكهم المحبوب، مَنْ كان يصدق أن يموت بهذه الطريقة. كانا صادقين في مشاعرهما ولم يشتركا في الصيد، قضيا وقتيهما بين الطهارة والخدم والحرس، ومتابعة كل شيء وتسجيله. حصل تحوتي على ما يريد معرفته وودعهما.

لطالما نعته والده بالحكيم، ورأى فيه النبوغ والفتنة. يوم مولده

حط سرب من طير «أبو منجل» في حديقة البيت وفوق سطحه، طالع خير استبشر به عحا النسّاج، الذي منح ابنه الرعاية والاهتمام، وبث فيه أملاً أن صلاح البلاد لن يفلح من دون شبابها. يذكر وصيته له يوم رحيله عن منف، ونال منه الندم على فظاظته مع صاحبه، حاول تبرير فعلته لنفسه متعللاً بقدوم ذلك الغريب المتطفل، ولكن حور سيلتمس له عذراً، سيفعل بالتأكيد وهو الذي افتداه أكثر من مرة، ودعّمه حين خذله الجميع، أثره على نفسه في مواقف عدة. لا ينفك يذكر ركضهما ولعبهما بين أعمدة معبد بتاح، ومواجهتهما مع قطع الضباع القاطن بسفح سقارة. سيذهب إليه بعد انتهاء مهمته، ليخبره بأن طيبة وعزها لم يبدلاه، وأنه ما زال رفيقه القديم وأخاه الذي باركته الآلهة.

ذهب إلى الطهارة والخدم، واستجوبهم مراراً حول العجلات الحربية يوم الصيد، مَنْ كان بقربها؟ مَنْ رأى شيئاً غريباً؟ مَنْ المكلف بالاهتمام بالعجلات وصيانتها وسرج الخيل؟ ولا يعلم أحدهم شيئاً. وبعد زيارة مقر الحرس الملكي وثكنة الخيالة، استطاع تحديد وحصر سائقي العجلات الحربية، وأربعة من قيّمي الخيل وسارجيها، وجميعهم انتقلوا إلى المدينة الجنائزية بالبر الغربي، وآخر مهامه كانت في الحظيرة الملكية، حيث لم يُعد للعربة المهشمة وجود!

جلس على حافة سور الحديقة المطل على النيل، يستأنس بخير النهر ومياهه المترقرة، ينظر إلى الضفة المقابلة في صمت، هشمه صوت نبت التي لم يشعر بدنوها منه:

- تحوتي.

نطقت حروف اسمه بعذوبة مُسكرة. تأمل حُسن طلتها على

وهج المشاعل المتناثرة في الأرجاء، لطالما كان معجبًا بها، ويتحين
الفرص لرؤيتها. بهية المحيا، رائقة الوجه باركتها حتحور بقوام
وجمال لافتين، لم يفصح يومًا بما يشعر به تجاهها، ويخجل حين
تكون على مقربة منه، وهي التي تتمنى رؤية ابتسامته يومًا، استلطفته
وتوددت إليه ولكنه لم يبد أي فعل أو قول، صارم جاد يؤدي عمله
بتفانٍ، ولعله أكثر أهل القصر حزنًا بعد الملكة، ودت لو استطاعت
محو الأسى عن قلبه. أفاق على صوتها وهي تسأله:

- تجلس هكذا منذ انقضاء النهار، هل أنت بخير؟!
- نعم، أنا كذلك.

- كيف كان يومك إذن؟ أرى أنك تغيب كثيرًا عن القصر، وكنت
من قبل دائم الحضور.
تتودد إليه هذه المرة حقًا. شعر برغبتها في قول الكثير ويمنعها
خجلها، لم تجد إجابة منه فاستندت إلى السور الجالس عليه، وكادت
تقول شيئًا لولا أنه نطق:

- أصبحت غريبًا عن المكان في عدم وجوده، أتفهمين ذلك
الشعور باختفاء أحدهم في طرفة عين؟!!

- أفهم ما تود قوله، الهم والكرب يهيمنان على الأركان من بعد
عمارها بضحكاته، ذبلت بتلات اللوتس والخشخاش وفقد
الياسمين رحيقه حدادًا عليه. ولكن شعورنا بالفقد لا يضاهي
ما حل بالملكة، لم يذق جوفها أي زاد منذ يومين، وأخشى أن
يصيبها مكروه.

- عليك أن تكوني بجوارها.

- تحوتي، من بظنك سيكون الملك القادم؟ الخادومات يقلن إن كهنة آمون لن يسمحوا بتولية امرأة مقاليد الحكم. لا أصدق ما يقلن بالطبع، لأن بعضهن يحملن تلك العقيدة الفاسدة، كم أكره أتباع آتون هؤلاء.

هز تحوتي رأسه وألقى ببصره إلى القمر المحدث، وقال بنبرة عميقة:
- الآلهة تنصت وتدبر، قبل أيام سطع خونسو في السماء وتفاءلنا خيرًا، ولم يكن قربه من الأرض وكبر حجمه إلا تفحصًا للقلوب ليجتبي أجملها وأنقاها ولم يجد سواه. دعك من الناس، ليس بوسعهم إلا الكلام، ولا يشغلك قولهم وسؤالهم، وتذكري دومًا أن عنخ إسن آمون هي ملكتنا الحقيقية ووريثة الدم الملكي النقي، لم يعد هناك سواها، وعلى الجميع أن يدركوا هذا، إنها بحاجة إلى عوننا يا نبت، ولنرَ صنيع الآلهة في قادم الأيام.
يختار كلماته بعناية، رقيق وحكيم هو، ودت لو احتضنته وأخبرته كم هو رائع حين ينطق اسمها. نزل عن السور وما إن لمست قدماء الأرض حدثته بلهفة:

- إلى أين ستذهب؟

- سأعود إلى غرفتي، أمامي يوم حافل غداً، ومررت بيوم عمل شاق. وداع قصير لا يكفي لأن تنهل من حُسن جواره، أعجبها منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها عليه، صار له اسم بين القيان والوصيفات، المنفي الخجول، مؤمن حقيقي، وسيم الهيئة بهي الطلة، لا يرفع عينيه على نساء القصر، وطاغي الحضور أينما حل، فارس نبيل أثقله الهم والحزن.

راعي الأرواح

«وقال أنوبيس: سأعيد إليك رأسك، وأثبت عظامك.
أُطهر جسدك بالماء البارد، وأنقع جلدك بملح النطرون.
إن طهارتك واجبة يا حور الأفق العالي، من أجلك تجتمع
الآلهة، من أجلك جُهِزت سفن الأبدية حيث ينتظرك آمون رع».

البر الغربي - طيبة الجنائزية

أزاح رع الظلال قهراً عن هامات المعابد الجنائزية، وأنار بجلاله
صروحاً وأساطين باسقات لملوك غابرين، هنا قُدموا وقُدمت إليهم
القرايين والصلوات، ومنحتهم الآلهة الذكر الأبدي نظير ما قدموه
لنظام الكون وناموسه. مدينة كبيرة تحوي بداخلها مدناً أصغر. ضواحي
جنائزية ومعابد تعج بالكهنة والخدم القائمين على رعاية الأقداس
الملكية، وفي منطقة جرداء قرب السفح خلف الحقول، تقبع مدينة
العمال بأسوارها الطينية وورش الصناعات، كبيرة متشعبة الدروب
ويجاورها معبد حتحور الكبير، وتنتشر دوريات المدجاي في البساتين
والطرق، وتتناثر أبراجهم الخشبية وثكناتهم في أنحاء البر الغربي،

قواتهم مستنفرة لوجود باسر بن حوي وفرق الحرس الملكي . سبعة وعشرون يومًا مضت على جثمان الملك الراقد بسرير حجري مائل ومغطى بملح النظرون، نُصبت فوقه خيمة، وكُثف الحراس بالحديقة الخلفية للمعبد الجنائزي.

في اليوم الأول طُهر وغُسل بماء النيل البارد، وأخذ أتباع إنبو المطهَّرون يمرخون الجسد ويدلكونه بالزيوت المقدسة، وشق كاهن التحنيط فتحة في أسفل بطنه، في العادة يشقونها من الجانب الأيسر، ولكنه تضرر بشدة جراء مرور العجلة على صدره. أُخرجت الأحشاء تباعًا، وكلما أخرج المُحنط جزءًا تتلقفه أيدي مساعديه ذوي الأقنعة، ليغسلوه بالماء ويجففوه بالكتان، قبل غمسه في زيت الصنوبر المخلوط بالعسل ودفنه بأكياس الملح. لم ينجح الكاهن المخضرم في إبقاء القلب المحطم داخل الجسد، كان الأمر غريبًا عليهم، ولم يتوقفوا عند هذه اللحظة الحزينة، يعلمون أن الميت بحاجة إلى قلبه سليمًا في قاعة الحساب. أزالوا الدماغ عبر فتحة جُرح بمؤخرة الرأس، وغسلوه مرة أخرى بالزيوت والعطور، ودفنوا في أنفه الكثير من الراتنج المخفف بزيت الصنوبر والعسل مخلوطًا بالمر والقرفة، وبقي على هذه الحالة ليومين قبل أن يقوموا بحشو الجسد بأكياس كتانية ممتلئة بملح النظرون المقدس، ثم غطوا جسده بكومة أخرى. سيبقى سبعين يومًا داخل الملح، يحاوطه دخان البخور وتعاويز وتراتيل الكهنة.

كل هذا رأته وشاركت فيه السيدة نخ تي، كاهنة تحنيط ومساعدة الكاهن الأكبر شسمو، منحها الرجل رتبة جديدة بين سدنة معبد راعي

الموتى. قبل أيام أَلقت قسمها المقدس، ومُنحت قناعًا وبركات، وصار لها مكان بين صفوة المحنطين بعد سنوات الخدمة بالمعبد. حنَّطت امرأتين وثلاثة رجال وما تبقى من صياد أكلته التماسيح، وأظهرت مهاراتها في تكفين وتحنيط القطط والكلاب والصقور وحتى التماسيح، وكل هذا لا يقارن بما آلت إليه أمورُها بفعل اجتهداها وحبها لما تفعل، اختيرت ضمن محنطي الملك.

كبرت وترعرعت داخل المدينة الجنائزية، والدها كان أحد الموظفين بمعبد إنبو، وأكل الموت أمها وهي صغيرة بالوباء والجذب، إبان حكم الذي لا يُذكر اسمه، أما أختها فقد تزوجت، ولم تعد تراهما منذ رحلتا إلى بوتو في الشمال. عاشت مع والدها الذي أحبها وتفانى في إسعادها، حتى أتى يوم وصار الوداع محتومًا، وخدمت مكانه بالمعبد، ولتفانيها وإتقانها ونباهتها أخذت تترقى بين طبقات المرتلين والسدنة والكهنة. تعلمت فنون التحنيط والتشريح، ودرست وحفظت تعاويذ ونصوص كتاب «الخروج للنهار». تبدلت مدللة أبيها واعتادت رؤية الدم والأحشاء، ما زالت تقيم في منزل عائلتها الذي صار خاويًا من بعد عمار، بيت من اللبن يقع بالقرب من الترعة الموصلة إلى مدينة العمال، له سور قصير ويرتفع بطابقين، جعلت من العلوي غرفة نوم لها، ومُلئت شرفتها بقصاري الورد والريحان وسقاية ماء للعصافير. لم تكن وحيدة، لديها قطعة رقطاع لعب، تشاركها الطعام والفراش والأفكار والأحلام، تفتقد جلستهما معًا تطالعان الضفة الأخرى، وأنوار طيبة وعمائرُها الممتدة تحت سماء تُبدل أثوابها بألوان بديعة، والشمس تسطع من الكرنك مرتقية

أفقًا عذريًا ورديًا. اختارت الآلهة لها تلك البقعة القريبة من العالم الآخر، حيث الحياة الأبدية، وبخدمتها لإنبو ستمر بشفاعته إلى حقول الآرو، حيث خلود لا فناء بعده.

اضطرت إلى البقاء والإقامة في المعبد الجنائزي، ولم يسمح الحرس الملكي بمغادرة ودخول أي شخص إلى المكان ومحيطه، أُجبرت على أن تبقى مع بقية الكهنة والخدم، أقاموا الصلوات وأنشدت المراتلات، أوقدت مباخر أمام تماثيل الملك المصطفة على جانبي القاعة الكبرى. هيبة الموت وصدى الترانيم جعلًا للسكينة والطمأنينة موطئًا بقلوب ساكني المكان. كان محظورًا على أي شخص الدخول إلى قاعة التحنيط، وحده القائد آي من سُمح له بذلك، لقبه الفريد ومكانته وصيًا على العرش منحاه وضعًا خاصًا، أصر على حضور الطقوس كلها من استخراج الأحشاء إلى التغطية بالملح، بدا واجمًا حزينًا وهو يرى الهيئة التي صار عليها ربيبه، وطوال الأيام الماضية تابع بنفسه سير الأعمال والتجهيزات. وقت عصيب مر على العمال في وجوده، يخشى الجميع غضبه، ولا مجال للخطأ في حضوره الطاغي، مبجل وقور الهيئة يمشي بخطى واثقة مشدود القامة. تتطلع إليه بعينين فضوليتين، كل ما تعرفه عنه أنه قائد فرسان آمون، ووالد الملك بالوصاية، رجل غامض يلتحف التقوى والورع، وعينه المكتحلتان بثران من الغموض، لا تدري ما يجذب بصرها إليه كلما رآته أو صادفته في أحد الأروقة.

* * *

عادت إلى دارها بعد أيام من الغياب، استقبلتها قطتها بمواء شوق، كأنها تشكو وحدتها وما نالها في غياب صاحبها. لاعبتها ولاطفها واعتذرت إليها بتودد، كانت بحاجة إلى أن تأخذ قسطاً من الراحة والاسترخاء، اغتسلت ومسحت جسدها بدهان عطري، وارتدت ثوباً خفيفاً فضفاضاً يشف نهديهما النافرين، كحلت عينها المنعكستين في المرآة الصغيرة، امرأة حرة، ذات نسب، كاهنة مطهرة وهبت حياتها لخدمة الموت وراعيه. احتضنت قطتها وقبلتها، داعبت فراءها وهي تضعها جانباً، والهواء يتلاعب بستائرهما حاملاً رائحة الورد والريحان، أتت بقصعة من الفخار، وربطت فوقها قطعة كتان رقيقة، بكل هدوء وروية ودلال وغنج أخذت تنخل دقيق الشعير والقمح، نقتته من الشوائب وهي تدندن ترنيمة عذبة، أضافت الماء والخميرة، وعلبت خليط العجين الذائب ثم أحكمت غطاء القصعة، فرغت وشطفت يديها من أثر ما صنعت، وتحضرت للنوم.

غفت برهة وحين فتحت عينها لم تجد سوى العتمة، وباسيت تقفز من الفراش، تمطت متململة لا تعرف كم لبثت! حاولت أن تغمض عينها مرة أخرى ولكن مواء القطعة لم يتوقف، لعلها اشتمت رائحة قارض وراحت تطارده كعادتها. شيء ما جعلها ترهف السمع، السكون يعم المكان حتى قطتها لا تصدر صوتاً، وأخيراً جاءت صيحة أفزعها، تبعها زمجرة القطعة الشرسة، نهضت تتحسس في الظلام نحو غرفتها، لم تر شيئاً، نادى:
- باسيت، تعالي إلى هنا.

لكن القطة أبت، ركضت كلبوة تحمي عرينها. عيناها المضيئتان
في العتمة تتربصان بشيء ما لبث أن قال لاهثاً:
- جئت في أمان.

فزعت وراحت تحرق محاولة سبر الظلام، قالت والريبة تعترها:
- من أنت؟ وماذا تفعل في فناء داري؟!
- مصاب يحتاج إلى العون، نزفت كثيراً من الدماء. أرجوك
يا سيدتي.

أتم الغريب كلماته وسمعت من مكانها ارتطامه بالأرض، لم تفلح
في إيقاد مصباح الزيت، تعثرت وهي تبحث عن مشعل أبيها القديم،
أشعلته بحجرين ناعمين ورثتهما عنه، وقبل أن تفتح الباب تمتمت:
«إنبو، يا راعي الموتى كن حارسي».

سحبت المزلاج وخرجت بحذر، لتجد شخصاً ملقى على وجهه،
وقطتها تقف على مقربة منه تتشممه بتوجس، دارت بالمشعل في
المكان وألقت ببصرها خارج السور القصير للدار، دنت من الصريع،
وأخذت تتمتم:

- أنت، يا هذا. هل أنت بخير؟

فاقد الوعي، والدماء تغرق خصره وملابسه، جسده مبلل كأنه
خرج من الماء لتوه، لكزته فلم تجد رداً، ما زال يتنفس، حاولت
أن تقلبه لترى وجهه ولكنها فشلت، خرجت إلى الطريق بحثاً عن
مساعدة أو دليل على ما حدث له، ولم تجد سوى الخواء والظلام،
ركضت عائدة إلى الدار ونيران مشعلها تقاوم الهواء، أتت بخرق من
قماش وقربة ماء، وثبتت المشعل في زاوية السور وراحت تمسح الدم

عن الجرح، لم يكن عميقًا على الرغم من الدماء الكثيرة، من حسن حظه أنها تحتفظ بمرهم العسل وزيت النخيل، طببت الجرح وكتمته بضمادات كتانية، وباسيت تجلس جوارها تعلق مخالبها، وصاحبها تثبت الضمادة وتربطها حول خصره بصعوبة بالغة. لم يكن به أي أذى آخر، وارتطمت يداها بشيء معدني صلب بارد، ارتجفت قبل أن تعود لتتحسس بحذر، نهضت إلى الناحية الأخرى ورفعت جانبه لتفك حزام غمده، وعلى وهج المشعل لمع مقبض خنجر بهيئة الإله ست، أي قدر ألقى هذا الشيء بين يديها، نالت منها الحيرة، فكرت في الذهاب بحثًا عن دورية مدجاي وتخبرهم بما حدث في فنائها، ولكنها عدلت عن الأمر، دثرته برداء صوفي قديم وأوت إلى الدار، أوصدت الباب جيدًا خلفها، لم تستطع النوم وظلت تنتقل بين الفراش والشرفة، والجريح لا يتحرك.

ليلة طويلة لم يفارق فيها الخنجر يدها، تقلبه وتأمل تفاصيله الدقيقة، صارعت الأفكار وفشلت في إيقاف الأسئلة المتدفقة إلى وجدانها، تفقدته مرات حتى أشرق الشمس، خرجت إليه ولكزته بقدمها ولم يفق، أتت بجرة ماء وصبتها فوق رأسه، وانتفض شاهقًا والمياه تبلل صدره ووجهه وشعره المضفر، همَّ بالنهوض متأوِّها ولم يفلح، واهنًا غير متزن استند إلى الجدار واعتدل ليجلس متحسِّسًا الضمادة الملوثة بلطخة دماء، وهي تسأله:

- من أنت؟ وما الذي أتى بك إلى منزلي؟!

لم يُجبها من فوره، تفحص ملامحها الجادة وقطعتها التي تقف قرب الباب تتلصص في حذر، ثم نطق مستعطفًا:

- غريب وحيد تقطعت به سبل النجاة، أُدعى كا، تاجر من الأشمونين، فقدت مالي وكاد اللصوص يفتكون بي، لمقاومتي لهم.

- لصوص؟! ليس هناك سارقون في البر الغربي، الآلهة والمدجاي يحرسونه.

- وما قولك في محاولة طعني وسرقة أموالي و...

- لماذا لم يحصل سارقك على هذا؟!

قاطعته بسؤالها وهي تُبرز خنجره أمام عينيه، رأت فيهما رغبة وتقديسًا. حاول النهوض فاقتربت وبدت شرستها وتهديدها، انصاع وعاد ليجلس مرة أخرى وقال متلطفًا:

- كنت أحاول النهوض فقط، صدقيني ما ذكرته هو الحقيقة، يمكننا أن نذهب معًا إلى المدجاي وأقص عليهم ما وقع بالأمس، ثلاثة أشخاص هاجموني ولما جرحني أحدهم لذت بالفرار، نجوت بأعجوبة قافراً في المياه هاربًا. كل ما أريده هو أن يُقبض عليهم وأستعيد مال بضاعتي، كم أنا تعيس الحظ، أرى أحلامي تتصدع وتنهار، لا أعلم كيف سأعود إلى الأشمونين. اعذريني سيدتي نسيت أن أشكرك لمعالجتي وإنقاذي.

لوحت بالخنجر من دون قصد وهي ترد عليه:

- لم أفعل شيئاً، جرحك بسيط سيندمل سريعاً إن اهتممت بنظافته، ثم إنك قوي كفاية لتذهب، وخذ هذا معك.

ألقته إليه فتلقفه بمهارة، ليست بحاجة إلى معرفة مزيد من هذا الثرار، لطالما قدست الهدوء والسكينة، وذلك الشخص أرق ليلتها،

شعرت بأنه مزعج سمج، ولا يعنيه إن كان صادقاً أم اختلق كل هذا، ليرحل فقط، أولته ظهرها ومشت باتجاه باب الدار قائلة:
- عليك الرحيل. ولا تنسَ أن تخبر المدجاي بقصتك.

انحنت والتقطت قطتها، وأغلقت الباب خلفها، راضية بما فعلته وقالته، حتى إنها لم تنظر من النافذة لترى إن كان باقياً أم رحل. جلست أمام قصعة العجين المخمر، وبدأت العجن بعد أن أضافت قليلاً من الملح، وأخذت تعجنه بيديها بقوة ونشاط، تحفر الكتلة بيديها إلى أعلى وإلى أسفل بسرعة ومهارة، قرصته إلى قطع، وراحت تفردّها وتضعها على قوالب طينية، وأمسكت عصا لترسم حول كلّ منها دائرة، وتركتها أسفل الشمس ليباركها رع، وبدأت في إشعال الفرن. دفعت بمزيد من القش والأعواد الجافة إلى النار، وقطتها تجلس على الدرج مسترخية. تحب الخبز وتبرع في طهو صنوف الطعام، رتبت المنزل وعادت لتقرفص أمام الفرن لتبدأ الخبز، ستحمّله معها إلى المعبد الجنائزي، وتقدم منه للمساكين والزوّار المسافرين، عادة واطبت عليها كلما انتهت من تحنيط ميت، ولكن مراسم وطقوس تحنيط الملك لم تنته بعد، وعليها الذهاب كل يوم لتؤدي عملها.

باهتة لم يرها أحد تبتسم قُطُ، تحب اللعب والضحك والغناء مع قطتها، وتواجه العالم ببرود ورحابة صدر، توقن أنها في دار فناء، وأن الأبدية فقط للمؤمنين المخلصين، المتصالحين مع أنفسهم والذين لا يضمرون حسداً أو بغضاً لأحد. تأنس بوحدتها وتجد فيها راحتها، ويكفيها من عرفتهم في الحياة، زملاء المعبد والخدم، يلقبونها بالصامته، لعدم اختلاطها بهم، تكتفي بتأدية طقوسها وأعمالها

بخشوع وشغف، مؤمنة زاهدة تهتم بعملها، وليس هناك أكثر قداسة من تجهيز الموتى لرحلة الحساب.

أطعمت قطتها وكسرت ريقها بقطعة خبز غمستها في إناء العسل، اغتسلت وبدلت ثوبها وحملت سلة الخبز فوق رأسها. مشت من دون أن تمسك بها، واتخذت طريقها إلى معبد الملك تتبعها قطتها اللعوب، وقرب نُصب البقرة المقدسة حتحور رأسه، يقف مع اثنين من المدجاي يتبادلان معه الحديث، وما إن رآها مقبلة صاح: - هذه هي.

انحنى لها بتبجيل أمام الحارسين، فما كان منها إلا أن جاءت حيث يقفون، والرجلان ينظران إليها وأحدهما يسألها:

- سيدتي، هل أنت من عالجت جرحه؟

أومأت برأسها وقطتها تموء وتتمسح بطرف ثوبها:

- فعلت، وجدته مصابًا في فناء داري.

تنحني الآخر ورفع ساعديه يأخذ عنها سلة الخبز قائلاً:

- سيدتي، دعينا نساعدك.

تراجعت خطوة إلى الوراء وحدثته:

- لا داعي لهذا. أرجو أن تساعدوا هذا الغريب الذي سُرِق ماله،

تلك المرة الأولى التي أسمع فيها أن أحداً سُلِب منه شيء في

البر الغربي.

قال أولهما:

- نعم، هذا عجيب، ولكننا سنحقق في الأمر، حمّتك الآلهة

أيتها الكاهنة.

وتدخل كما مازحًا:

- ربما يُسجل ذات يوم أنني أول من سُرِق هنا.

لم يضحك أحد. أفسحوا الطريق للسيدة لتمر، من الجيد رؤيته وهو يُبلغ عن الأمر، لن تحتاج إلى إبلاغ أحد الآن. مضت إلى المعبد ووزعت الخبز على المساكين في الباحة أمامه، وعرّفت نفسها إلى قائد جُند الملك، الذي بحث في البردية الموضوعة أمامه عن اسمها ثم أدخلها، وقضت اليوم بين أروقة المعبد وخيمة التحنيط، تشعل البخور وتتلو التعاويذ، تتفحص صناديق أغراضها، قناعها الزجاجي المطعم بالذهب، وجه أنوبيس بسواده البهيم وتفاصيله المذهبة، وفتحت طبقات الكتان لتكشف عن مشارط وسكاكين وإبر رفيعة معقوفة وأنابيب نحاسية دقيقة، رأت الحمالين والخدم يضعون أجولة من شتى صنوف المؤن التي يحتاجون إليها، البابونج والمر والعسل وجرار راتنج فاخر مخصص للأسرة الحاكمة، كل شيء مختوم بوسم الملك المكفن بالملح، سيبقى هكذا لأربعة أسابيع أخرى وسيكون عليها وبقية الكهنة زيارته يوميًا. الحركة في المعبد لا تتوقف، وزاد عدد الصنائع والحرفيين القائمين على تجهيز أغراض الملك، والحرس الملكي المهيب يُحصي كل الحضور.

حلت ظلال المساء، وتجملت السماء بغسق قانٍ، خريير ماء البركة المقدسة يسري بين الجدران وجنات الأروقة، أزف وقت الرحيل، وأوقدت المشاعل المعلقة بالأعمدة العظيمة. رتبت أغراضها وحملت قطتها النائمة، وسلّة خبز خاوية كأرجاء المعبد المهيب. صادفت في سيرها للخارج أحد زملائها من الكهنة، كان يبحث عن

قناعه، نسيه في مكان ما، عدا ذلك كان المعبد هادئاً، وقرب الشكنة العسكرية الملكية، رأت عددًا من العجلات الحربية وتجمعًا لعدد من الفرسان، مرت بهم ولم يلتفتوا إليها، كانوا منهمكين في حوار مر بسمعها جزء منه، وبدا أن أحدهم كان غاضبًا وهو يصيح:

- كيف يجرؤون على فعل هذا، نحن الحرس الملكي.

وبرز أفراد من المدجاي بسواد ملبسهم، فصمت المتكلم وهم يحيطون به وزمرته، وبدا لها أن الحرس الملكي أقل شأنًا من المدجاي. احتد الخلاف بين الفرسان، ولكنهم أفسحوا الطريق لها، يقول زملاؤها عنها إنها صامته، ونسوا أن الحوائط تنصت وتكفهر حزنًا وفرحًا على حسب أهلها، والناس تخشى الفوضى، أما هي فلا يهتمها من الأمر شيء، هي خادمة الموت وكاهنة لها مكانة. غازلتها نسمة هواء بارد، وجالت ببصرها في أرجاء الوادي الشاسع، وما زالت في السماء مسحة من نهار مُودع، وغيمة وحيدة بيضاء ثقيلة تعبر النهر الجاري. وعند عتبة دارها رأت عابر السبيل الجريح، يقف متكئًا على الجدار حاملاً إوزة، وابتسمت.

شُرور

«انعقد تاسوع أون ينقصه اثنان، قاتل ومقتول،
يقول رع: ست ليس بشرير، إنه مجدافي اليمين.
تقول تفنوت: أعمى عينيه الغرور.
يقول شو: قُربه من بشر الطين أصابه باللوث.
تقول نوت: لا أحد معفي من الشرور.
وقال جب: تبررون للأثيم، وتنسون القتل.
قالت نفتيس: مس زوجي شيء من جنون.
ولم تنطق إيسث.»

يقولون إن ست كان صالحًا قبل خطيئته الأولى، أبحر كثيرًا رفقة
أتوم رع على متن مركب الشمس الخاص به، مرتديًا درعًا، حُفر
على صدره جُعران من اليشب خُضرته لامعة، وتجدف من حوله
قردة البابون بصعوبة في مياه نون الظلماء، يتلاطم حولها موج من
ثعابين سوداء، تتوسطه جُزر تعلوها عقارب ضخمة تلوح بذيلها
المعقوفة، وعينا «أبو فيس» الشهلاوان المشقوقتان تراقبان من بين

الظلال، ترصدان للنثر الأعظم الذي بهلاكه تفتى الحياة، ينفث
سُمه من حيث يختبئ، رذاذ ثقيل القطرات يتهاوى غدرًا، واشتد
بأس «أبو فيس» وتجراً ليضرب بذيله جانب المركب، وثارت القردة
المجدفة لما حاق بأخواتها. ازداد دفاعها شراسة وهي تصد أتباع
الظلام، قاتلت بضراوة تحت ضياء خالقها وإلى جوار ست الباسل،
الذي أطاح بالأعداء بكل جسارة، في رحلة تكررت كل يوم منذ نشأة
الكون، وفي كل ليلة يُصارعان نون ووحشه «أبو فيس» وشرورهما،
وينتصران. حتى مل ست ومال ميلته العظيمة.

- الآلهة تخطئ كما البشر.

نطق بها كا سرقت، ووجمت نخ تي محملقة إلى وجهه بصمت،
فاجأها بجرأته على الآلهة، وهو الذي أهداها إوزة كما فعل جب
مع نوت، وعلى الرغم من أنها تعرفه منذ أيام فإنها المرة الأولى
التي تتوجس منه، لا تدري لِمَ انقبض قلبها لقوله. أسبوع خاطف مر
على لقائهما الأول، يزورها كل يوم متلطفًا بهداياه البسيطة، يطلب
منها تأدبًا وعطفًا أن تعالج جرحه، لديها مراهم وأدوية ولمسة شافية.
أصبح يشتهي طعامها بعد طهوها للإوزة، وعلمت أنه استأجر بيتًا
قرب مدينة العمال. لم يقصص الكثير عن نفسه، وكل يوم ينتظرها
وقت خروجها من المعبد، يؤنسها حتى باب منزلها، ويجلس بالقرب
من السور القصير لفنائها. ألفه الجيران القليلون من حولها، بمرحه
الذي يمحو أي غرابة عنه، ظريف معسول الكلام، تقبلت حضوره
وراحت تتفنن في طبخها وأكلاتها، أعدت له أشهى الأصناف، ولم
تخبره عن حياتها بأي شيء، ولم يسألها، هو فقط يعلم أنها تعمل في

المعبد، ودارت أحاديثهما حول الحياة والمدن التي زارها بوصفه تاجرًا راحلًا، أما تلك الليلة فبدأتها هي بقصص الآلهة وانتقت منها ما حدث بين ست وأوزير، وانتهى المطاف بأن يشرح لها كيف هي الدنيا في نظره:

- يقولون إن خطيئة ست الأولى هي الطمع، أما أنا فلا أرى الطمع خطيئة، الجميع يطمعون في أن يكونوا أفضل مقامًا. الموظفون يتملقون طمعًا لمراتب أعلى، والجند يجتهدون لينالوا الترقيات أو ينقلبون لينالوا التقديس. نصبح ما نريد إن أردنا ذلك، وندور في الحياة وفق ما نريد، وهذا ما أراده ست، أن يكون كما يريد، حتى أصبح الشرير الطامع والمغتصب الشره المنبوذ من الآلهة والبشر.

- لذا تحمل خنجره؟!

- تريدون معرفة من أين حصلت عليه؟

برقت عيناها بالفضول، وشرد في عمق سواديهما، وأخذ يروي أسطوره هو:

- لم أعرف لي والدين، ولكنني ترعرعت في الأشمونين، مهد الكون الشاسع ومدينة مذهب الثامون المقدس، حظها العاثر أنها على الضفة المقابلة لمدينة الذي لا يُذكر اسمه، ما زلت أراني طفلًا حليق الرأس إلا من ضفيرة جانبية، أخدم وأنظف وأشعل بخور أقدس مكان بمعبد الثامون. رسومهم الذهبية عالقة بذاكرتي وحولهم زُرقة المياه الأزلية التي خرج منها كل شيء، ثمانية أزواج بأجساد بشر ورؤوس صفادع وثعابين، كما

تعرفين أن مذهب الأشمونين يخوض إلى ما قبل الخليقة التي يعرفها أهل مذهب أون ومنف. عشت محاطًا بشروح العقيدة وقصص الآلهة ومعجزاتهم السحرية، رحلة خضتها بتقبل وغبطة وشغف للمعرفة، أتعرفين شعور أن يكون جسدك مشتعلًا ويرتطم بماء بارد، هذا ما حدث لي يوم هجم أتباع آتون على بلدتي، عاثوا فسادًا في أرجائها ودنسوا كل شيء، عجلاتهم الحربية دهست الأجساد، وكلاب صيدهم فتكت بالنُّسك، داهموا المعابد وحطموا رؤوس الآلهة، وسلبوا النذور المقدسة، كنت أقف وسط الساحة جامدًا لا أعرف سبب فعلهم هذا، لم يعبأوا بي ولم أهرب، وجاء كبيرهم متغطرًا صائحًا في وجه الكهنة المُنكل بهم، ومن حوله نادى رجاله: «المجد لآتون». نهبوا خزائن المعبد والمدينة عقابًا لأهلها على تمردهم، رأيت دماء تُراق وأسرى يُقادون بالحبال والسلاسل، وكان عليهم تكبيلي مع بقية الخدم والكهنة. شيء بداخلي أمرني بقتله، صوت أخذ يتردد في أذني بأن أنتقم لما حاق بمُعلمي وكل من أعرفهم، واستطعت خطف خنجر ذلك القائد المتغطرس وحاولت نحره، لا أدرك أتدفقت الدماء انتقامًا للآلهة أم لحياة تُسلب مني، جرحته ساعده ولذت بالفرار، ولسنوات ظللت هاربًا أجوب الأرضين من أحراش الدلتا حيث البحر الشاسع إلى مجاهل كوش، بحثت عن الآلهة في كل مكان، ذهبت إلى مدنها المقدسة ولم أجد سوى الكهنة والخدم، اضطرت إلى أن أدلف إلى صحراء الغرب، وأن أعيد إلى ست خنجره، أو أجد هلاكي ونهاية لتلك الحياة القاسية

الغريبة، أملت في الخلاص أو لقاء الآلهة. وغشي عليّ في سرمدية
السراب والرمال الممتدة إلى أفق بعيد، وحين أفقت كنت بصحبة
أناس يمجدون الشرور، وعلموني كيف تكون الحياة حقًا، وكان
هذا الخنجر خير سند لي.

- مَنْ هم؟

- لا، تلك قصة أخرى. عليّ الذهاب الآن، تأخر الوقت.
سألته وهو ينهض:

- متى سترحل عن الأنحاء؟!

- حالما يُشفى جرحي. أراك غداً.

سلك دربه، وظلت واقفة تبصر رحيله ونسيم ليلي يجوب الأرجاء،
تأنس بوجوده بعكس قطعتها التي لا تقرب مكانًا هو فيه. جاءتها متهادية
رافعة ذيلها، وما لبثت أن أخذت تتمسح وتحك جسدها بطرف ثوب
صاحبته، قفزت إلى السور تششم الهواء كأنها تتأكد من رحيله. دلفت
نخ تي إلى المنزل، أو صدت المزلاج ورتبت بعض الأغراض قبل أن
تصعد إلى غرفتها، أوت إلى الفراش وجاءت القطة لتلقي بنفسها بين
أحضانها، داعبتها ونظرت إلى عينيها وقالت: «وحق راعي الموتى
لا أعرف ما يحدث لي».

أحبت الحديث معه ووجوده بقربها، لا يعرف حقيقتها وماهية
عملها، حتى من يعرفونها لا يعلمون أنها كاهنة تحنيط، يظنون أنها
مجرد خادمة بمعبد إنبو، وآخرون يجزمون بأنها مُرتلة ممن يتلون
النصوص المقدسة، ولا يعلم أحدهم أن قناع ابن آوى يخفي الكثير.

* * *

اختير حور وثلاثة رَسامين ليؤسسوا أبعاد مناظر ونقوش المقبرة، صغيرة للغاية وبالكاد شرع العمال في تسوية جدرانها بالملاط. شُددت أوتار خيط مُلون على الحوائط، وقيست الأشبار والزوايا، والنحاتون يجهزون الناووس الحجري ويتمون نقوشه وتزيين زواياه. انتقل ورفاقه إلى المدينة الجنائزية، رفقة الكاهن باواح، وخطوا رحالهم بمعبد الملك الذي قُسمت باحته الخلفية إلى ورش صغيرة. نجارون وصانعو توابيت ومقصورات، صاغة ونحاتون وطباخون ولكل مكانه ومكانته، جُلب كبار الحرفيين واختير صبيانهم بحرص، وفي غرفة الكاهن الأكبر استقر بهم المقام، مُنح وزملاؤه نصوصًا من كتاب «الخروج للنهار»، ومشاهد رُسمت على برديات وشقفات من حجر، وطلب منهم أفكار لنقوش المقبرة، تركهم الكاهن باواح وسط لفائف البردي وريش الكتابة، أمرًا رجاله بأن يلبوا احتياجاتهم، ومُنحوا حرية التجول في أرجاء الصرح لمطالعة صور الملك وهيئاته. الجدار الأكبر من نصيب حور، أوكل إليه رسم طقس أو مشهد للملك وهو يخوض رحلته إلى العالم الآخر. اعتمد رفاقه على الرسوم البدائية التي منحهم إياها الكاهن، أما هو فرسم مشهدًا ملحميًا لصراع رع ونون، معركة بين الضياء والظلام، جاعلاً الملك في هيئة الصقر حور سيد الأفق، يلطم بجناحيه الثعبان الأسود الخارج من الماء العكر، والآلهة تقف متراصة تشاهد ما يحدث. انغمس في شهوة خياله المجسد بريشته، أتقن رسمها ولم ينهض حتى أنهاها، ولما فرغ لم يجد رفاقه حوله، لا يدري أين ذهبوا! وضع أدواته ووقف يتأمل صنعه، خُيل إليه أنه سمع أحدهم يفصح عن جوعه، خرج متثائبًا

يتمطى، وسماء المغيب صُبغت بلون أرجواني خلاب. بحث عن رفاقه في الأرجاء ولم يجد إلا الكهنة والسكون، دار حول نفسه هل عليه أن يسأل أحدهم عن زملائه؟!!

طاف في الأرجاء باحثًا متفحصًا، المعبد حديث البناء واسع الجدران، بعض نقوشها غير مكتملة، وما تم منها يُمثل الملك على عجلته الحربية، يصطاد الإوز، يطارد الأسود والغزلان، يُقاتل ويرمي بسهامه إلى صدور العدو، ومجسم في هيئة أسد أسطوري له جناحان ويطأ جثث خصومه، أسرى من كوش وكنعان وليبيا مُكبلون أسفل نعله. تماثيله في هيئة أوزير تحتل واجهة البهو المؤدي إلى قاعة قدس الأقداس. الحرس كثيف في تلك البقعة، لم يكونوا من المدجاي، بل الحرس الملكي، هذا هو شعارهم وتلك هيتتهم، تمنى لو رأى تحوتي بينهم. مضى متأملًا شاردًا إلى أن تناهت إليه همهمات، التفت ليرى المارين إلى جواره، كهنة أنوبيس المطهَّرين يخفون وجوههم بأقنعة راعي الموتى، جميعهم رجال إلا امرأة تتوسطهم، يحملون المباخر وينثرون الملح في الزوايا، وكبيرهم يُرثم تعاويذ حماية سحرية، لوهلة ظن حور أنه بداخل حلم، ولكن ما يراه كان حقيقيًا تمامًا. أفسح الطريق للرهط المار، ابتهج قلبه لكونه في نفس المكان الذي يُحنط فيه الملك، سيفرح أبواه إن علما بما أصاب ابنهما من شرف. وجاء رفاقه محملين بالفاكهة والخبز في مشهد عبثي غريب على المكان، نهرتهم نظرات الكهنة والحرس، وتهامس معهم حور، أخبروه بأنهم ذهبوا للغداء وأتوا إليه بطعام، وما لبثوا أن عادوا جميعًا إلى حيث كانوا.

قَصَّ كُلُّ مِنْهُمْ مَا رَأَاهُ فِي الْمَعْبَدِ شَدِيدِ الْحَرِاسَةِ، جَزَمَ بِأَحْرِي بِأَنَّهُ رَأَى صِنَادِيقَ مَلِيئَةٍ بِالْكُنُوزِ فِي إِحْدَى الْغُرَفِ، وَأَضَافَ بِأَنَّهُ حَسِيَ أَنَّ الْمَكَانَ رَطْبٌ وَبَارِدٌ وَيَبْعَثُ عَلَى النَّوْمِ، وَقَالَ بِأَنَّهُ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى الْبَرْدِيَةِ الْمَوْضُوعَةِ أَمَامَهُ:

- أَرَى أَنَّكَ أَدَيْتَ عَمَلًا رَائِعًا.

ابْتَسَم حُورٌ وَقَضَمَ قِطْعَةً مِنْ خِيَارٍ كَانَتْ بِيَدِهِ، مَضْغَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى بَاثَايَ الَّذِي تَابَعَ شَارِحًا الْمَشْهَدَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ:

- تِلْكَ اللَّحْظَةُ الْفَارِقَةُ فِي الْقِتَالِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَعَيْنَا حُورُ الْحَامِي فِي الْأَعْلَى هُمَا اللَّتَانِ رَأَتَا كُلَّ شَيْءٍ، لَمْ يَمُتْ الْمَلِكُ فِي هَيْئَةِ أَوْزِيرِ الْمَغْدُورِ. رُبَّمَا لَوْ جَعَلْتَهُ حُورٌ سَيَكُونُ أَفْضَلَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

- رُبَّمَا، فِي الصَّبَاحِ سَنَعْرُضُ أَعْمَالَنَا عَلَى الْكَاهِنِ بَاوَاخَ، وَأَتَمْنَى أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْ دُونِ عَنَاءٍ.

- تَنْفِيزُهَا قَدْ يَكُونُ صَعْبًا، وَيَحْتَاجُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ وَالْأَلْوَانِ، سَمِعْتَ الْيَوْمَ أَنَّهُمْ اضْطَرُّوا إِلَى اسْتِخْدَامِ أَغْرَاضٍ كَانَتْ لِلْمَلِكَةِ السَّابِقَةِ، وَكَذَلِكَ مَقْتَنِيَّاتٍ كَانَتْ لَسِنْخِ كَارِعٍ، نَظَرًا إِلَى ضَيْقِ الْوَقْتِ سَيَسْتَخْدِمُونَ تَابُوتًا صُنِعَ لِشَخْصٍ آخَرَ، أَتَفْهَمُ قَصْدِي؟ أَجْزَمُ بِأَنَّ الْكَاهِنَ بَاوَاخَ سَيَرَفُضُ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ، انْظُرْ إِلَى هُنَا.

التَّقَطُّ بِنَتَاوَرِ أَحَدِ الرُّسُومِ الَّتِي عَرَضَهَا عَلَيْهِمُ الْكَاهِنُ مُتَابِعًا:

- هُوَ يَرِيدُ شَيْئًا بَسِيطًا، يَعْبُرُ عَنْ رَحْلَةِ الْمَلِكِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَمُقَابَلَةِ الْآلِهَةِ، رُبَّمَا عَلَيْكَ رَسْمُ مَشْهَدٍ لِلتَّحْنِيطِ أَوْ أَحَدِ طُقُوسِ الْجَنَازَةِ.

قطع حديثهم صوت أحد الجند يخبرهم بضرورة إخلاء المكان، انتهى يوم العمل في المعبد، أخبرهم بأن يتركوا أغراضهم ويخرجوا من دون أن يحملوا شيئاً، سيبيتون في مدينة العمال القريبة، ويأتون في الصباح. انصاع حور ورفاقه لأوامر الجندي، وخرجوا ليجدوا الجميع يستعدون للرحيل أيضاً، كهنة وعمالاً وخدماء، والحرس الملكي يطوف في الأرجاء ليتأكد من خلو الأروقة. وفي طريقهم رأى حور إحدى السيدات تحمل قطة بين ذراعيها، تابعها في أثناء خروجها وجمدت ملامحه حين رأى من ينتظرها!

* * *

ليلة طويلة آنسه فيها غناء صرصور حقل وحيد، يرد على شخير باحري النائم بالقرب منه، لم يفارقه مشهد كا وهو ينتظر السيدة من المعبد، رآه من حيث لم يره، ولكن ما الذي يفعله في البر الغربي؟! ألم يقل إن له تجارة في طيبة أو شيئاً من هذا القبيل؟ رتب فراشه وتدثر بغطاء من صوف خشن، أغمض عينيه محاولاً النوم مراراً وفشل، أبى إلا أن يتيه ويُشتت، وجوه عدة زارته ومواقف عابرة غير مترابطة بُعثت ذكراها في نفسه حتى غفا.

مع خيط الفجر الأول استيقظ ورفاقه تبعاء، غسلوا وجوههم ورؤوسهم وتناولوا ما لديهم من خبز، ومر عليهم معاون الكاهن ليصطحبهم إلى المعبد. الشوارع مزدحمة بدواب وعربات ومجموعات من الفلاحين والعمال. شروق رائق، ونسيم صُبح ينعش الأنفاس، وعلى ضفاف النهر تتراص قوارب الخوص الصغيرة، تُذكره بأبيه ومخاطرته اليومية لأجل لقمة العيش، الحياة

شاقة على الجميع، وإن لم تعمل لن تأكل، والناس بين حاكم ومحكوم، غني وفقير، وكلهم مبتلى بطريقة ما، ولكل نصيبه من الدنيا، التي تطيب حين يكون المرء راضيًا بما قُسم له منها، وأن يعيش بشغف لما يُسعدُه. أحب عمله المقدس، ورسم ما تراه عينا خياله، وما النقوش والرسوم التي يُمثلها على البردي والجدران إلا قرابين للآلهة، وهبوه أنامل خفيفة تصيغ الأحلام، وتتنقن اللعب بالفُرش والألوان. دلف ورفاقه إلى الرواق الخاص بعملهم، ووجدوا باواح في انتظارهم.

عرضوا عليه رسومهم، وأعجب بما قدموه من أفكاره وإسقاطات للنصوص التي مُنحت لهم، وجاء عند حور وصمت، بقي بعض الوقت يتأمل جمال الرسم ودقة تفاصيله، واستدار إليه سائلًا:

- ذكرني باسمك؟

- حور حتب، أيها المبجل.

- أين تعلمت هذا؟!

- في معبد سخمت، تعلمت الرسم والكتابة بطريقتيها في حضرة ثالوث منف.

أخذ باواح يدقق النظر لما بين يديه، رسوم رائعة فريدة، فيها من أسلوب رسامي الذي لا يُذكر اسمه. توتر الرجل ومر به طيف من أيامه بمدينة آخت آتون، حين كان كاهن آتون المخلص، والذي صار من بعد توبته مسموع الكلمة في الكرنك. حدث حور بنبرة عميقة:

- صاحب هذا المشهد، لا أنكر روعة تصميمه ودقة رسمه، لكن لا أمل في تنفيذه لضيق الوقت، إنه قريب الشبه من رسوم

أتباع آتون، لن يمكنك تنفيذه للأسف، ربما إن أجريت عليه التعديلات مستقبلاً، قد نعرضه على الملك المقبل، إن أحسنت صنعاً فيما بين يديك من عمل.

بدا أن الرجل معجب حقاً بما خطته أنامل حور، وأخذ يشرح له ما يريد من رسوم في مثنوى الملك، المشهد الرئيسي سيكون لطقس فتح الفم، والذي كان في العادة يُمثله كاهن تحنيط برأس إنبو أو ولي العهد أو أحد أقرباء الميت، وما طلبه باواح كان غريب الوقع على حور ورفاقه.



أربعون يوماً قضاها القائد آي في البر الغربي، أقام بقصر أمنحتب العظيم وفيه اجتمع برجاله كل صباح، تابع باهتمام ودقة سير العمل في المقبرة الملكية الجديدة، وأشرف بنفسه على تجهيزات الجنازة. عاد إلى طيبة مصطحباً الكاتب معي الذي أحصى كل شيء كعادته، وترك خلفه باواح وباسر يديران الأمور. سُمح بتقديم القرابين للملك وفتح معبده الجنائزي، وبقيت خيمة التحنيط وغرفة مقتنيات الملك والورش تحت حراسة مشددة، هذا ما علمه تحوتي فور وصوله إلى البر الغربي، استقبله رفاقه من الحرس الملكي بترحاب بالغ، يعلمون أنه عاد إلى الخدمة مرة أخرى حارساً للملكة، وإن كان كذلك فلماذا جاء إلى المدينة الجنائزية؟!

لم يخبر أحداً عن سبب قدومه، ولم يجد من أتى في أثرهم بالمكان، تجول في أرجاء المعبد وقدم قرباناً لملكه، وأشعل البخور حول كومة الملح. اطلع على مواقيت تبادل الجند لمواقعهم وخط

سير الدوريات، بحث عن رجال باسر وتأكد من وجودهم في البر الغربي، وزار ورشة الصنّاع ليجد عربات الملك فُككت، وُصِبغت أخشابها ورُممت الصفائح الذهبية، والنقوش أُعيد ترميمها، بحث بين العجلات حتى وجد ضالته، ما زال أثر تخريبها باديًا حتى بعد دهانه وتلميعه. اطمأن قلبه وعاد أدراجه إلى الثكنة، تبادل الحكايات مع بعض رفاقه القدامى، وبعدها ذهب ليستريح. مُنح مكانًا للنوم ببرج حراسة تحول إلى مبيت للجند، استلقى بالفراش الخشن وأغمض عينيه وغفا.

نام طويلًا واستيقظ لا يدري كم لبث نائمًا، خرج ليجد أن الشمس لملت ضيها واتخذت سبيل الغروب. أراق الماء على رأسه قبل أن يمضي باحثًا عن باسر، تنقّل بين الأروقة والقاعات الخاوية إلا من الظلال، وكاهن يُخفي وجهه بقناع إنبو يطوف حول الأعمدة، ووسط سكينه وهدوء المكان خُيل إليه أنه سمع صوتًا مألوفًا، وقادته قدماه إلى حجرة صغيرة مليئة بالرغوف الخشبية والبرديات، وبُهِت حين اصطدمت عيناه ببصر صاحبه، لم يتوقع هذا اللقاء مجددًا، تمت مندهشًا:

- حور، ما الذي تفعله هنا؟!

رد حور حتب باقتضاب محاولًا إخفاء فرحته:

- أقوم بعملِي. أوكل إلينا تزيين مقبرة الملك، هذا باثاي وبانحسي وباحري.

حياهم تحوتي وربت على كتف صاحبه الذي كان يعلم أنهما سيلتقيان ولكن ليس بهذه السرعة، ذاب العتاب على لسانه، وشيء

آخر أرق صمته، أراد أن يخبره بما يعرفه. حاول الفكاك من الشرود الذي يحيط به قائلاً لرفاقه:

- هذا تحوتي بن عحا، صديق عمري، أخي من منف، كان حارس الملك الشخصي.

ولم يكد تعارفهم يتم حتى رأوا الكاهن باواح يقدم مع بعض أتباعه، انتفضوا قياماً والرجل ينظر إلى تحوتي بطرفه بينما يقول لهم:

- هل انتهيت من جمع أغراضكم؟! قال باثاي:

- نعم، كنا ننتظر قداستك.

خطا عظيم الشأن بينهم وقال بنبرته المشحودة:

- انتهى العمال من إدخال الناووس الحجري، وغطيت الجدران بالجص والملاط. هل تنتظر شيئاً أيها الفارس؟

الجملة الأخيرة وجهها إلى تحوتي، الذي انتفض حرجاً وهز رأسه مبتسماً ورحل يدفع قدميه، أراد الاعتذار إلى صديقه ولم يسعه الكاهن الغليظ، وشعر حور بالضيق للمعاملة التي تلقاها صاحبه، تمنى لو كان اللقاء في غير وقت وموضع، أراد أن ييوح لحارس الملك التائه أنه سيرسم الفقيده في أبهى صورته، أراد إخباره بالتوصيات عن رسم الملك القادم وهيئته، لعل هذا يساعده في بحثه أو طمأنته. ولكنه لم يستطع فعل شيء تجاه تحوتي الحائر.

* * *

أمام تمثال كبير ملون للملك، وقف باسر وتحوتي متقابلين

صامتين، وعند طرف القاعة أحد كهنة إنبو بقناع ابن آوى، يؤرجح
مبخرته ويدندن بترنيمة عذبة، وباسر أول من بدأ الحديث:
- ابتهجتُ حين أخبروني بأنك هنا، ظننت أنك ستبقى بجوار
الملكة.

- هي من أرسلتني لمتابعة تجهيزات خروج الملك إلى النهار.
- وكيف حالها؟

- مكلومة. لا ينضب دمع عينيها.

- الأيام تُنسي وتُداوي، ويبقى قدر من ألم في صدور المخلصين،
إن تذكروا... سمعت أنك تبحث عن بعض رجالي؟!

- أردت الحصول على عربة للتنقل، هذا كل ما في الأمر، ووفق
علمي أنهم المسؤولون عن العجلات والخيول هنا.

- سأمرهم بتجهيز واحدة لك. هل هذا كل شيء؟

- لو أردت شيئاً سأخبرك، ربما أذهب في الصباح لأرى أين
وصل العمل بالمقبرة.

أوماً باسر برأسه، وسأله من دون أن ينظر إليه:

- هل هناك جديد في طيبة؟

- اختفى رعمسيس وجنده، والشائعات تسري حول الملك
القادم، وهناك مَنْ يتربص بالملكة ويقذفها بالأكاذيب.

غمغم باسر بحق:

- إنهم كذبة. يحاولون تشويهها كما فعلوا مع أمها وأقربائها من
قبل، أخشى أن تخرج الأمور عن السيطرة، اليوم نشب عراك
بين الحرس والمدجاي، لولا تدخل لي لصارت مجزرة. نمر

بوقت عصيب، وعلينا أن نلتمس الأعذار لبعضنا بعضًا. كلنا مشوشون والقلق يسكن نفوسنا، لنشيع الملك وبعدها نرى إلى أين ستذهب بنا سفن الأيام.

وافقه تحوتي الرأي، لا يهتم باسر إلا بواجبه تجاه ملكه والبلاد، ودّ لو أخبره بما اكتشف، ولكنه أثر حفظ السر بقلبه، من الحكمة عدم سؤال باسر عن رجاله مرة أخرى، سيجدهم أينما كانوا ولهذا جاء إلى البر الغربي، يثق باسر ولكنه عاهد الملكة على العمل سرًا. افترقا وعاد المعبد خاويًا إلا من أربعة من الحرس أمام غرفة المقتنيات الملكية، وكاهن أنوبيس الجوال الذي مشى على مهل يطوح بمخرته يمينًا ويسارًا، ناشرًا دخان بخور اللبان والمُر والجاو، يُرتل التعاويذ في طقس يومي اعتاده الحرس، الذين فتحوا له مصراعِي الباب المصفح برقائِق الذهب المنقوش. هواء بارد جعله يقشعر، خطأ إلى الداخل رافعًا المبخرة أمامه، يعلم أنه في حضرة الموت، وأمامه كانت تنتصب خيمة التحنيط، تقدم وأغلق الباب خلفه، توقف برهة، ومن ثمّ وضع ما في يده أرضًا، ورفع القناع عن وجهه.

ملكة الأرضين

«أنت يا مَنْ اعتديت وقتلت مَنْ هو أعظم منك
 قلبك لن يسد رمق سخمت المتعطشة لدمائك
 ويلدغ روحك الصل المقدس يزين جبهة ملكة التاجين
 ذات الدم النقي التي تحيا من أجل آمون رع
 نسل الآلهة التي يتجسد بها كمال ماعت وفتنة حتحور».

يوم غائم رطب، وعينا مايا الغائرتان تريان طيفه في أرجاء القصر،
 ما زالت روحها عصية التقبل لما حدث وصار واقعًا، هو الرضيع
 الضعيف الذي انتظر أهله مجيئه، والطفل العاجز عن اللعب والركض
 كمن حوله، يتيم نُصب ملكًا في الثامنة من عمره، رحل فجأة وتحطم
 قلبها، تمت لو ماتت قبله، ليتها منعتة عن رحلة الصيد المشؤومة،
 يحزنها ما آلت إليه مضارب الدنيا، حملت على عاتقها هموم أسرة
 نال منها نون بعتمته. تضرعت إلى الآلهة وتعلم أن الموتى لا يعودون،
 تذرف الدمع وتأمل أن يكون القادم خيرًا لملكة تحيط بها الأكاذيب،
 وألسنة الناس لا تسكن.

آثرت عنخ إسن آمون الصمت والعزلة، شاحبة من بعد نضرة، باهتة نحيلة لا تكف عن شرب نبيذ الكرم، تقيم المراسم وتستقبل الوفود المُعزية من دون أن تنطق كلمة، وما تلبث أن تعود إلى ردهتها، لا يزور غرفتها إلا الخادمة نبت منذ غياب تحوتي، لا أحد يعلم بما كلفته وما الذي يقصه عليها كلما جاء. حاولت مايا أن تستميل الخادمة لتعرف منها ما يخفيه حارس الملكة، وفشلت كل مساعيها للتلصص والتنصت عليهما، وتبدلت الأمور يوم عاد القائد أي من البر الغربي.

دبت الحياة في أروقة القصر، واستقبل موكب العجلات الحربية بعظمة تليق بهيبة ومقام القادم، نُفخت الأبواق وخفقت الرايات، تراص أتباع آمون حول فارسهم المبجل، وبدا الأمر كأنه مُرتَّب، غير أن الملكة ووصيفاتها تفاجأن بالأمر. خرجت عنخ إسن آمون مهرولة لترى ما يحدث، ورفع أي عينيه إليها وهو يرتقي الدرج إلى مدخل القصر المنيف، عبر عتبه ليسير بين صفين من تماثيل الملوك، يعرف أسماءهم وألقابهم ومآثرهم، رآهم الناس آلهة، ورآهم هو بشرًا يخطئون ويصيبون. أكثر من أربعين عامًا قضاها متنقلًا بين قصور العائلة، خدم أربعة ملوك، امثل لأوامرهم وانصاع لنزواتهم، أحسن مدحهم والتقرب تملقًا، فرضا الملوك من رضا الآلهة، حكمة عاش بها بينهم، رأى فيهم الصالح والطالح، وعلمه الزمن أن يتماهى مع رغباتهم، واضطر إلى أن يكون أشد المناصرين لآتون وكاهنه الأعظم، قبل أن يرشده آمون إلى النور مرة أخرى. منحته فرقة فرسانه المدربين سطوة ونفوذًا لدى العائلة الحاكمة، حتى جاء اليوم الذي

أصبح فيه وصيًا على العرش، لم يحدث كل هذا مصادفة بل بعمله واجتهاده، يرى في نفسه خير نصير للبلاد ووحدرة الأرضين، ضحى بالكثير، وخاض معارك مع أعداء مزق سيرتهم النسيان. آمون وحده من ساعده ومنحه الحقيقة والقوة، وما فعله ويفعله هو لأجل الآلهة ووفق مشيئتهم ورضاهم. دلف إلى البهو الرئيسي يُلملم شتات أفكاره، نفص ذكريات لا يحبها عن رأسه، وهو يتطلع إلى الملكة القادمة نحوه ترافقها مايا.

خطا نحوهما خافضًا رأسه، وعيناه لا تفارقان وجهها، شاحبة من دون زينة، تعصب رأسها بشريط أبيض، الحزن يغشاها وامتنص الحداد روحها. انقبض قلبه وارتاع لهيئتها، وخفض رأسه أكثر:

- مليكتي، ابنة آمون.

- آي، نسينا وجودك في حياتنا، عدت من البر الغربي منذ يومين، واليوم تذكرت أن لك ملكة، عليك القدوم إليها وإخبارها بمستجدات الأمور!

- أعتذر عن تأخري، أيتها الزوجة الملكية العظيمة، كنت بحاجة إلى خلوة بقدس أقدس آمون.

تجاوزته إلى كرسيها:

- أما سمعت بما يُشاع في المدينة؟!

- لا آبه بما يقولون، من يتحدثون وراءنا لا يستحقون أن نضيع لحظات من حياتنا لنفكر فيهم، دعيهم يقولوا ما يشاءون ولنفعل ما نريد. هكذا هم الناس ينفضون من حديث إلى آخر، يُعبرون ويتحدثون ويدلون بأرائهم في كل شيء، سواء أكانوا يفقهون

فيه أم لا، يتدخلون في السياسة والحكم والكهانة، ولو وُكل لأحدهم الأمر لما عرف ظهره من وجهه.

- تتحدث عن العامة كأنك منهم.

- نعم أنا منهم، وأعرف قدر نفسي، لذا أقول وأعيد، أنتِ من بيت ملكي، نسل الآلهة، نقية الدم لا يجب أن تشغلك الشائعات، دعيهم يثرثروا فهذا أقصى ما يفعلونه. آمون اجتباكِ لمهمة عظيمة.

- يقولون إنني خائنة وعاهرة ومتواطئة مع العدو، إنهم يكرهوننا، منذ أيام كسر متعصبون ما تبقى من تماثيل والدي في معبد آتون قرب الكرنك. الأمور تنفرط، والمدعو حنت تانب قائد الشرطة، كلما سألته يقول إنه يسيطر على المدينة، أما رعمسيس فرحل إلى منف وأخذ جنده معه. كل شيء يتداعى، الحرس لا يكفون عن فض الشجارات في أرجاء طيبة، وأنت ذهبت إلى البر الغربي ولا يشغلك ما يحدث...

قاطع عصبيتها، بلين ورجاء:

- أعرف ما يُقال يا بُنتي، جئت لأجلك عنخ إسن آمون، أعتذر عن غيابي غير المتعمد وإهمالي غير المقصود، لم يكن عليّ تركك وحدك، ولكني هنا الآن.

أدارت وجهها عنه:

- تحوتي ومايا كانا خير عون لي، ولكن العبء ثقیل ولا أعرف ما عليّ فعله حقاً، لم تكن هناك ملكة من قبلي.

- مَنْ قال هذا؟! هناك ملكات وزوجات ملكيات عظيمات.

- أين ذكراهن؟ طُمت سيرتهن عمداً ومُحيت أسماؤهن كُرْهاً.
كم أحسد خالتي موت نجمت على صفاء بالها وانقطاعها
للعبادة.

علم آي ما ترمي إليه، إنها بعمر حفيدته إن كان رُزق ذرية، تركها
تتحدث وتفضي بما تريد، يدرك معاناتها وما ألمَّ بها، كلماتها حادة
وخزت روحه، رآها كطفلة كبرت قبل أوانها، وليتها قوية كأُمها، ربيبته
التي اضطر إلى محاربتها، لا يدري لِمَ جالت بخاطره الآن، وانسلت
منه دمة رأتها الملكة فصمتت. عقدت مايا حاجبيها، سمعت كثيراً
عن نزواته، وألسنة النساء جياذ لا لجام لها، قلن عنه شهواني وانتهازي
متملق، حصل على ترقياته ومنصبه بفعل زوجته التي كانت مرضعة
ملكية مثلها، هل يبكي الرجل حقاً، وهل تلك دموع حقيقية؟! تجزم
بأنها تعرف الرجال من النظر إلى أعينهم، وهذا خاوي المقلتين بارد
القلب. عادت من شرودها لتجد ملكتها تقول:

- أريد الذهاب إلى البر الغربي، أريد رؤية توت قبل تكفينه،
وكذلك سأحمل ابنتي لتُدفنا إلى جوار والدهما.
رد بنبرته الرخيمة:

- أمر ملكة الأرضين واجب التنفيذ، سرحل إلى المدينة الجنائزية
فور انتهاء مدة التحنيط، عليّ البقاء هنا لضبط الأوضاع ومحاسبة
المقصرين.

امتننت لاستجابته ولطفه وتحشرج صوته:

- وقع الأيام هنا ثقیل، يا آي.
- ستمر، وأعدك ستكونين الملكة.

- لا أريد كل هذا، ما أريده حقًا هو ثأر أخي الذي قُتل غيلة.
وقعت كلماتها كحجر ثقيل على قلوبهما، جحظت عينا مايا، وهز
آي رأسه قائلاً:

- ماذا تقصدين؟

بتردد قالت:

- مات توت عمداً، قتله أحدهم.

- مَنْ قال هذا؟

- تحوتي.

ذكرت الاسم، وشرد آي برهة قبل أن ينطق:

- أين هو؟

- أرسلته إلى البر الغربي ليحقق في الأمر...

قاطعها بحدة:

- لماذا لم تخبريني؟

تبدلت نبرتها لتزداد قوة:

- ها أنت ذا تعرف الآن، هناك مَنْ عبث بالعجلة الملكية، ودبر

الأمر ليكون مجرد حادث مأساوي عارض.

اقترب منها وهو ينقلُّ بصره بينها وبين مايا الداهلة من وقع ما

سمعت قائلاً:

- إن كان ما تقولينه صحيحًا، فإننا محاطون بشبكة من الخونة،

وعلىنا توخي الحذر والحيلة، سأدعم حراسة القصر بفرساني،

حتى أنهي بعض الأمور قبل الذهاب إلى البر الغربي.

انحنى وقبَّل الأرض بيديه أسفل قدميها، واستدار مستأذناً. تابعت

عنخ إسن آمون رحيله عن القاعة، قبل أن تنهض وتمضي إلى رواقها، تتبعها مايا من دون أن تنطق، حاولت المربية الملكية أن تسبر أغوار سيدتها، وتخبرها بالأطمئن لهذا الرجل آي، الذي يدعي أنه يملك زمام الأمور. ومن ذلك الذي تجرأ وقتل صغيرها، كم أنت مسكين يا توت ليكون هذا مصيرك، أي ملعون دبر موتك يا ملكي؟! تدرك أن الخوف يغذي الفوضى، وما هرع ذلك المدعو «رعمسيس» إلى منف إلا خوفًا مما قد يحدث، وتساءلت: «أين قائد الجيوش حور محب من كل هذا؟ ألم يعلم أن ملكه مات؟!».



هل النساء لا يصلحن للحكم حقًا؟! يقولون إن الآلهة عهدت إلى الرجال بالملك والقوة، ومنحت النسوة الجمال والدلال، ودهاء ونزرا يسيرًا من الحكمة، وقلة منهن حظين بالسلطة والعرش، منهن الوصية حتى كبر وريثها، ومنهن من انتزعت العرش عنوة، وأكثرهن حظًا حكمت لسنوات بفعل سلطتها ونفوذها على الكهنة، ارتدين اللحي المستعارة ومثلن كالرجال، وجميعهن يشتركن في نفس المصير، الطمس والنسيان، أسقطن عمدًا من قوائم الملوك، ولا يُذكر من سيرتهن إلا شذرات. ويُشاع أن النسوة وقت المصائب تختلج العواطف بداخلهن، وتتملكهن المشاعر فلا يُحسن التدبير، وهناك أمور لا يصلح فيها التردد والتفكير مرتين، ولا يعلم القادم إلا الآلهة، التي تمنح بعض الرجال قدرًا من التريث والحكمة. إن المرأة صانعة الملوك والشجعان، ولكنها لا يجب أن تحكم، هذا ما خلص إليه كهنة الآلهة، الذين عقدوا جلسات سرية بالكرنك يترأسهم آي، ينصت

من دون أن ينطق، يُثني بإيماءات تارة ويتجههم مشيحًا وجهه حين لا يعجبه شيء. أطلق ألسنة أتباعه من كهنة آمون، والذين يسهل رؤية أنهم ليسوا على قلب رجل واحد، آراءهم شتى وعنادهم جلي، هل يخشون سقوط الآلهة والبلاد حقًا؟! أم ينحازون إلى مصالحتهم مثله كما يفعل دومًا، تبادلوا مخاوفهم وتخيلاتهم حتى سمع أحدهم يقول: - أخشى أن ما يُشاع حول الملكة الأرملة حقيقي، وأنها أرسلت تطلب عدوًا ليجلس على عرش الآلهة، علينا إنهاء أمرها قبل أن تصبح مثل والديها.

ضرب آي الطاولة بقبضته ناهضًا، أخرس الكاهن مذعورًا، واستقرت الأبصار على قائد الفرسان، الذي كسر الصمت برخامة صوته المشحوذ:

- قضيت أكثر من ثلثي عمري في خدمة هذه العائلة، جد عظيم وأب مارق وعم ساذج، وحفيد نقي كنت أنا مرشده الروحي، لم أتهرب يومًا من مسؤولية كُلفت بها، وحملت على عاتقي إصلاح البلاد وإبقاء سلالة الملوك نقية بعيدة عن اللوث، لن أسمح أن يمسكم نون بظلمته وتضلوا. إن من الكلام سُمًا، وسأحرص على قطع رؤوس الأفاعي، كفوا ألسنتكم عن الأخبار الزائفة والشائعات... وإني خلوت واعتكفت بقدس أقداس آمون حتى منحني جوابًا شافيًا. إن نسل ملكتنا مبارك حتى لو لم يكن زوجها يحمل دمًا نقيًا مثلها، ولقد سبق لكهنة آمون أن دعموا ملكة اغتصبت عرش ابن أخيها، لم لا تدعمون حق الوراثة الآن؟ أيها السادة لدينا وريثة شرعية نقية الدماء،

وبدلاً من انشغالكم بأمر الملك الجديد والنيل من المسكينة،
حاربوا الكلام بالكلام بتجيش الناس لصالحنا، بثوا الطمأنينة
في قلوبهم وأزيلوا مخاوف نفوسهم، أخبروهم بأن ملكتهم
المقدسة اختيرت من الآلهة، وأنها بحاجة إلى عونهم ليسود
العدل وتنعم البلاد بالرخاء. افتحوا خزائن المعبد وامنحوا
الفقراء العطايا، احشدوهم في الساحات ولينادوا في ربوع
المقاطعات باسم ابنة الإله ملكة الأرضين عنخ إسن آمون.
ما إن فرغ من خطابه الحماسي، فاجأه سؤال نب وع كاهن معبد
الإلهة موت:

- ماذا عن حور محب؟! ألا تجب مشورته فيما نفعل؟!!

نظر إلى وجه السائل قبل أن ينطق بنبرة هادئة:

- أنا من أعدت آمون إلى عرش الآلهة والبشر على هذه الأرض،
وليس حور محب الذي نصبته أنا ليقود جيوش المملكة...
قاطع نب وع:

- وماذا عن جيشك الخاص يا قائد فرسان آمون؟!!

توطن الصمت بالقاعة برهة، وعينا آي لا تفارقان الرجل الذي
ابتلع ريقه قبل أن ينطق مستطردًا:

- لا أدري كيف ومتى أصبح لك مقام هنا بين كهنة ثالوث طيبة
الأقدس، وأنت أحد المرتدين عن آتون. تقف هنا لتدافع عن
تلك المهرطقة كأبيها، مستقويًا بفرسانك المرتزقة، وتخبرنا
ببرائتها، ويعلم الجميع أنها خائنة للآلهة والبلاد والعرش الذي
تحميه أنت.

راجت الهمهمات بين الحضور، وتوقف الرجل وآي يتوجه نحوه بخطوات متباطئة، وما إن استقام قبالة نب وع حدثه بهدوء:

- أوليست سيدتك وكاهنتك الصامته موت نجمت مرتدة كذلك؟! هل عليّ أن أحدثك بنفس منطقك؟! ولكنني لن أفعل، جميعنا نخطئ، ولدى كل منا سر دفين، يثير اشمئزازنا من أنفسنا حين نخلو بها، نحن بشر نذنب ونرتكب الآثام، تلك حقيقتنا التي خلقتنا عليها الآلهة، وكم من كاهن مطهرّ البدن نجس الروح، وإن روحي خالصة مُخلصة لآمون من بعدتيه وتوبة، وكما قلت أنت، أنا هنا لأحمي عرش الآلهة ونسلها، بأمرها وتيسيرها لأقدارنا المحتومة، ورجالي المخلصين.

رفع يده فدخل إلى المجلس ستة من المقاتلين الأشداء، أحاطوا بالكاهن نب وع، الذي حاول الفكاك كجربوع مذعور، أخذ يصيح متملصًا، أراد أن يخمش وجه آي الباهت ذي النظرة الباردة، وما إن خرجوا التفت إلى الجمع الدهش:

- كلفتنا الآلهة بحفظ عقيدتها وفرض سطوتها الحقيقية، وما حماية النسل المقدس إلا إحدى المهام الكثيرة على عاتقنا، أعينوني وأعدكم باقتلاع جذور الفتنة والشرور من طيبة والبلاد، وأن يحظى الكهنة المقربون بمزيد من النفوذ والعطايا، فقط أطيعوني ولا يفكر أحدكم في خذلاني.

كانت آخر ما ألقى قبل مغادرة الكرنك رفقة فرسانه. تجول موكب العربات على مهل بطرقات طيبة، رابطًا الكاهن الأكبر للإلهة موت، يجره وراء عربته كبهيمة لا تجد إلا الركض سبيلاً، يلوح له العامة

وتلاحقه الأنظار وأشباح الماضي، ارتداده وهروبه من آخت آتون ومساندته لسنخ كارع، وثورتها على آتون ومحاولتهما لإعادة ما كان للآلهة. تحمل الكثير في سبيل هذه البلاد وما يطمح، دفع بحور محب جاعلاً منه قائداً للجيش ومديرًا للشؤون الملك، وبقي هو في ظلال القصر والمعبد، لم يخبر الكهنة بشكوك الملكة ولا تحقيق تحوتي، ويكفي العامة من الأحاديث ما يخلقونه، ويكفيه ما يؤرقه. أمر فرسانه بتأمين طيبة وصروحها، ودفع بمزيد من المجندين إلى المواني ونقاط الحراسة، نشر عيونهم في كل مكان، وما لبثت ألسنة الكهنة والسدنة أن انفرجت بالدعاء لملكة الأرضين العظيمة. ودخل إلى خلوته بقدس الأقداس مرة أخرى، ناجي آمون وتضرع، ولما فرغ ذهب إليها طالباً لقاءها وحدها، وأوصى الخدم والحاشية بأن يعدوا الأغراض وأنفسهم للانتقال إلى البر الغربي. جعل القصر في حالة استنفار، وذهب إلى الملكة التي تعجبت من استعجاله وقبل أن تسأله، حدثها:

- كهنة آمون رع معك، يدعمون خطاك وكذلك كهنة جميع الآلهة، سنبحر إلى المدينة الجنائزية في الصباح، أعد قصر جدك العظيم لاستقبال جلالتك، ويوم يُشيع الملك ستوجين ملكة للأرضين. أمسك بكتفيها، ونظر إلى عمق عينيها مستطردًا:

- أنا إلى جوارك، دومًا.

رحل تاركًا إياها جامدة ذاهلة، لم تفهم ما الذي دفعه إلى أخذ هذه الخطوة، غموضه وعجلته لم ينفيا إعجابها بمواقفه وتدابيره، الرجل بمنزلة جدها التي تمت أن يكون، وتعلم بأمر نزواته مع خادמות

ووصيفات القصر، منذ وعت على الدنيا وهي تراه حولها دومًا، راقياً
دمث الخلق وخصوصًا مع النساء، صادقًا وسيبقى إلى جوارها كما
قال. ألقت ما كانت تفكر فيه وراءها، ونادت في طلب مايا ونبت،
وبينما يُجهز ركبها إلى البر الغربي، كانت عنخ إسن آمون تُخرج
تابوتَي طفلتيها من ظلمة سرداب القصر، تلقفتها الخادمتان برفق
وأسى. فاضت المقل وجرى الدمع فيضانًا، وهي تتمتم: «ستذهبان
مع والدكما، سيحملكما معه في مركب الشمس إلى بيت الأبدية،
هناك مع جدكما وجدتكما وجميع الأسلاف، لن تكونا وحيدتين
بعد الآن يا صغيرتي، ستنعمان بالخلود كنجمتين إلى جوار ضيائه».

الخروج إلى النهار

«لتحيا أيها الملك توت
لتحيا باسمك الذي بين الآلهة
الأكف تصفق لك، والأقدام تدب الأرض لك
وأنت تُخلق عاليًا مثل نجم الصباح».

ليلة ندية لطَّفها عبير نسيم بارد، تمدد كما سرقت على سطح
معبد حتحور، مستقبلاً السماء تاركاً عينيه تبحران في سديم يُغبر
بألوانه زرقة السماء الداكنة، وشهاب يمر عرضاً بنعومة من دون
عائق، لم يتمنَّ أمنية كما يفعل الناس، ولم يسأله إلى أين مسيره،
ربما هو نجم انطفأ ومات كما كل شيء في هذا الكون، إلى مصير
محتوم، الموت. لا يعلم إن كان يفر منه أم يطارده، ويظن أنه أعلم
الناس به، رأى كثيراً من الموتى في حياته التي عاشها كما يحب
وكيفما أراد، وها هو ذا مستلقٍ على سطح جرانيتي بارد، ينظر إلى
الدنيا من أعلى، تحته تمتد مدينة العمال، ومن حولها تسود ظلال
المعابد إلى ضفاف النهر المعتمدة، وتغط طيبة على الضفة المقابلة

في ظلمة الليل، ومنزل نخ تي يظهر جليًا، لم يلتقها منذ أيام، إنها نقية القلب ولا يريد أن يتعلق بها أو تفعل هي، اكتفى برؤيتها من بعيد ومراقبتها. تقدس الموت وتتقن عملها بشغف وإيمان قوي، يهواها ويخشى أن يميل بحبه إليها، لقد جاء إلى هنا لغاية، ويقلقه ما يحدث في البر الغربي، عليه أن يبقى في الظلال ولا ينغمس في أهواء قلبه الذي يحن إليها. راقب الأحوال من كذب، وتماهى بين الناس، يستطيع الشعور بالتوتر في الأنحاء منذ قدوم الملكة رفقة القائد آي، وجاء معهما مزيد من الحرس الملكي وفرسان آمون. نُصبت خيامهم بالقرب من المعبد، وانتشروا في الأرجاء بملابسهم المذهبة ودروعهم الصغيرة البرونزية، متفاخرين بعرباتهم الحربية وخيولهم الآسيوية المسومة، أقاموا المتاريس والحواجز على الطرق، وجابت دورياتهم أرجاء المدينة الجنائزية، ونزل إلى البر الغربي جموع من كهنة آمون. وفي زحام الأجساد والعربات والأنعام، انصهر كاسرقت وتوارى عن الأنظار، وهو يرى وجوهاً مألوفة أو هكذا حسب.

* * *

ضجر المدجاي، ضاقت نفوسهم من الحرس الملكي وتكبرهم، والآلهة لا ترضى بهذا، رفعوا شكواهم إلى قائدهم نب خنوم، محارب مخضرم قديم، نوبي غليظ الملامح، يكاد رجاله يؤلهونه احترامًا وتبجيلًا، متعبد زاهد، قليل الظهور ولا يذهب إلى طيبة إلا في أعياد الآلهة، كالضواري اتخذ بيتًا بجوف جبال وادي الملوك، معترلاً الناس والسياسة والحرب. كان أول من تمرد على آتون ورفضه، واختار منفاه

بإرادته. مقاتل عتيد لم يجد لذة في حياة القصور ودهاليز مؤامراتها،
ووهب حياته وفرسانه لحماية بوابة العالم الآخر. اعتمر غطاء رأسه
الأسود وشد حزام غمده الفضي، ووضع أساور معصميه المنقوشة
بصورة الكباش المقدس خنوم، وارتدى صديرية برونزية حُفرت على
حراشفها ألقاب فخره، وخرج في ركب من رجاله قاصدًا القصر
الملكي قرب هابو. استُقبل ورجاله بريية، وعلى الرغم من ذلك
أُفسح لهم الطريق ليدخلوا إلى الفناء. وعلى البوابة الكبرى للبهو،
وبين تمثالين عظيمين للملك أمنتب الثالث، وجد آي يقف في
انتظاره، بدا ضئيلاً أمام ضخامة الصرح وتمائيل وصور صاحبه،
يذكره قديمًا حين كان أكثر شبابًا، ما زال كما هو على الرغم من
تقدُّم العمر، متورد الوجنتين ولا عجب في ذلك، وهو الذي عُرف
عنه حبه لمسامرة النسوة ومجالستهن، يحافظ على هيئته وابتسامته
الودود السمجة، وكلمات ترحيبه الباهتة ونبرته الجافة:

- ساعة مباركة، أيها القائد نب خنوم.

رد نب خنوم بصوته الأجلجس الثخين:

- باركك آمون أيها القائد آي. يبدو أنك أحبت المقام في البر
الغربي.

- هو مقام أجسادنا في النهاية، وراق لك قبلي، هل أستطيع
خدمتك في شيء؟

- جئت لمقابلة الملكة.

جملته المقتضبة لم ترق لآي، كظم غيظه وقال بلطف شديد:
- لك الحق بكل تأكيد، نسيت أن أخبرك بأن كهنة آمون اجتمعوا

منذ أيام وتشاوروا في أمر تخفيض حصص المدجاي من
الأقوات والعتاد، تعلم أننا نمر بأيام عصيبة ورأينا أن نقلل
النفقات قدر الإمكان، وربما تسريح بعض الموظفين والجند!
تطلع إليه المسن واسع العينين ببرود:

- قل لي يا قائد فرسان آمون، أم تحب أن أناديك بوالد الملك؟!
أم الكاهن؟! على كل حال اسمع، المدجاي ليسوا بحاجة إلى
أحد، إننا نؤدي واجبًا مقدسًا منذ زمن سيد القوة أحمس، وما
اعتزلنا حياتكم الفانية إلا لحماية بوابات الصعود إلى السماء،
وما جئت إلى هنا إلا لتعزية ملكتنا العظيمة، وأرفع إليها بعض
ما يؤرقنا، في النهاية نحن نخدم الآلهة والملك والبلاد، تذكر
هذا. وإن كنت بحاجة إلى تقليل النفقات، فعليك النظر إلى
فرسانك ودروعهم وعرباتهم المذهبة.

لم يجد أي كلمات بحلقه الجاف، مضى وترك الرجل عند باب
القاعة، لا يحبه وتحاشى مقابلته طوال المدة التي بقي فيها هنا. من
يظن نفسه ذلك الجرذ الأشيب، ليس سوى حارس جبانات يظن
نفسه حاكمًا للغرب. ظل أي حانقًا، وأجبر نفسه على الابتسام في
وجه الضيف حين لاقاه مرة أخرى في بهو الملك.

دخل المدجاي المعتد بنفسه إلى القاعة الأجمل في قصور
الدنيا، بُنيت على عينيهِ وفي حضوره، يكاد يرى العمال والرسامين،
والسقالات الخشبية والأرضيات المتربة، التماثيل المصقولة ومراحل
صبغها وتلوينها، أعيد في عينيهِ بناء الصرح الأعظم الذي حُكم العالم
منه، وبلغت المملكة ذروة مجدها. المكان تبدل وكذلك أصحابه،

وعلى كرسي أمحتب الثالث جلست حفيدته عنخ إسن آمون، وإلى يمينها وأسفل مصطبة العرش وقف آي، وعلى مقربة منهما وفي زاوية القاعة يقف حارس ملكي يعرفه جيدًا. دنانب خنوم وانحنى ليحيي ملكته، واعتدل ناظرًا إلى وجهها وتفاصيله، ضئيلة الجسد حزينة المحيا، شابة صغيرة لها ملامح أسلافها، وبدت قريبة الشبه من جدتها لأبيها العظيمة تي، وإن ورثت طول العنق عن أمها الجميلة الثائرة. مرت بخاطره ومضات من ذكرى بعيدة، فأشفق عليها ووجد لسانه يحدثها:

- مليكتي، سيدة الأرضين سليلة الآلهة والملوك المقدسين، سنوات طويلة قضيتها في عزلة، لم أ تدخل في صراع مُلك أو انقلاب حكم، ولم أبدل ديني وما أؤمن به في سبيل نعم و حياة رغيدة، رحلت عن هذا القصر وما زالت أمك حاملًا بك. صحيح أنني تمردت على أبيك وذاك شأن آخر، ولكنني أدنت بالولاء لأخيك الفقيد حور الذهبي توت عنخ آمون، وما عهدت منه إلا الصلاح والخير. كنت قادمًا لأرفع شكوى رجالي إليك، ولكن شيئًا ما بداخلي أيقظ قسمًا غليظًا، عهدًا اتخذته في حضرة جدك العظيم أمحتب الثالث وزوجته الملكة تي، أعلم أنك وحيدة تمامًا يا حفيدة الأكرمين.

سحب سيفه بغتة، انتفض آي، وفُجعت هي، وكاد الحارس يركض نحوه، لولا أن جثا الرجل على ركبتيه، باسطًا السيف أمام ملكته متابعًا حديثه:

- سيوفنا باركها آمون، وسبق أن شهدت الآلهة على ملاحمتنا،

وهأنذا أقسم لك كما أقسمت لأخيك وجدك، على نصل رُوي
بدماء الأقواس التسعة، إنني المحارب نب خنوم وكل فيلق
المدجاي، في خدمة ملكة مصر العليا والسفلى عنخ إسن آمون،
ندين لك بالحياة والموت، ولتشهد الآلهة على ذلك.

وسحب النصل على كفه اليسرى، أراق دمائه تقريبًا وتأكيّدًا على
القسم المقدس، وابتهج قلب الأرملة. لطالما سمعت عن المدجاي
وبطولاتهم، من الجيد أن يكونوا إلى جوارها، كتحتوتي الواقف عند
قدميها، الذي يعرف الرجل جيدًا ويدرك أن قسمه حق، أما أي فكان
له رأي آخر لم يستطع البوح به. أنهى المحارب القديم قسمه، وقالت
الملكة برضا:

- أشكرك، أيها القائد نب خنوم على صدقك ونُبلك، أقدر
المدجاي ومساندتهم لي، هم العون دومًا، وهذه حالهم مع
عائلتنا. أعلم مدى ارتباطك بأسرتي على الرغم مما نالك منها
في وقت ما، وأثق بأنكم ستقومون بواجبكم كما فعلتم دومًا،
وكذلك فرسان آمون وقائدهم أيضًا، يبذلون كثيرًا من الجهد،
وهذا منزل شكر أيضًا للكاهن القائد أي، من الرائع أن أكون
محاطة برجال مخلصين مثلكما.

امتلاً نب خنوم بخيبة الأمل، شعر بمهانة جراء كلمات الفتاة،
وانتفخت أوداج أي الذي قال فور سكوت ملكته:

- من الجيد حضورك أيها القائد، كنا سنرسل في طلبك على
كل حال، هناك أخبار عن تمرد بعض الجند وحكام بعض
المقاطعات القريبة، وسمعت أن أتباع آتون يرتبون لثورة، علينا

الإسراع بتجهيز جنازة الملك، أرى أن نقوم بطقس فتح الفم للملك في مطلع الأسبوع المقبل.

عقدت عنخ إسن آمون حاجبيها، بينما قال المدجاي الأشيب:

- لم يمضِ الملك سبعين يومًا في التحنيط بعد!

رد آي باستعجال:

- الوقت يدهمنا، والبلاد بحاجة إلى تكاتفنا وتخطي الصعاب،

ولا نريد الفرقة والسقوط في هوة الفوضى، ومن حسن طالعنا

أنك جئت لنعلمك بالأمر ونشاركك به، على المدجاي التأهب

وبذل قصارى جهودهم لتأمين البر الغربي، وسأجمع فرسان

آمون والحرس الملكي إلى محيط هابو والمعبد الجنائزي،

حيث سيخرج موكب الملك إلى النهار.

تفاجأت الملكة بخططه، وبدا حديثه مرتبًا، تثق به بعد أن استمع

في وقت سابق إلى شكوك حارسها الشخصي، ويسر له استجواب

رجلين من الثلاثة الذين يبحث عنهم. قدم قائد فرسان آمون أروع

الأمثلة في الوفاء تجاه ملكته ومراسيمها، ولم يجد المدجاي الهرم

إلا أن يجاريه. غادر المكان بغير الوجه الذي جاء به، عبر ممرات

القصر يجر قدميه، ويسأل نفسه عن مصير حور محب أين هو من

كل هذا؟! كهنة آمون صاروا يفرضون سيطرتهم على كل شيء! أخذ

يفكر ويستشرف القادم في طريقه إلى عربته الحربية، وقرب البوابة

جاءه صوت من خلفه يستوقفه، التفت برأسه وقبض على قيعة سيفه،

ومُحدثه يتابع:

- أيها القائد نب خنوم، هل لي بكلمة معك؟

تفحصه عاقدًا حاجبيه الأشبيين:

- بالتأكيد أيها الفارس، هل هناك شيء؟

همس تحوتي بعد أن تلفت حوله:

- نعم، أريد مساعدتك في أمر ما.

- هل آي هو من أرسلك خلفي؟

- بل واجبي تجاه الملك والبلاد، وكما تعلم تشاركنا في مهمة

سابقة...

- بدأت تثير حفيظتي أيها الشاب، هات ما عندك، ولا تتلفظ بسِر

وإن مات صاحبه.

- من الأفضل أن نلتقي، بعيدًا عن هنا.

رمقه الكهل عاقدًا حاجبيه الأبيضين كندف الثلج، وحدثه وهو

يستدير ليكمل المسير:

- تعرف أين تجدني إذن.

* * *

شعور مؤذٍ أن تعتاد أحدهم ويختفي فجأة. لا أثر له كأن لم يكن، لم تعد تراه في الأنحاء منذ أيام، ظنت أن سوءًا ألم به، ربما هاجمه السارقون مرة أخرى، ولعله مضى إلى حال سبيله. تفتقد ثرثرته وعجائب أفكاره وقوله عن الآلهة، حاولت إقناع روحها بأنه مجرد عابر سبيل رحل حين انقضت حاجته، ويغالبها الشوق لمجالسته والتفنن بطهو الطعام له، لم يعد هناك مذاق لأي شيء، عادت حياتها إلى الرتابة والملل، يراودها القلق عليه وتلوم نفسها على ما منحته من حيزها. تذهب إلى المعبد كل نهار تؤدي طقوسها وأعمالها

وتعود إلى منزلها وقطتها، تجلس في شرفتها محتضنة إياها تستشرف قدومه، تُحدث قطتها وتسرد ما علق بقلبها من خشية أن يعود كما يومًا ولا يجدها.

نهضت من فراشها والديوك تعلن قدوم الفجر، خرجت إلى حافة التربة، ملأت جرّتي ماء وعادت إلى الدار، اغتسلت ودهنت شعرها وجسدها بمرهم عطري، وبدأت في إزالة الشعر بشفرة حادة، ابتدأت بساقها وعانتها وإبطيها، حتى رأسها حلقتة تمامًا، وفركت ثناياها بالملح، أراقت الماء البارد فوقها مرارًا، وتجففت بمنشفة من كتان خشن، ورطبت مسام بشرتها بخليط من عصارة النعناع وزيت الصنوبر، إنها كاهنة مطهّرة، وليست مجرد امرأة يتلاعب بها الهوى، لديها عمل مقدس بين يدي راعي الموتى. تكحلت وتعطرت ووضعت فوق صلعتها شعرًا مستعارًا مضفرًا طويلًا، وقبل خروجها حملت قطتها وقبلتها:

- عليّ تركك هنا بعض الوقت. لا تذهبي بعيدًا، طعامك وماؤك بالداخل.

وضعتها على عتبة الباب برقة وأغلقت خلفها، ستغيب عدة أيام عن المنزل في عملها المقدس، وعلى الدرب إلى المعبد حاولت محو أثره من مخيلتها، ولم تفلح في هذا حتى رأت محيط الصرح الذي تحول إلى ثكنة عسكرية، النهار في بدايته والجند ينتشرون بكثافة، كأن لم يمر بهم ليل قَطُّ. أول مَنْ قابلت في البهو الكبير كان معلمها ومرشدها كبير كهنة التحنيط شسمو، حياها بابتسامة وقال:

- تؤكدين قولي بقدومك باكرًا، إن النساء أكثر إخلاصًا في عملهن

منا معشر الرجال. اليوم ستقفين إلى جوارى يانخ تي بينما نكفن
ابن آمون رع، لن أجد كاهناً صافي الذهن مثلك ليكون عونى
فى الطقوس.

انشرح قلبها لقوله، وخشيت أن تخبره بخطأ ظنه، ما زال كايهمن
على أفكارها، والرجل يتابع بنبرته الماعزية:

- هذه المرة الأمر مختلف، جسد الملك الصغير محطم ولم
يأخذ وقته فى الملح، سيكون علينا مضاعفة كميات الزيوت
والحشوات والعطور.

- سيدي، هل لي بسؤال؟!

أشار إليها بالحديث ومضى، تبعته هي:

- أما كان علينا إتمام السبعين يوماً المقدسة؟!

- تلك أوامر الملكة وقائد الفرسان آي، هما من أصرا على ذلك،
ونحن نقوم بما أوكلتنا به الآلهة، هيّا عليك التجهز للطقوس.

لم ينطق الكاهن بكلمة أخرى، ذهب إلى مقصورته، ومضت إلى
رواق الكهنة، فتحت صندوق أغراضها وتأملت ما به، خلعت شعرها
المستعار، وكامل ثيابها، ارتدت ثوباً كتانياً أبيض شفافاً يُظهر ثدييها
المكورين وحلمتيها البنيتين البارزتين، وزينت عنقها بصديرية من
البرونز، وأحاطت معصمها بأساور مرصعة بصورة إنبو. لفتت على
خصرها حزاماً نحاسي اللون عريضاً مليئاً بالنقوش. جميلة بصلعتها،
وعيناها المكتحلتان كعيني حور الحاميتين. تأملت انعكاس صورتها
فى إناء الماء، ووضعت القناع على وجهها.

ردد الصدى ترانيم الكهنة المرتلين، ووسط الدخان الكثيف

أخرج جسد الملك من كومة الملح، شاحبًا أزرق الجلد، حُمِلَ على محفة، مغطى بالكتان إلى غرفة التحنيط، وضعوه على سرير البقرة السماوية، وجاءت الملكة لتلقي نظرة أخيرة على زوجها. قبّلت رأسه وقدمت له خنجره الفريد الذي ورثه عن جده، تمتعت ببعض الصلوات والتعاويد، ونخ تي تنظر إلى صمودها وقوتها، والدمع الذي يترقق في عينيها، شعرت بفقدائها وحزنها، الجزع يملك من حواسها، وعلى وقع ترتيل الأناشيد تنحت الملكة جانبًا، وقفت إلى جوار آي الذي كان يرتدي لباسًا فريدًا، جلد الفهد الصياد الذي اختص به كبار الكهنة.

وبدأ تجهيز الملك للصعود إلى السماء، طُهر بالملح وأُحرق البخور حوله، وجيء بثور أسود قوي عظيم القرنين، اقتيد عبر الممرات ينثر أمامه المرتلون الورد والنظرون. انصاعت البهيمة بكل هدوء حتى أوقفوها قرب سرير الملك، ومُنحت نخ تي السكين، تفاجأت وأخذتها من دون تردد من يد الكاهن شسمو ذي الرداء الجلدي النمري الأسود، والقناع الذهبي الذي يميزه عن بقية الكهنة، دنت من القربان ونظرت إلى سواد عينيهِ العميقتين، فبدا مستسلمًا يعلم مصيره وما جاء لأجله. أرقدوه أرضًا وربطت قوائمه بالحبال، ربت على رأسه وغمغمت: «أيها الملك خذ لنفسك الدم المراق. ويا راعي الموتى تقبل عين حور قربانًا».

وسحبت النصل على رقبة الثور الغليظة، خوار وشخير ونشيج ودماء تسيل، وبدأت التراثيم يعلو شدوها، واختلجت أنفاسها وتسارعت نبضات قلبها، ارتجفت وجففت، المرة الأولى التي

تذبح فيها قربانًا عظيمًا كهذا، وأخذ الكهنة يدهنون جسد الملك من الخارج والداخل بالدماء والزيت والراتنج بعناية، لم يتركوا جزءًا، وبدأ الجلد الأزرق في الاصفرار متخذًا لون العسل المثقل بحمرة الدم. أحرقوا مزيدًا من البخور حوله، ووضعوا أحشاءه بعد غمسها في الزيت في أوانٍ من المرمر الأبيض، أغطيتهابهيئة الملك، ورنمت نخ تي تعاويذ إيست الحامية ومساعدوها يغلقون الأواني. أنهوا عمل يومهم الأول قبل منتصف النهار، ولثلاثة أيام سيكررون الطقوس ودهن الملك بالزيت والراتنج، حتى يكفن يوم طقس فتح الفم. لم ينتهِ الصنّاع من تجهيز قناعه الجنائزي، وما زال العمل جاريًا في مقبرته، لمَ هذا التسرع إذن؟ سؤال راودها وهي تبدل بملابسها الجنائزية أخرى بسيطة، لم تعبأ بأمر الأسئلة وذهبت لتناول غداها شاردة الذهن حتى لمحت طيفه، أو هكذا ظنت.



قبيل الفجر والخلائق تغط في نوم عميق، أصاب تحوتي شيء من أرق، تقلب مسترجعًا كل ما حدث، استجوب بدهاء من أراد، ولكن أحدهم يدعى «أوسر النجار» مختفٍ. أتى الرجل إلى هنا رفقة الخدم والعمال، واختفى من بعد ذلك، ولا يعرف من أمره شيئًا. نهض متحسبًا الطريق إلى شرفته المطلة على الحديقة، المشاعل تضيء قواعد التماثيل الضخمة وتلقي بظلال كثيفة على وجوهها، وينعكس لهبها المتراقص على صفحة البركة الراكدة، تمنى لو أن لديه رفيقًا يسامره ويفضي إليه بما يثقل قلبه، ولكن حور هناك في وادي الملوك يزخرف ويزين قبر توت، وباسر منشغل مع فرسان

آمون والحرس الملكي المتأهبين لحدوث شيء ما، ويجزم القائد أي بأن هناك مؤامرة تحاك في الخفاء. ظل تائهاً في سراديب أفكاره حتى رآها تخرج من بين الأعمدة.

نبت، لم يخطئها، جاءت إلى حافة البركة، أخرجت كتفيها من ثوب انساب سقوطاً بنعومة وهي ترفع ذراعيها إلى الأعلى. بلطف ورقة سارت على أطرافها إلى درج البركة، وجسدها البض يكاد ينير ظلمة المساء، خاضت الماء البارد بروية، سبحت مستأنسة بضياء المشاعل. شيء بداخله أخبره بأن الآلهة ساقتها إليه لسبب. انتعل صندله وخرج إلى الرواق الملكي، حيا الحرس الساهرين ومضى إلى الفناء الخلفي حيث البركة، خشي أن يفزعها، بقي في ظلال أحد الأعمدة يتلصص، حتى شاهدها تخرج والمياه تقطر من جسدها. نهذاها المكوران يلمعان، متناسبان مع قوامها المتموج، انحنت وبرز ردفاها المكتنزان. التقطت ثوبها وارتدته، وتلك كانت لحظته، خرج من الظلمة فجأة، شهقت وفزعت حين رآته. وسرعان ما بُهتت وضحكت لما تبينته:

- تحوتي. أخفتني كثيراً، منذ متى وأنت هنا؟!

تلعثم وزاغ بصره:

- ما الذي أيقظك في تلك الساعة؟ وما الذي تفعلينه هنا؟

- بالكاد خلدت الملكة للنوم، كنت ذاهبة إلى مقصورة الوصيفات.

- ولكنك مبلة.

ارتسم الخجل على قسماتها الرقيقة:

- آه، نعم كنت أسبح في البركة.

نظر بعضهما إلى بعض والصمت يغلفهما قبل أن تنطق هي مرة أخرى:

- جرب السباحة في المياه الباردة، قد تفلح في تبريد جوفك المستعر بكثرة المشاغل والأفكار، صدقني أفعل هذا كلما أحسست بأن الهموم تراكمت بروحي.

- ولكن ليس لنا الحق بالنزول إلى هذا الحوض، نحن مجرد حراس وخدم وضيوف على هذا القصر.
قالت بتحدٍّ:

- بل لنا حظ، بوجودنا داخل هذه الأبهة والعظمة، الآلهة هي من أنعمت علينا واصطفتنا لخدمة نسلهم من الملوك، من يُصدق أن خادمة من بوتو سبحت في بركة مقدسة كانت يومًا للعظيم أمنيحتب الثالث؟! كسرت القواعد ولكنني راضية عن فعلي، ولن ترفضه الملكة ولن يدين أحد فعلتي، أردت الحصول على البركات فقط، هذا ما سأقوله حين يسألني أحد، لا تكن مثل هؤلاء الحمقى الذين يحيطون بنا، إنهم منافقون والجميع لديهم أسرار وأفعال يخشون كشفها، أما أنا فلا.

ضحك من حديثها، كانت المرة الأولى التي تراه هكذا، بُهتت وهي تستطرد:

- الفارس تحوتي، يضحك؟!!

- وما العجيب في هذا؟!!

- حاولت تقليد عبوس وجهه الدائم:

- أنت هكذا طوال الوقت.

- ظالمة أنتِ يا نبت.

- ماذا بك؟ هناك شيء غريب بك في هذه الليلة، هل تخفي أمرًا ما أو تود قول شيء؟!

- لقد شاهدتك وأنتِ تسبحين...

وجمت وأحست بالخجل يتسرب إلى قلبها وهو يكمل:

- لم أقصد التلصص عليك حقًا، ولكن قدمي هما من جاءتا بي إلى هنا، أردت النزول إلى البركة أيضًا لعل مزاجي يتحسن، ووجدتك تقولين نفس المعنى.

- منذ متى وأنت تقف هنا؟

- منذ البداية.

- هل أعجبك ما رأيت؟

قالتها وبريق الغواية يلمع في عينيها، فاجأته ولم يجد ما يقوله. اقتربت منه وشبت على أطراف أصابعها وقبّلته قبلة رقيقة على شفّتيه، توقف الزمن وغاب عن الدنيا، وما إن تراجعت انقض هو ليُقبّلها بنهم... واختلطت الأنفاس الدافئة.

لا يعلمان كيف انتهى بهما المطاف إلى غرفته، قضى برفقتها ما تبقى من الليل وما جاد عليهما الوقت من نهار، عاريين منهكين يحتضن بعضهما بعضًا على فراشه، تبادلا الحكايات، وأفرجت عن مخاوفها وبغضها الشديد لآتون وأتباعه، وأخرج هو مكنون صدره وما يعتريه من قلق، حدثها عن شكوكه والأدلة التي وصل إليها، فما كان منها إلا أنها أخذت تُقبّله مرة أخرى، وتضاجعا بقوة وشغف وحماسة. غفت وظل يتأملها ويتذكر ما دار بينهما قبل قليل، فاتنة وخبيرة فيما

تفعل، أحب رؤيتها والشبق يعتري قسمات وجهها. استيقظت قبيل الظهيرة، وقبلته بعد أن ارتدت ثوبها. أخبرته بأن عليها العودة إلى المقصورة الملكية، وخشيت أن تكون إحداهن اكتشفت أمر غيابها عن جناح الوصيفات. وعدته باللقاء في المساء، وأخبرها بأنه سيأتي إلى الملكة بعد أن يذهب لمقابلة أحدهم.

* * *

استُقبل بفتور في معسكر المدجاي، أخبرهم سبب قدومه، فأخذوا منه جواده وسيفه وخنجره، عاملوه بفضاظة وأوقفوه قرب أحد الحواجز، وبعد أن ملَّ الانتظار جاءوا وأخذوه للقاء كبيرهم، مشوا بدرب وعربين الهضاب الصخرية المحيطة بوادي الملوك، مسيرة شاقة انتهت بهم أمام فجوة بسفح الجبل، أمامها خيول ترعى وعجلات حربية مفككة، وعدد من عمال المدجاي يؤدون أعمالهم، وعلى مقربة من المدخل يقف قائدهم بين يدي تمثال خنوم، هدهد رأسه مبتسمًا لما رآه:

- ظننت أنك لن تأتي.

- انشغلت ببعض الأمور، أعتذر سيدي.

- لمَ تعتذر، أنت الذي تريدني على كل حال. هاتِ ما عندك؟

نقل تحوتي بصره بين طاقم الحراسة الواقف بينهم:

- هل نستطيع الحديث وحدنا؟

أشار إلى رجاله بالانصراف:

- أرجو أن يكون لديك شيء مفيد تود قوله.

- أبحث عن شخص يُدعى أوسر...

- وما شأني أنا بهذا؟ هل هو من المدجاي؟

- لا، بل قاتل الملك.

بدا العجوز غير متفاجئ بقول تحوتي الذي تابع:

- تكتمننا على الأمر، وفق تعليمات الملكة ونصائحها، وهي من خولتني بتقصي الأمر والبحث فيه، وهي من أمرتني بفتح الأمر معك، بعد أن قادني التحقيق وكل الشواهد إلى المدعو أوسر، هو من عبث وخرّب العجلة الحربية للملك...

قاطعته نب خنوم:

- مهلاً أيها الشاب، إن لي بصيرة في معرفة الناس، وأجزم بأنك صادق، وقد تعاملت معك من قبل بأمر الملك الراحل، ولكنك تبحث عن الشخص الخطأ، وهناك شيء يجب أن تراه ربما يفيدك في بحثك عن القاتل الحقيقي. اتبعني.

لم ينطق الرجل بكلمة أخرى واكتفى بالسير ومن خلفه ضيفه، مشيا حتى بلغا وادي الملوك، أفسح الجند الطريق وانتبهوا من بعد دعة وراحة، وأمام باب المقبرة شدد على رجاله بأخذ الحيطه والحذر، وألا يدخل أي شخص إلى الوادي مهما كانت مكانته، نزلا درجات السلم المحفور بالصخر إلى البوابة السفلية، ما زال العمل جارياً بالداخل. أصوات العمال والرسامين توقفت مع رؤيتهم للقادم، وداخل المكان الضيق وقعت عينا تحوتي على صاحبه حور حتب، يقف إلى جوار الناووس الحجري بوسط غرفة الدفن، ملطخاً بألوان الطلاء مبتهج الملامح. قطع المدجاي حديثهما الصامت قائلاً وهو يشير إلى أحد الحوائط:

- ملك يُشيع ملكًا.

نقل تحوتي بصره إلى حيث يشير المدجاي، وجم ونالت الدهشة منه وهو يتأمل رسوم طقس فتح الفم، الذي لم يحدث بعد. توت مكفن بهيئة أوزير، وأمامه يقف رجل يرتدي جلد فهد مقدس وفوق رأسه تاج الخبرش الأزرق، وفي الأعلى طغراء ملكية، تحمل اسم الملك الجديد، لم يدر ما عليه قوله أو فعله، تبادل الأنظار مع حور الذي لم يجد أي كلمات ينطق بها. جذبه المدجاي ليعودا أدراجهما، وشعر الرسامون الموجودون بشيء مريب يحدث، لام حور نفسه لأنه لم يخبره يوم رآه في المعبد الجنائزي، وحسب أنه يعرف بأمر الملك القادم، وخارج المقبرة وقف الرجل يتطلع إلى تحوتي محدثًا إياه بخفوت:

- هل فهمت ما يدور حولك؟! لقد أمر آي بأن يرسم ملكًا، حتى قبل طقس فتح الفم، وهؤلاء الرسامون أخذوا تعليماتهم ومشاهدتهم من الكاهن باواح، وأنت أخبرتني بأن قائد فرسان آمون ساعدك في استجواب شخصين، وما ذهبت للقاء الملكة إلا لأخبرها بما رأيت، ولكني رأيت ثقتها العمياء به، ولن تصدق كلمة واحدة تُقال فيه، لا أعلم مدى وسع المؤامرة. ولأول مرة أقف حائرًا من دون معرفة ما عليّ قوله أو فعله!

* * *

خلق عصفور شريد بين الأعمدة الضخمة، خفق بجناحيه الصغيرين ضاربًا الهواء تحت أشعة شمس ترمي بضياؤها على البهو، وبين النور والظل وقفت عنخ إسن آمون تطالع رسومًا نفذها أشهر

الرسامين، صُور جدها بين الآلهة متقبلاً القرايين من العامة. لم تكن المرة الأولى التي تزور فيها القصر المنيف، جدرانها عامرة بألوان زاهية حية لبحيرات وطيور وحيوانات، جنة حقيقية يتخللها نخيل وأشجار، وتحد أسوارها كرمة نفضت أوراقها، لا تدري كيف ترك أبوها هذا المكان؟! حدقت إلى صورة جدها وجدتها على الجدار، يجلسان قبالة شجرة الجميز المباركة من حتحور. هنا ترعرع والدها وعمها، والآن لم يتبقَّ سواها، أمر شاق عليها أن تكون الأخيرة. شردت حتى رأت خيالاً قادمًا من خلفها، التفتت لتجد المربية مايا تبتسم قائلة:

- آسفة إن أخفكتك، ولكني رأيتك تقفين هنا من دون حراك منذ فترة، هل أنت بخير؟!

- تذكرت جدتي. وكيف دعمت أبي على الرغم من معاناة الجميع له.

- إنها أم، قبل أن تكون سيدة قوية، حكمت المملكة نيابة عن زوجها الغارق في ملذاته، عهد جدك كان عظيمًا، وهو للحق كان ملكًا مهيبًا، عصر مجد وثروة، ولكن هل سنبقى ننظر إلى الخلف طويلًا؟! ما فعله والدك هو قناعته ورؤيته، التي لم يسعها صدر المخالفين له، لا تأسي على حال الراحلين فتعيشي أبد الدهر في حزن وغم، عليك النظر إلى الأمام يا بُنتي، الماضي بجلال قدره من هزائم وانتصارات يبقى ماضيًا، وما ينفعنا هو حاضرنا ومستقبلنا. أنتِ ملكة مصر الآن، وعليك أن تحكمي كملكة، انتصري لعائلتك وللآلهة كما فعل أخوك، لقد رأيت من الزمن كثيرًا، فلا تضيعي مزيدًا منه وتتركي للحزن عليك

سبيلًا. لا أحد يحبه الجميع، ولا أحد يكرهه الجميع، اجعلي فوزك مستحقًا، وخذي من الحياة ما تريدين، اختاري ما تجدين فيه راحة بالك، ودبري أمرك بنفسك وبمشورة من يحبونك بصدق، واستغلي الفرص لصالحك وبدلي ثوب الحزن كما تخلع نوت الظلام بالإشراق.

قادهما الحوار إلى جناح نومها. تبادلتا حديثًا عن معشر النساء، وكيف منحتهن الآلهة فطنة وقلبًا يستطعن بهما تدبر مضارب الحياة، يرين ما لا يراه الرجال، ويملكن إن أردن ذلك. كلمات مايا بدت كنصح أم لابنتها، أخبرتها بأن لكل اختيار ثمنًا، ولكل قلب سعة، وأن الحيلة واجبة في زمن الخبائث، تحاشت الحديث عن توت وأيامه وذكرياتهما معه، قالت بحكمة:

- الخوف يقصف الأعمار والمكر لا يقي نوائب الدهر.

هذا ما تعلمته السيدة من الملكتين الجدة والأم، واسترسلت في الحديث عن الجد أمنحتب الذي ما زال الناس يرثون مآثره، وقطع قدوم نبت حديثهما، انحنى قائلة:

- ملكتنا المبجلة، السيدة مايا. عذرًا، ولكن قائد فرسان آمون

بالخارج يريد لقاء سيدة الأرضين لأمر طارئ.

دلف الرجل وأشار إلى مايا أن تصرف الخدم، وكانت آخر من رحل عن البهو ليُغلق الباب خلفها. تقدم إلى مجلس ملكته وهو يقول:

- وجدنا الرجل الذي نبحت عنه.

- مَنْ؟

بدا الانفعال جليًا على قسماتها وهو يجيبها:

- أوسر النجار، المشتبه بقتل الملك. وُجد صريعًا في بئر قرب مدينة العمال، بعض الشهود رأوا حارسًا ملكيًا يتعارك معه في الصباح الباكر، ورجالي الآن يبحثون عن حارسك تحوتي، الذي تبخر ولا أثر له.

- لم يقتله تحوتي بالتأكيد.

- هذا ما سنعرفه حين يظهر، ولكن الأمور تتأزم من حولنا، إننا نختنق داخل فخ لا نعلم القائمين عليه، يسبقوننا بخطوات وأخشى أن يستغل أحد غيابنا عن طيبة.

- أين حور محب وقوات الجيش؟ أليس من واجبهم الحضور لتشيع ملكهم؟!

- لم يأتوا، ثقي بفرسان وكهنة آمون الذين يقومون بواجبهم، وسيقاتلون إن جاءهم قتال، لكن علينا اتخاذ خطوة استباقية تُربك المتآمرين.

- وما الذي تنتظره؟

- لأن الأمر بيدك وحدك.

- كيف؟

- عليك أن تتخذي زوجًا ملكيًا، حتى وإن كان الأمر صوريًا، الشائعات عن خيانتك وطلب الدعم من الحيشيين تنتشر بسرعة.

قامت عن كرسيها وحدثته بحدة:

- ما الذي تقوله؟ أتعني ما تتفوه به؟

رد ببرود وبنبهته الرخيمة:

- أعني وقع الأمر، ولكنك بحاجة إلى الدعم وتقوية موقفك.

بمجرد دفن جثمان الملك وتنصيبك ملكة سيكثر الطامعون،
الأكاذيب حولك تنتشر بين العامة بكثرة، ولا أحد يستطيع
قطع كل الألسنة. أعلم أن حديثي هذا يثير عواصف الغضب
والخوف بداخلك، ولكنكِ صاحبة الحق ويجب أن تتخذي
كل التدابير لتبقي إرث عائلتك، البلاد بين يديك واختياراتك
وحدها ستحدد مصير الأرضين.

بدا الارتباك عليها، وهو يتابع:

- يخشى كهنة آمون ونسّاك الآلهة أن تعود الأيام المظلمة، ويعم
الظلم والقهر، كان توت أمل الناس في حياة يعمها الرخاء والأمن.
- هل الوقت مناسب لهذا الحديث؟ لم يعد هناك أي ذكر في
عائلي.

- أنتِ الزوجة الملكية نقية الدم، ويحق لك اختيار زوج ليعينك
ويقف إلى جوارك، يكون ظلاً، بينما تحكمين أنتِ...

- ومن هذا الذي لن ينقلب ضدي يوماً ما؟

استشف من حديثها أن الفكرة وجدت سبيل الرضا بداخلها على
الرغم من ترددها، اقترب منها ونظر إلى عينيها وقال بلطف:
- أنتِ تملكين بالفعل شخصاً يدين بالولاء والكثير من المشاعر.
ولا يبتغي إلا أن يسدد دين عائلتك تجاهه.

- من هذا؟

- أنا.

نطق بثقة، ووجمت هي، كيف له أن يفكر في هذا الأمر، لم يخطر
ببالها يوماً أن يحدث هذا، الكهل يعرض الزواج بها. امتعضت ومرت

بخاطرها مشاهد كثيرة حاضرًا فيها، منذ وعت على الحياة وهي تراه في القصر، وزوجته التي توفيت قبل سنين اتخذتها وإخوتها بمنزلة جدة لهم، تملك الصدمة من جوارحها، أرادت أن توبخه وتطرده، أن تلم وجهه البارد، وهو يتابع:

- لا أريد مُلكًا ولا أريد سلطة فهي لديّ بالفعل، كل ما أوده هو الحفاظ عليك، أن تنجو البلاد من الفتنة ونستكمل ما بدأه فقيدنا، سأكون خير عون لك، ولا أمسك ولا أقرب مضجعك إلا بإذنك.

ركع تحت قدميها فجأة وهو يكمل:

- ما عرضتُ هذا، إلا لخوفي عليك ولحمايتك مما هو قادم، أقسم أمامك والآلهة شاهدة إنني ما تقدمت إلا بعد خلوة روحية في حضرة آمون، الذي منحني الإذن بكوني كاهنه الأعظم ووالد الملك الإله، وبعد مشاورة الكهنة في الأمر، سيكون كل شيء تحت أعينهم وسيأمنون لنا ظهيرًا قويًا عند الحاجة. مجرد مراسم وبعض الأختام للمكاتبات، ولن يكون في أي قاعة ملكية سوى عرش واحد، لملكة الأرضين عنخ إسن آمون، وسأقف دومًا خلفك ما حييت، أعدك.

انحنى أكثر وفاجأها بتقبيل قدميها، اقشعر جسدها والرجل ينهض بروية متطلعًا إلى وجهها قائلاً:

- يا ابنة آمون، فكري في الأمر وتذكري أنا خادمك مهما كان اختيارك.

تحملت الضيق وكظمت غيظها حتى غادر المكان، اضطربت

أفكارها وحواسها، تدرك أن مستقبلها يحيط به الضباب، وعليها الاختيار. جلست قبالة الشرفة شاردة، وبقيت على تلك الحالة بعض الوقت حتى جاءتها مايا. رأتها ممتعة الوجه زائغة العينين، ودمعها سيل جارف لا يتوقف، احتضنتها وأخبرتها ما كان من أمر آي وطلبه الغريب، ولم تجد المربية بجعبتها كلمات تستطيع قولها، للمرة الأولى في حياتها.



شفق وردي سبق ظلمة الأفق، وحلق سرب إوز في دورة كاملة في السماء قبل أن يحط وقد أزف المبيت، وطرقات مدينة العمال خاوية إلا من بضعة نفر. الفلاحون غادروا الحقول يسوقون الأبقار والجواميس إلى حظائرهما، ويقلق السكون وقع حوافر جواد على الدرب الرملي. أرخى تحوتي الشارد لجامه، راجع حواراه مع القائد نب خنوم، أوصاه بالحكمة والتريث حتى يصل رسوله إلى حور محب، كتباً إليه ليعلماه بما اكتشفا، وكان عليه هو الجزء الأصعب، أن يخبر الملكة بما رأى في مقبرة الملك، وعلى درب عودته إلى المعبد رأى حور وبقية العمال، وفاجأ صاحبه مرة أخرى عارضاً عليه حمله إلى المدينة، واعتذر حور إلى رفاقه وارتقى ظهر الجواد خلف صاحبه، وانطلقا.

رجلان من منف تفرقا وجمعتهما الأقدار على صهوة جواد واحد، صاحبان وإن تبدل الزمان والمكان، فارس ورسام ما زال لديهما كثير من الأحلام والآمال، اختيرا من الآلهة ليحمل كل منهما جزءاً من حقيقة ما حدث. أخبره حور بأن اليوم هو آخر عهد عملهم في مقبرة

الملك، نظفت وطهرها الكاهن باواح ومعاونوه. وكلاهما يعرف سبب العجلة، دام صمتهما بعض الوقت، قبل أن يسأله تحوتي:

- متى ستعود إلى منف؟

- لا أعلم، سأبقى في مدينة العمال بعض الوقت، الكاهن باواح قال إن هناك مقبرة أخرى علينا تجهيزها للملك الجديد.

- ليس هناك أي ملك جديد، لدينا ملكة.

- تحوتي، رأيت بعينيك ما خطته يداي، لن يتغير شيء وربما تعرف الملكة بالأمر.

- لا تعرف شيئًا كهذا،ؤكد لك.

- الجميع يعلم أن لقب والد الملك يمنحه كثيرًا من الحقوق، إن كنت تريد نصيحتي، لا شأن لك بكل هذا. الآلهة وحدها من تمنح الملوك وتنزعه وتحدد أقدارنا، وفي النهاية جميعنا مسيرون إلى قاعة الحساب، وميزان ماعت يُفرق بين القلوب، لا تظن أن أحدًا يستطيع الإفلات من تسديد دينه سواء أكان حيًّا أم ميتًا.

- أنت مثالي يا ابن حتب الصياد.

ضحك حور ولكز صاحبه:

- أتدري يا صاح، دومًا كان انطباع الناس عنا، أنك الطيب وأنا الشقي، أنت الهادئ الرزين وأنا الضاحك كثير الحركة، أنت الصامت دومًا وأنا الثرثار. ولكن الأمر ليس كما يعتقدون، لا أنكر أنك من يفكر ويدبر، ولكنك أيضًا الشجاع المتهور، أدرك أن لديك من الحكمة ما ينجيك من الهموم والمصائب، ولكن هذه المرة الأمر أكبر منك ومنا جميعًا.

بغضبة رد تحوتي:

- لن أصمت عن جريمة بحق الملك والبلاد، قُتل توت الذي آمنت بما يستطيع فعله. كان أمل جيلنا، حمل على عاتقه هم الأرضين، كان أمل المستضعفين حتى نالت منه برائن الغدر، لن أكف عن المطالبة بالحق يا حور، حتى أكشف المؤامرة الخسيسة.

- وحق بتاح، هذا ما خشي عليك منه أبوك، أن تتيه في مؤامرات القصر الملكي، فرسان آمون لن يسكتوا حين ترمي قائدهم بالخيانة وقتل الملك! كنت أظن مثلك أن توت هو أمل البلاد ورجاؤنا نحن الشباب، ولكنه رحل، ومن يرحل لا يعود. اسمع يا صاح، لن تستطيع تغيير شيء وحدك، فلا تتورط، ودع الآلهة تُسير المقادير كيفما تريد، اترك كل شيء وعُد إلى منف.

كانا بعيدين يحملهما جواد واحد، لكل منهما رؤية من حيث هو، لم يكن نقاشهما ليثمر هذه المرة، لاذ تحوتي إلى الصمت محاولاً ترتيب ما سيقوله للملكة، وركن حور إلى ذكريات قديمة حتى وصلا إلى مدينة العمال، ودّع بعضهما بعضاً على أمل اللقاء ومضى كل منهما إلى سبيله. وقرب بوابة القصر اعترض مجموعة من الجند طريق تحوتي، توتر الجواد أمام أسنة الرماح المشهورة في وجهه وصاحبه. وآخر ما سُمع كان صهيلاً وصليلاً.

قرايين

«فُتحت بوابة السماء المزدوجة
ليبحر توت رفقة التاسوع صوب حقول الآرو
نصبت المائدة وجاء المودعون بالقرايين
محبة وتوددًا لسيد المبجلين المقدسين».

دخان عطر كثيف عبق المكان، والتف كهنة إنبو حول جثمان
الملك، ألبسوه حُليه ونعليه وخنجره وصديريته، كفنوه بلفائف
الكتان وعطروه ونثروا العطور والورد بين طبقات اللفائف. ثبتوا
التعاويذ والتماائم وسط شدو المرتلين. فرغوا من تكفينه وحملوه
إلى تابوته الصغير، الذي حُل ليوضع داخل تابوت آخر مذهب من
دون أن يغلقوا الغطاء، وتراجعوا جميعًا ليصطفوا في استقبال فاتح
الفم، ومن خلف قناعها تابعت نخ تي مراسم وطقوس تحضرها
لأول مرة. اختلجت مشاعرها وهي ترى الكاهن شسمو يتقدم
حاملًا صولجان راعي الموتى بقناعه الفريد، دار حول الملك
المكفّن ثلاث مرات وتوقف عند رأسه قائلاً: «أيها الملك توت

عنخ آمون جئت أبحث عنك، وأبشرك أن خلفك هو من جاء لفتح فمك».

مع آخر حروفه فتحت البوابة، ليدلف فاتح الفم، صُقع جميع من بالقاعة، تحجرت الأعين على الرجل الذي لم يكن سوى آي، رافعاً رأسه بفخر، واثق الخطى ممسكاً بصولجان الجدد، مرتدياً جلد فهد أرقط وعلى رأسه تاج الخبرش الأزرق، وإلى جواره ملكته العظيمة عنخ إسن آمون، ضئيلة الجسد بكامل زينتها، وفوق رأسها تاجا القطرين، جامدة الملامح تتوهج المشاعل بمقلتيها، ونودي في الجمع أن اسجدوا لملك الأرضين حور الحي. انصاعوا على الرغم من دهشتهم، واقترب هو من المنضدة ملتقطاً فأس التشري، رفعها مقرباً إياها من وجه توت الملفوف بالكتان، ارتعشت يده والفأس الصغيرة تلمس موضع الفم مرتين، مردداً بصوت رددت الجدران صداه: «هأنذا أفتح لك فمك، لتكون راضياً يا ابن آمون رع، لتحيا سيدي إلى الأبد في قاعة أعمدة البردي، لتصعد عاليًا يا حور الأفق الذهبي، أنت الآن ترى بعينيك، وتسمع بأذنيك، وتفتح فمك لتتكلم وتأكل، وتحرك ذراعيك وساقيك، أنت تحيا، أنت الآن حي، وقد عدت مرة أخرى وستعيش إلى الأبد».

ما إن أنهى آي كلماته، ارتفعت أصوات الكهنة المرتلين من جديد. أحرقت أكوام من صنوف البخور، وجاء أحدهم يحمل قناع الموت الذهبي، سلب الألباب وتعلقت به الأعين، فريد عجيب الصنع، حتى الملكة الحزينة بدا عليها الإعجاب، والكاهن شسمو يقول: «أثبت لك رأسك، لتحيا إلى الأبد ولا تغلق عينيك أبدًا. لقد

رحلت، ولكنك ستعود. لقد غفوت لكنك ستنهض، مت ولكنك ستحيا في السماء، فُتحت بوابات الأفق، وانزلق مزلاجها متراجعا، لتعتلي عرش حور فوق حقول الآرو».

ووضع القناع البديع فوق الرأس الملفوف بالكتان، ونثروا الورد والتمائم فوق الجسد. تقدمت الملكة واضعة إكليل الزهور حول رأس الملك الذهبي، تأملت القناع، والعينان الزجاجيتان تلمعان، وتحسست تابوتين صغيرين وُضع فيهما رفات ابنتيها. غمغمت بشيء، وما إن انتهت حتى تراجعت إلى الخلف، وأريح الجثمان داخل التابوت مرة أخرى، وتعاقب النبلاء والفرسان والسادة وحتى الحرس في تقديم القرابين، ومن ورائهم وقفت عنخ إسن آمون، وخواء يسري بداخلها، وجاء أتباع أنوبيس يحملون غطاءي التابوتين، ورش الكهنة مزيجا من الزيوت المقدسة، وأغلق الغطاءان الأول والثاني، ونُقلا إلى تابوت ثالث ذهبي لا مثيل له.

جنازة مهيبة خرجت من المعبد الجنائزي، يتقدمها قارعو الطبول في موكب المشاة، وتحركت طواير من حملة الرماح والدروع، ووراءهم صفوف منتظمة من فرسان آمون حاملي الرايات، واقترن وقع حوافر الخيل وصرير العجلات بعويل النائحات، يولولن ويلطمن وجوههن وصدورهن، وفي الوسط قارب ذهبي يجره الثيران، وُضع بداخله التابوت الضخم، ومن حوله كهنة آمون يرتلون ويؤرجحون مباخرهم في الهواء، ومن ورائهم جمع كبير من كهنة جميع الآلهة كل بقناع معبوده. رهبة وسكينة وخوف، وعبيد وخدم يحملون ذخائر ملكية وصناديق المتاع وتمائيل وقرابين، وكل ما سيحتاج إليه الملك

في رحلته إلى الغرب، واصطف الناس كل في حاله وحال الدنيا تتدبر، جفّ دمع الأعين لما وقعت على ملكهم الجديد، وعصفت بالجموع دهشة وهم يشاهدون أي ملكًا مُتوجًّا على عربة حربية يقودها بنفسه وإلى جواره ملكته، خروا سُجَّدًا من فورهم أمام سيد الأرضين المار بينهم، تهاوت الأجساد تباعًا ووحده حور من بقي واقفًا واجمًا. أي صار ملكًا، ولا أثر لتحتوي.

أفاق بفعل باثاي الذي جذبه إلى أسفل، ركع إلى جانبه محملقًا إلى وجهه والرجل يحدثه همسًا: «هل جُننت؟!»، ولم يسمعه حور العالق في ضجيج الاحتمالات. نهضوا بعد مرور الموكب ينفضون الغبار عن جباههم ووجوههم، وعينا حور ما زالتا تجولان بحثًا عن صاحبه.



عند مدخل الوادي المقدس رجع المشيعون، وتولى المدجاي نقل التابوت والأغراض إلى القبر، ورافقهم باسر وباواح ومعى، الأول تابع إدخال التابوت بصعوبة إلى المقبرة وتحطيم جزء من الجدار ليفلح الأمر، ورافق الثاني كهنته إلى الداخل وأشرف على قطع مشط قدم التابوت، ليجعلوه مستقرًّا بداخل الناووس الحجري، وثالثهم وقف يحصي أغراض الملك ومتاعه مرة أخرى، بينما تُرص داخل بيت الأبدية. صُرف الخدم والعبيد وبدأ عمال المقاصير في نصبها حول الناووس. ضيق الجدران جعل عملهم صعبًا، ومنح الوقت للكاتب معى ليعيد إحصاء كنوز الملك. أسيرة وجرار وتماثيل خشبية وذهبية، أقواس وأسهم وأسلحة وعربات حربية ونعال وملابس وعصي مشي وصولجانا، رُصت بعناية، وتولى ترتيبها موجه

العمال ومساعداه. فرغ العمال من بناء جدار أغلقوا به غرفة الدفن، ووضعوا أمامه تمثالين لحارسين متقابلين. ثلّيت الصلوات والتعاويز، وخرج الكاتب ليقف حائرًا أمام المقبرة، يراقب الحرس وهم يفتشون المغادرين، وجاءه بأسر بعدما رأى تجهمه وتعرقه:

- معي، ما بك؟!!

- هناك عدة أغراض مخفية. وما أحصيته لا يتوافق مع المثبت بجداولي.

- وكيف حدث هذا؟

مسح الكاتب العرق عن جبينه وهو يجيبه:

- لا أدري، كما تعرف أن هناك بعض الأثاث والأغراض هي بالأصل لأخته ميريت آتون وزوجها سنخ كارع وحتى الملكة نفرتيتي، أعيد استخدامها ومُنحت للملك بحق الوراثة، بعض هذه القطع اختفت لا أجد لها أثرًا في المقبرة، لكنها مسجلة ببرديات الجمع والإحصاء. لا أدري أي حقد دفن هذا الذي يدفع المرء للآثام، وكيف سوّلت له نفسه بسرقة قرايين ملكية، مَنْ فعل هذا شخص بداخل المعبد.

- ولكنه تحت حراسة رجالي. وأثق بهم...

قاطعته معي بحدة:

- أليس القتل الذي وجدوه بالأمس أحد رجالك؟

- وما علاقة هذا بالأمر؟!!

- أقصد أن لا أحد معصوم من المؤامرة، ربما يكون شريكًا في السرقة.

- لا أظن أن أوسر على علاقة بالأمر! كان نجار عجلات حربية،
فرسان آمون يقولون إن تحوتي قتله.

- وهل تظن أنت ذلك؟

أشاح باسر بوجهه بعيداً شاردًا في أرجاء الوادي:

- أصبح من الصعب التكهن بصحة أي شيء على هذه الأرض.
خشي البوح بما في صدره، تفاجأ مثل الجميع بتنصيب آي ملكًا
في حضور الملكة وكهنة جميع الآلهة. ظهورهما معًا أثار اشمئزازه،
كيف أغوى الكهل الأرملة الحزينة، لقد تأخر وصول حور محب،
ودُفن الملك على عجل. وإلى جواره كاتب سمين لا يكف عن
الثرثرة، بقوا على تلك الحالة حتى أغلق باواح المقبرة وختم قفلها
باسم الملك، ووقف الجميع يرقبون المدخل وهو يُردم.

* * *

بعد الظهرية رحلت الملكة رفقة زوجها. عبرا النهر إلى طيبة،
وودت لو ألقت بأحزانها في قعر النيل، تكره ما حاق بها، ولا تدري
أي قادم ينتظرها. قبلت عرضه لتخرج من الفخاخ المنصوبة لها،
ولتنفي ما يُشاع عنها، في النهاية هو كاهن آمون الأعظم وقائد فرسانه
المبارك، رقيق القلب سند عائلتها ودرعها الحامية، تثق بأنه لن
يخذلها، وشعرت بقليل من الأمن يمس قلبها وهي إلى جواره. الكهنة
ينادونها بلقب جديد عليها وله وقع أثير، زوجة آمون الملكية. لقب
يليق بسليمة الآلهة وحفيدة الملوك العظام، وقرب الكرنك نُودي أن
تحيا ملكة الأرضين ووالد الملك الإله، عظيم الشأن.

قُدمت عليه في كل المراسم، ونالها شيء من عجب السلطة

والنفوذ، ودار بخاطرها ما تستطيع فعله كملكة حقيقية. دلفا وسط
ترحاب وتبجيل النبلاء والأمرء، قدما قرايينهما بقدس أقداس المعبد
العتيق. كانت المرة الأولى، منذ زمن، التي ترى فيها الملكة خالتها،
موت نجمت، الناسكة الجميلة التي وهبت روحها وجسدها لآمون
رع. لم تتحدثا ولكن الأعين فعلت، وتجمهر أهل طيبة ونصبت فرقة
فرسان آمون الحواجز، لم يتوقع أحد ما حدث وما يُشاع، وبُث بين
البسطاء أن سيد الآلهة تجسد في هيئة آي. ولما خرجا إلى الباحة
سجد العامة والخاصة، وسكن الكون إلا من خفقان الرايات، وبدا
الملك ساميًا بتاجه الأزرق فوق الهامات المحنية، لمعت عيناه وهو
يرى الجموع تخر أمامه. أخذ نفسًا عميقًا وامتلأت روحه بفخر وعزة،
وابتسم وهو يتمتم: «عامي ذو نسب وضع من أخميم، أصبح ملكًا
للبلاد».

بعيدًا على الضفة المقابلة، عاد باسر وباواح ومعي إلى المعبد
الجنائزي، وما إن دلفوا إليه أعطوا أوامرهم للجند بتشديد الحراسة
على البوابات، فلا يدخل أحد ولا يخرج إلا بإذن من ثلاثتهم. عاد
باواح إلى مقصورته التي ما زال يجلس بها الرّسامون، وطلب منهم
البقاء حيث هم، كأن حور ينقصه مزيد من القلق. غاب صاحبه عن
مراسم التشيع، ولا يدري عنه خبرًا، والآن يأتي الكاهن المشرف
عليهم ويؤكد ضرورة بقائهم. أخبرهم بأنهم سينقلون للعمل في
مقبرة الملك آي الذي أُعجب بصنيعهم وما أنجزوه من عمل، ولم
يستطع حور منع فرحة نبتت في قلبه، سيبقى ولن يعود إلى منف قريبًا،
ربما يستطيع البحث عن تحوتي، تمنى أن يكون بخير وألا يصيبه

مكروه. تنهى إليهم ضجيج جلبة جذبت من بالمعبد، ومن خلف زحام الأجساد رأى الحرس يقبضون على امرأة، وإلى جوارهم كان الكاتب معي يقول بصوت جهوري:

- عودوا إلى أعمالكم، لقد أمسكنا بسارقة كنوز الملك.
على مقربة من المعبد الجنائزي جلس كما تحت شجرة عتيقة،
انتظر خروج نخ تي، يعلم أن عملها قد انتهى، وستغادر أخيراً وتعود
إلى منزلها، أخذ يفكر في الحجج التي سيسوغها حتى تتقبل غيابه،
ظل في مكانه وقتاً طويلاً حتى لدغه الملل، الوقت يمر ببطء أم هناك
ما طراً! لم يخرج أو يدخل أحد للمعبد، غربت الشمس ولم يبقَ
من أثرها إلا أفق دام. رأى حور يخرج من البوابة رفقة بضعة رجال.
التقت أعينهما، ولم يجد كما مفراً من الذهاب إليه. زين وجهه بابتسامة
سمجة ناطقاً:

- حور، كيف حالك يا رجل؟

- بخير، ما الذي تفعله هنا؟!

- أنتظر شخصاً ما.

أمسكه حور من رسغه وسحبه بعيداً، وقال بغیظ:

- عليك الذهاب من هنا، لقد أمسكوا شريكك في الجرم، ولولا

أن لك ديناً في رقبتي لكنت أبلغتهم عنك يا سارق القرايين.

تملص منه:

- ما الذي تقوله يا رجل؟ عن أي امرأة تتحدث؟!

قاطع حور بحزم:

- تلك التي كنت تنتظرها كل يوم أمام بوابة المعبد، امضي إلى

حال سبيلك، وأكون قد سددت دَيني إليك يا هذا، لا أريد
رؤيتك مجدداً.

دفعه عن طريقه وعاد إلى حيث ينتظره رفاقه ولم يلتفت، ولم يهنأ
بنوم أو راحة في هذه الليلة، حتى طرق بابه زائر، تفاجأ به وخشي أن
يراه أحد، ولكن الزائر طلب أن يذهباً في جولة ليتحدثا، ولم يجد
حوراً إلا أن يرافقه.

طريد الآلهة

«أنت روح ست وقرين كل الأرباب
 كمثل النجوم لا تعرف الفناء
 أنت محارب، وقاتل ثعبان المحيط الأزلي
 تحديق خارجًا إلى الليل ورائحة الأرض تغمرك
 تعرف من أنت، ولكنك تائه يا كا».

- كا، هو اسمي وصفتي، روح هائمة في أرض الآلهة والبشر.
 وُلدت لكاهن ومُرْتَلَّة، لم أرهما يومًا، واسماهما شُطبا عمدًا
 من سجلات معبد الثامون المقدس، الذي نشأت في ردهاته
 وأروقتة. تمنيت أن يكون لي أم وأب كبقية الصبية من حولي،
 وسرعان ما أدركت أن أمهاتي كُثر وآبائي لا يُحصى عددهم،
 عطف عليَّ الجميع وتباركوا بي، أعددت لأكون كاهنًا مطهرًا
 لجحوتي إله الحكمة وسيد الأشمونين، تلك البقعة التي بدأت
 فيها أسطورة الخلق وفق مذهب ساكنيها، وقصتي...
 وُلدت إبان السنوات الأولى من حكم الذي لا يُذكر اسمه. نشأت

في ظل حرب الآلهة، جميعهم ضد آتون، هكذا قالوا، ولم أرهم يتصارعون ولكني رأيت بشرًا يقتلون ويسفكون الدماء. قضيت نصف حياتي هاربًا من قبضة أتباع آتون، وسُميت مارقًا على سلطة الملك المهرطق. لسنوات رحت أجوب الوادي والقفار والأحراش، أبحث عن الآلهة متنقلًا بين مدنهم المقدسة، ولم أجد سوى بشر مثلنا، يتضرعون ويصلون طلبًا لأمنيات دنيوية، وقرابين ونذور وعطايا تقدم رغبة في غوث لا يأتي، غلاء يسود الأسواق وشح فتك بالبطون، ووجوه ممتعة يابسة على الدوام، ورجال الملك يجبون الضرائب ويدهمون الكهنة والصوامع، ويحتكر أتباعه المتعصبون كل السلع والبضائع، وكلما نزلت ببلدة تتناهى إليّ أخبار هزائم الجيش في التخوم الشمالية البعيدة. عشت متسكعًا أسرق طعامي من قرابين الآلهة، وظلت حياتي خاوية إلا من خنجر ست، أذكر كيف سحبته بمهارة من ذلك القائد الآتوني المتجبر، ما زلت أرى دماءه على حواف النصل، لعله ما زال حيًا ويتذكر ذلك الفتى الغاضب الذي كاد يفتك به، وددت قتله بالفعل، وكلما مرت الذكرى بخاطري أضحك، فذلك السلاح هو ما جعل مني ما أنا عليه الآن.

محتال، نابش قبور، سارق كنوز، شرير ينال لعنات لم تُصِبه يومًا، ملعون من يوم مولدي، ربما مسني ست بشيء من سواده، ولا أجزم بأنني عبدته يومًا، ولكنني حدثته كثيرًا ولم أتلَق جوابًا، واتخذت دربه ودنست كل مقدس. يقولون إن الآلهة شاهدة على ما نفعله، ولكنها لا تتحرك لنجدة عبّادها، تكتفي بالوقوف

في قاعة الحساب لتحاسبنا على ما اقترفناه، لا أؤمن بأيّ منها على كل حال، ولكن هل نحن بحاجة حقاً إلى أن يكون معنا متاع لنعبر به إلى الحياة الآخرة، ما حاجة الميت إلى كل تلك الكنوز والأغراض، أليس الأحياء أولى بها من الجثث المتعفنة في التوابيت؟!

ودارت الأيام وإذ بي أنضم إلى عصبة ممن تقطعت بهم سبل الحياة، وأصبحت ابناً لقائدهم الذي منحني اسمه ولقبه. داهمنا القبور والمعابد بحثاً عن ذخائر الذهب والفضة، وبينما يغنم رفاقي كل شيء، أكتفي بقليل يعينني على العيش، وأوزع الفائض على الفقراء والمحتاجين. شربت من نبيذ السادة المعتقد وأنا جالس فوق توابيتهم الفخمة، حدثت الآلهة ولم تجبني سوى الجدران، سألتهم عن غاية وجودنا ولم يرد أحدهم، تحديتهم وتفاخرت أمامهم بخنجر ست، الذي لم أجد صورته في أي مقبرة دخلتها، كان الغائب المنفي وكنت الحاضر المدنس.

لم أنظر يوماً إلى الغد بخوف، وعشت كل يوم كما أريد، أصبحو بين أفخاذ وأثداء العاهرات، وأمسي مع قطيعي نجوب الغرب بحثاً عن كنز جديد، ومن حفرة إلى حفرة ومن بلدة إلى بلدة، رأيت ملوكاً أصبحوا جيّفاً نتنة، وكهنة أكل الزمن عظامهم وأكفانهم. نزلت إلى سراديب قديمة معتمة موحشة، ونظرت إلى ما يفوق قدرة الناس على التخيل، أدركت أن هناك قروناً أولى قبلنا، وممالك غابرة ضاربة في القدم، وأننا لم نرث إلا ركام حضارة عظيمة بائدة من عصور سحيقة، وقليلاً من عقيدة

معقدة للملوك وأخرى للعامة، أعلم أن لهذا الكون خالقًا، ولكنه ليس آتون أو أيًا من تاسوع أون أو ثامون الأشمونين. مرت الأيام وهلك رفاقي وكانت لبعضهم خطط بديلة، ووجدت نفسي هاربًا مرة أخرى، مطارّدًا من قطاع الطرق وصائدي الرؤوس. هذه هي حياتي التي عشتها خائضًا للمخاطر بقلب لا يعبأ بالنهاية، حتى رأيته.

- شريكك في الجرم؟

- ليست كذلك، إنها نقية طاهرة، أنا من خبأ الأغراض بداخل جعبتها، كنت سأعود لأخذها ولكنني وجدت المعبد مغلقًا بأمر الجند، لم أكن أعلم بما يحدث في الداخل حتى رأيتك خارجًا. وما الذي يجعلني أصدقك؟

انفعل كا:

- لست بحاجة إلى فعل هذا، إنها بريئة ولن ينجدها تضرعها، لا أحد يأبه للمظلومين في تلك البلاد.

ألقى حور مزيدًا من الحطب إلى النار، طقطقت الأخشاب المشتعلة، واستعرت داخله نيران أشد من الكائنة أمامه، يُصدق جملة كا الأخيرة، وكلما غالب لسانه ليصمت، شعر بحرقه قلبه التي حثته على النطق:

- مصير صاحبتك، ليس بأسوأ مما سيلاقه رفيقي، ولا أعرف إن كان عليّ الوثوق بك أم لا، أو أصدق قصة حياتك هذه أم لا، ولكن هل ستصدقني حين أخبرك بأن الملك قُتل. وهذا ما عرفه صاحبي قبل أن يختفي...

قاطعته كا سائلاً:

- ما الذي تتحدث عنه؟

- هذا ما قاله تحوتي يوم قاطعتنا بحانوت الجزار.

- نعم، أذكر تجهمه حينها.

- قابله بعد ذلك، وأخبرني بأنه يحقق في الأمر، وقبل أن يعرف

من سيكون الملك القادم، كنت أرسـم القاتل بيدي في المقبرة

الملكية، نقشـت اسمه وصورته وهو يؤدي الطقوس قبل إقامتها.

وحالما علم بأن آي هو المدبر لموت الملك، ذهب ليخبر

الملكة، ولم أره مجددًا.

اتسعت عينا كا دهشة وغمغم:

- لعلهم قتلوه إن كان الأمر كما تقول، مَنْ يقتل ملكًا يسهل عليه

التنكيل بأيّ كان. المؤامرة كبيرة على ما يبدو، وحسب قولك قد

تكون الملكة مشاركة في الأمر. بصرف النظر عن كهنة وفرسان

آمون، ما كان لصاحبك أن يتدخل في هذا الأمر.

- لا أحد يختار مصيرًا قدرته الآلهة.

- نحن من نحدد مصائرنا، ما الذي أتى بك من منف؟! ألم تُقل

لي في السفينة إن هذا اختيارك؟! وكان إنفاذي لك هو اختياري.

هل أجبرني أحد على قتل الرجل الذي كاد يغرقك؟

- إنها مشيئة الآلهة.

نهض كا مغاضبًا:

- حسنًا، دع مشيئة الآلهة تقرر أمر صاحبك. أما أنا فسأذهب

لتحرير نخ تي.

- هل تستطيع ذلك حقًا؟

- ما الضرير من المحاولة ما دمت حيًا، وما الذي سأخسره إن حاولت؟

- تفعل هذا حتى لا تشعر بالذنب تجاهها، أم بحثًا عن الإثارة واللعب بحياة الأبرياء؟!

- أتعرف يا حور، سئمت بؤسك وظنونك المثيرة للشفقة، ما الذي تفعله غير رسوم لأناس ببشرة خضراء وزرقاء تعتقد أنهم آلهة. ابق أنت هنا وباشر أعمالك التي أوكلت إليك، وعود لسانك على عدم الشكوى، انس صاحبك وتناس محتته إن أردت هذا، ولكن مصيره سيقلقك ما دمت حيًا. أنت واهن القلب يا رجل، ولا تقوى على مواجهة مخاوفك، سأنقذها لأجل طعام أطعمتني إياه، وتطبيبها لجرح صنعته لاستدراجها، إنها بريئة مظلومة، وهذا اختياري وسأخوضه مهما كانت العواقب.

ألقي حديثه الثقيل ورحل إلى جوف الظلام، ترك وراءه جمرًا يتقد بقلب حور الذي رمى بصره ناحية الضفة المقابلة، طيبة جاثمة كظلال مهيبة يورق عتمتها بضعة مشاعل متناثرة. شعر بضيق وقد تكالبت عليه الظنون، مر والداه بخاطره، وتذكر كلامهما عن مدينة الصولجان المليئة بالشرور، لدغ تحوتي من عقارب القصر الطامعين في السلطة، فكيف له أن يواجه كل هؤلاء ويُنجي صاحبه؟

* * *

انقضى الليل وجاء رع مشرقًا بقرصه الذهبي المشع، وكما ما زال نائمًا، أعياء السهر والبحث طوال الليل، لم يترك معبدًا أو ثكنة لم

يتسلل إليها، بحث في كل مكان ولم يعثر على أثر لها. فتح عينيه بكسل ليجد باسيت ترمقه بعينيها الصفراوين المشقوقتين، لا تحبه هذه القطعة، وهو الذي تسلل إلى المنزل رغماً عنها. نهض باحثاً عن شيء يأكله، وأمام حجرة صاحبة المنزل وقفت القطعة تموء مزمجرة، حاولت منعه من الولوج كلبؤة تحمي عرينها، لم يخاطر بمواجهتها ونزل الدرج إلى صحن المنزل المرتّب، يتوسط الجدار الأكبر تمثال إنبو ومائدة قرايين، وفي أحد الأركان عدد من الجرار الخاوية، وتتدلى من السقف قفة من الخوص معلقة بحبل، لم يجد بها إلا بقايا خبز جاف وسمك مملح مجفف، أكل وألقى إلى باسيت قطعة، تشممتها وما لبثت أن أخذتها وقفزت إلى الدرج، تأملها وهي تقطع اللحم القاسي بأنيابها الصغيرة، تفتقد صاحبها التي قبض عليها بسببه، يلوم نفسه وهو الذي لم يعرف معنى اللوم يوماً. مر بخاطره كل ما حدث منذ هربه من الأشمونين حين كان صغيراً، واشتداد عوده حتى صار صلباً لا يكسر.

عاش في الظلال بأكثر من وجه واسم، حتى قرر ترك عالمه وعصابته التي كان فيها ذا شأن ورأي، القدوم إلى طيبة كان اختياره، بحثاً عن حياة جديدة، ولكن الأوغاد طاردوه وغرقت مدخراته حين قرر إنقاذ الجبان حور، وأثار خبر موت الملك بداخله فضولاً وشهوة، أراد تعويض ما ضاع من ثروته، استغلها وهي الكاهنة المطهرة الجميلة، رق قلبه برويتها ومجاورتها إلى أن فُجع فيها. مسّ الحزن قلبه، وقد باءت كل مساعيه لإيجادها بالفشل. تجول في أرجاء البيت، سقى أزهارها ورّب فراشها مكان نومه، ووقف أمام صندوق خشبي

نُقش عليه اسمها واسما والديها، قبل أن يفتحها التفت ناحية القطة التي كانت تعلق فراءها غير مبالية به، ومد يديه ليزيح غطاءه. كان ممتلئًا بالملابس المطوية وقوارير صغيرة من الخزف والزجاج، وعُلب تجميل ومكحلة، وتماثيل لإيزيس وأوزير وإنبو وعقود من الخرز، لم يمس أي شيء وأغلق الصندوق الذي هرعت باسيت تتمسح به رافعة ذيلها، تفتقد صاحبته وتشتاق إلى رائحتها العطرة.

رجع إلى الفناء وأسند ظهره إلى جداره، متأملًا إنبو الرابض بفناء البيت، كثيرًا ما تدبر أساطير وقصص الآلهة التي خلص إلى عدم وجودها، أين أرباب الأفق الرابضين على سفينة رع، من يقاتلون الشر والظلام، أي آلهة هذه التي تقبل الرشوة من متعبيها، أموات يُكفنون ويدفنون مع كنوز من ذهب وفضة وأحجار ثمينة، إن كان الملوك والنبلاء لديهم ما يحملونه في رحلتهم إلى الآخرة، فماذا لدى الفقراء والمعدومين؟! يا للسخرية! جميع من نهب وسرق مقابرهم كانوا يُصرون على أنهم أنقياء، لم يرتكبوا أي ظلم بحق البشر والآلهة، لم يرشوا أحدًا ولم يجعلوا أعينًا تبكي قهراً، إن كان جميعهم أبرياء فمن هؤلاء الذين يظلمون ويقتلون ويستعبدون الناس؟!!

نخ تي، مؤمنة بما يكفر، رأى كيف تتلو الصلوات وتؤدي طقوسها. راقبها أيامًا قبل أن يقرر تنفيذ خطته والتقرب منها، المؤمنون أرق الناس فؤادًا، كان يعلم أنها ستداوي جرحًا صنعته بخنجره، استلطفتها ولم تقع في محذور معه، اكتفت بأن تطهو له وتذيقه ما لذ من صنوف الطعام، أنست وحدته ودفعته للحديث عما يُحب ويبغض، نسي معها أنه محتال غامض، وتناست أنها كاهنة مطهرة، ولكنها في

النهاية امرأة، تملك العاطفة جوارحها، تمنى لو لم يدفع بها إلى خطته. المرة الأولى التي يشعر فيها بالفقد، حاصره الغم والحزن كأن جدران منزلها تضيق عليه، والحب وهن من بعد قوة، هذه هي حاله الآن، ولكن هل مثله يحب ويعشق؟!

* * *

في مدينة العمال بقي حور ورفاقه من دون عمل ينتظرون، خرج باثاي وباحري إلى السوق، وبقي بانحسي بالدار يخلط الألوان وينظف الفرش، أما حور فاختر الجلوس على عتبة الدار ممسكًا بلوح طيني وإزميل نحاسي رفيع، أخذ يحفر ما خطته أنامله مشغول البال بصاحبه، لم يلحظ المتلصص الصغير المتواري خلف جدار الدار، فتى حليق الرأس إلا من ضفيرة طويلة بجانب رأسه، أطال الوقوف مبصرًا ما يصنع حور، الذي ما إن شعر بوجوده تطلع إليه مبتسمًا، أشار إليه بالاقتراب وجاء الصبي وعيناه تشعان ببريق الفضول، هزيل الجسد بشوش الوجه، سأله حور:

- ما اسمك؟

- سن نجم، أبي هو خا بخنت المشرف على مدبغة الجلود هنا بمدينة العمال.

- اسم جميل، هل تريد رؤية ما أصنع؟

هز الفتى رأسه وحور يرفع أمامه اللوح، فغرفاه وهو يرى نقشًا للإله جحوتي. حرك حور يديه أمام وجه المتطفل الصغير ضاحكًا:

- أعجبك نقشي البسيط؟!

- إنه جميل.

- هذا إطرء، أليس كذلك؟!
- أقسم بآمون إنه أجمل نقش رأيته لإله الحكمة والكلمات.
- قل لي يا سن نجم، هل تحب الرسم؟
- نعم، لدي كثير من الرسوم في منزلنا، أسكن قريبًا من هنا، وأمي تقول إنني سأصبح رسامًا شهيرًا ذات يوم.
- الأمهات لا يكذبن.
- قرفص سن نجم إلى جواره:
- إنها منشدة بمعبد حتحور. هل يمكنك أن تعلمني؟
- صمت حور برهة قبل أن يمد يده باللوح إلى الفتى:
- ربما إن وجدت بعض الوقت. خذ هذا، إنه لك.
- واجتاحت الغبطة ملامح الصبي، تلقف هدية حور وانحنى تبجيلًا:
- شكرًا لك سيدي، إنه أعظم هدية تلقيتها.
- هذا شيء بسيط، لا داعي للشكر. والآن عُد إلى أمك حتى لا تستوحش غيابك.
- ابتسم الصغير واحتضن اللوح وكاد يرحل، إلا أنه عاد مرة أخرى:
- ما اسمك؟!
- حور حتب.
- كرر الاسم بخفوت قبل أن يقول مبتهجًا:
- سأخبر أُمِّي بأن لي صديقًا جديدًا.
- غادر سن نجم تاركًا أثر فرحته وشيئًا آخر في نفس حور، الذي تابع خطاه حتى اختفى بين المارة، ذكره بنفسه حين كان يافعًا يفوق أقرانه في الرسم والكتابة، طامعًا مثابرًا لا ييأس، يحب ما يفعل وقد

أصبح ما أراد، وللعجب يريد الصغير أن يكون صديقه! ولكن من ذا الذي يريد خليلاً متخاذلاً، لا يقوى على البحث ونجدة رفيق عمره، والذود عنه؟! عجز مقيت فتك بجوارحه، غمغم بنصوص كان قد حفظها عن ظهر قلب عن الإله جحوتي الذي رافق وساعد الإله حور الذهبي في حربه ضد ست، وبقي على تلك الحالة من الشرود والحزن حتى مر به بضعة رجال من المدجاي، نهض وحث الخطى وراءهم منادياً إياهم:

- أيها الجند، هل لي بسؤال؟

توقف الرجال ووجهوا نظراتهم إليه، وقال كبيرهم:

- كيف نساعدك؟

- أين أجد قائدكم نب خنوم؟

اقترب منه أحدهم ودار حوله:

- لم؟

- هناك أمر أود إخباره إياه.

- هل لنا أن نعرف هذا الأمر، لعلنا نوفر عنك عناء الطريق؟

- هذا شأن خاص بيني وبينه.

أوما المدجاي برأسه، ورد ساخرًا:

- اذهب وابحث عنه إذن.

أحس حور بقبضة باردة تعتصر قلبه، وغُصة تملك من حلقه، أراد أن ينطق ولم يقو لسانه على ذلك. رحل الجند وعاد إلى الدار يجرخ خيسته، رتب بعض أغراضه ووضع أدواته بجعبته. توقف بانحسي عما يصنع، وسأله عن سبب تجهمه، لم يجبه وانكفأ يقلب في كومة برديات على

المنضدة، يبحث عن لا شيء محاولاً إخفاء ما به. لعن القهر والعجز بداخله، يده مغلولتان ومذاق الخيبة علقم، تذكر ما قاله عحا النسّاج عن طيبة وشرورها، كان محققاً في خوفه على ابنه، وهؤلاء الجند المتهمون لم يقولوا إلا الحقيقة، إن أراد شيئاً فعليه السعي، ولا ضير في المحاولة إن أراد مساعدة صاحبه والبحث عنه. أخبر شريك عمله بأنه ذاهب لقضاء أمر خارج المدينة، لملم أغراضه ووضع غطاء رأسه، وما إن فتح باب الدار حتى رأى آخر وجه يريد رؤيته الآن.

* * *

لا درب يختار سالكيه، ولا شيء يهون مشقة المسير سوى رفيق، وهذا الأخير قد يُفرض علينا جبّراً، ولا خيار لدينا سوى المضي قدماً. مغبونان يبحثان عن يد تتشلهما من تيه الخذلان، كلاهما كان بحاجة إلى البوح، حديث طويل عن ذكريات بعيدة وأمنيات لم تتحقق، خاضا في كل شيء، إلا عما يشغلهما، لا يدري حور لمّ جاء كا إلى بيته، ومع مغيب الشمس حطّ الصمت بينهما، غريبان على حافة نهر جارٍ، وطيبة جاثمة قبالتها بقصورها ومعابدها، ومن ورائهما مدينة العمال وجبال البر الغربي، وشفق أرجواني غطى جسد السماء، وجعران يدفع كرة روث وقف يستريح بينهما، ترك غنيمته واتجه إلى خنجر كا المغروس في الطين أمامهما، تابعا وهو يلامس النصل بقوائمه وقرني استشعاره. قال حور:

- ها هو ذارع يبارك نصل ست هذا.

عقد كا حاجبيه وهو يتأمل فعل الجعران، وما لبث أن ابتسم ورد

بنبرة ساخرة:

- إنها حشرة ضلت الطريق إلى جحرها، وجذبها بريق النصل وبرودته.

- أتعجب من أمرك، أخبرتني بأنك تحفظ الكثير من تعاليم بتاح حتب، ونلت في صغرك الكثير من علوم الأشمونين ومذهبها، وأنت ذهبت إلى أون وقابلت كهنة رع أيضًا، وما لا أفهمه كيف لرجل لا يؤمن بالآلهة أن يسعى للخير ونصرة المظلوم، كيف لمن يحمل خنجر إله الفوضى والظلام أن يشعر باللوم؟!!

- نحن بشر يا حور، نصيب ونخطئ، نصدق ونكذب، نرتكب الآثام ونستحل الشرور، تميل أنفسنا إلى الخير وهو الأصل في خلقنا، ووجب على الآلهة ألا يكونوا مثلنا، لم نتعبد لهم وهم يخطئون ويحارب بعضهم بعضًا؟! ومن ورائهم كهنة ومذاهب، وملوك من لحم ودم مثلنا يؤلهون. إننا من صنعنا الآلهة ورفعنا مقام بعضهم وحططنا من قدر بعضهم الآخر. انظر إلى آمون وكيف صعد إلى سدة السلطة بفعل أحمس وعائلته، ومن قبل كان مجرد إله محلي ضعيف الشأن، الناس هم من جعلوه ملكًا للآلهة والبشر، اختلقوا أسطورة ومذهبًا ليشبوا أقوالهم، رأيت ما يكفي من الآلهة وأتباعهم، وربما يكون هناك إله خالق واحد كما ادعى أخناتون، وربما ليس هناك شيء سوى الموت، هو نهاية كل شيء، وأنا لن نعيش إلا ما عشناه على هذه الأرض. والحقيقة الراسخة بداخلي هي أن خنوم ذا رأس الكبش ليس من صنعنا، ولن تقتلع سخمت رأسي بأنيابها إن أخطأت في حق رع وزمرته، ولن يدافع إنبو عن تابوتي وجسدي بعد الموت،

- حتى آتون لن يمد أذرعه الشمسية ليربت على قلبي لأطمئن.
 قل لي هل نفع نخ تي كونها كاهنة تحنيط مطهرة؟!
 - الآلهة دفعت بك لنجدتها، والذود عنها.
- لو كانت كذلك، لماذا لم تمنعني منذ البداية عن استغلالها
 وخداعها؟! لماذا لم تقها شرور تدبيري؟! لماذا لم تنصر
 صاحبك وهو الباحث عن الحق والعدل؟! سبق وقلت لك إن
 اختياراتنا هي من تحدد مصائرنا، وها أنت ذا تختار أن تجلس
 مع محتال متسكع، على أن تمضي إلى ما تشد.
- كنت ذاهباً للقاء شخص ما حين أتيت أنت. ووجدت نفسي
 أرافقك إلى هنا، طوال حياتي أتجنب الوقوع في المخاطر
 والمتاعب، أفعل ما أحب وأرضى بما قُسم لي، لا أريد من
 الدنيا سوى ما تمنحني الآلهة، أرسم صورها وأكتب قصصها،
 قرباناً وطمعاً في خلود وحياة هائلة بحقول الآرو مع أبي وأمي.
 كلاهما يريد دفناً لا ثقاً، وبعد أن عرفتكَ صرت أخشى ضياع
 مدخراتي هباءً إن اقتحم سارق قبور مثلك بيت أبديتهما.
- ضحك كما مقاطعاً إياه:
- لا تخف، لا أقرب مقابر الفقراء.
- قال حور باقتضاب:
- دعك من تلك الأمور، لمَ جئت تطرق بابي مرة أخرى بعد
 نعتك لي بالجبان؟!
 - حظي العاثر.
- ماذا تقصد؟

- فكرت أنك قد تعرف شيئاً يفيدنا في البحث عن صاحبينا. أظن أن كليهما في نفس المكان، بحثت في كل أرجاء البر الغربي عنهما ولم أجد أثراً، ولا دليلاً على أنهما نُقلا إلى طيبة، وها نحن أولاء جالسان نندب ونرثي مآل الأمور.

قال حور وهو يراقب صياداً يدفع بقاربه إلى ضفة النهر:

- هناك من يمكنه مساعدتنا، وكنت ذاهباً إليه ولكنك قدمت في غير موعدك كعادتك.

- من هذا؟! ولماذا تظن أنه قد يساعدنا؟!

- قائد المدجاي نب خنوم. الرجل يعلم ما حاق بالملك توت، وهو أهل ثقة كما أخبرني تحوتي.

عقد كا حاجبيه وتمتم:

- إنه الحاكم الفعلي للبر الغربي، لماذا صمت وقد علم بالمؤامرة والقاتل؟

- لا أعرف سبب صمته، ولكن تحوتي أخبرني بأن نب خنوم أرسل إلى قائد الجيش حور محب ليعلمه بصنيع آي، وفي اليوم التالي اختفى تحوتي وشُيع الملك.

- لنذهب إليه ونسأله، هيّا بنا.

- ماذا...

لم يُتم حور المتردد كلمته إلا وجذبه كا المتهور من قفاه لينهضه. طريقاً طويلاً اتخذاه لبلوغ غايتهما، عرجا على بيت نخ تي حيث أخفى كا خنجره، والليل أسود فوق رأسيهما والنجوم تراقبهما، وتماثل الملوك والآلهة تبصر خطواتهما. أكد حور على رفيقه ألا ينطق في

حضرة القائد ويتركه هو ليتولى الأمر، يخشى أن يصيبهما مكروه وألا يكون نب خنوم ذا مروءة، أو يُغدر بهما في ظلمة الليل ووحشة الجبل، وأن تنتهي حياتهما من دون جدوى، أما كما فلاذ بالصمت، وحثه نفسه على ترك حور والرحيل عن طيبة وتلك الأنحاء، ولكنه أبى إلا أن يحرر نخ تي، تمنى أن تكون على قيد الحياة، سليمة معافاة لم يمسسها سوء. تعجب من حاله وما أصبح عليه! من يصدق أن كما سرقت أصبح رقيق القلب، يلقبونه بعقرب الصحراء قاسي القلب، والآن يشغله أمر امرأة بالكاد يعرفها! وقبل أن يصل إلى بوابات وادي الملوك، استوقفتها دورية مدجاي، وعلى وهج المشاعل تفحص الجند الرجلين بريبة، سألهما أحدهم:

- من أنتما؟ وماذا تفعلان هنا في هذا الوقت من الليل؟!

لم يكد حور يفتح فاه حتى سبقه كما مسرعاً:

- نحن من طيبة، ونحمل رسالة إلى القائد نب خنوم.

- أي رسالة هذه؟ لا يبدو أنكما من أهل القصر أو خدمه.

- إنها من قائد الجيش حور محب.

تبدل وجه حور الذي لا يدرك فعل رفيقه المحتال، ولكن بمجرد

أن ذكر اسم الرجل تبادل الجند النظرات، وقال قائدهم:

- هل تحملان أسلحة؟

أجاب كما ساخرًا:

- هل ترى أيًا منها؟

ابتلع حور ريقه وتعرق خوفًا من أن يكتشف الجند خنجر كما،

ولكنهم لم يفعلوا. قادوهما وسط الظلام إلى ثكنة قريبة، ومنها

تحركا رفقة آخرين عبر ممرات جبلية وعرة، إلى أن وصلوا إلى وادٍ
مضاء بالمشاعل يتوسط جوفه كهف يؤمنه. تبادل الجند التحية مع
رفاقهم الواقفين في الأبراج الخشبية، ومرة أخرى سُلّم الرجلان
إلى من يقودهما إلى عمق الكهف، حيث ينتظرهما قائد المدجاي.

فَمَ النَّاسُ

«يمنع رع من يمنع الصعود إلى قاربه
 ويمنع الغاصبين من بركة البقرة السماوية
 ويبارك ذلك الذي ولد قبل أن تنشأ الفتنة
 ذلك الذي حفظ عين حور قبل أن تُفقد
 من مزق خصيتي ست وقهر الأقواس التسعة
 هو فم الناس ولسان جحوتي خالق السلام
 هو فأس آمون وبطشه على الأرض».

كسحب عابرة مرت الأيام، واعتاد الناس ظهور الملك آي بأرجاء
 طيبة، تجول في الأسواق والأحياء، محاطاً بالكهنة والحرس والكثير
 من الأتباع. ازدهرت باحات المعابد من بعد ركود وشح، ووزع
 فرسان آمون حصصاً من الحبوب واللحوم على الأراامل والعمال.
 أسقطت الضرائب عن الزبيب والأخشاب والزيت والفضة، وخُفضت
 أسعار السلع من الجلود والخرز، والكلام يطير مع الهواء، نُسي أمر
 الملكة والقصر، وما قيل لم يعد يُقال، لا يشغل الناس إلا بطونهم،

وما يُملَى عليهم يصدقونه أُملاً في حياة هائلة، رددت ألسنتهم أسماء حاشية آي ومرافقيه، صار الكاتب معي يُذكر بكثرة في الأسواق، سمير الملك ووزير خزائنه، استطاع أن يوفر المؤن والبضائع، وذاع خبر بطولته في الكشف عن لصوص البر الغربي. واكتظ ميناء طيبة بسفن التجارة من الشمال والجنوب، وتزاحمت الوفود القادمة لإعلان الولاء والقسم، استقبلهم باسر الذي رُقي إلى قائد للحرس الملكي، ووجد الكاهن باواح، أعظم الرائين، مكانه عن يمين العرشين. حظيت عنخ إسن آمون بأكبرهما وأفخمهما، تعتمر تاجي الأرضين وتجلس ببهاء ملكي وجمال خلاب، إلى جوار زوجها، كهل متصابٍ متورد الوجنتين قوي الحضور، شاركته في جميع الطقوس، واستقبلاً معاً الرسل والنبلاء والأمرء.

يتردد آي على غرفتها كل ليلة، يجلسان بالردهة الملكية يُزحم رأسها بأمور السياسة والحكم وقصص الآلهة، تكفي بالإنصات ولا يمضي يوم إلا وتسأله عن تحوتي، وفي كل مرة يتعلل بتأجيل النظر في أمره قائلاً:

- هناك أمور أكثر أهمية من أمر ذلك الرجل.

لا تصدق أن حارسها وأمين سر أخيها خائن! كما ينعته، تجهل الكثير من الأمور عنه منذ القبض عليه، وكل ما تعلمه أنه ما زال بالبر الغربي سجيناً.

نهارها صار أكثر صخباً وإرهاقاً. في أيام توت كانت بعيدة عن دهاليز المُلك، والآن هي من تحكم، وتنظر في أمور الإنشاءات وتدابير البلاد، تسرف في شرب نبيذ الكرم وبالكاد تأكل، وأمسى

لديها طقس يومي لا تؤجله، تزور معبدًا صغيرًا أقيم بأمرها في بستان القصر، وضعت فيه تمثالًا صغيرًا لأخيها ومنضدة نذور حجرية، تأتيه مع كل غروب ترافقها خادمتها المخلصة نبت الحزينة على مآل حبيبها السجين، وإيبار كاهنة آمون المطهرة، التي كلفها أي بمرافقة ملكته بعد رحيل المربية مايا. أصرت السيدة أن تذهب إلى أقاربها في سقارة، حيث بُنيت مقبرتها، لم يعجبها ما يحدث، ولم يُرق لها أي يومًا، تبغضه هو وكهنته الذين امتلأت بهم جنبات القصر. جاء بهم من الكرنك ليكونوا خدمًا وعيونًا له، ولا تراهم إلا ثلة من المتعصبين، ولم يعجبها قرار الأرملة بالزواج من ذلك الرجل. تعللت أن صحتها لم تعد كسابق عهدها، وأن فراغًا أحدث بقلبها بعد موت ربيبها:

- مليكتي، لم تعودى بحاجة إليّ، أنتِ كبيرة كفاية لتقرري مصيرك.

تلك كانت آخر كلماتها قبل أن ترتقي سفينة الرحيل، ومن بعدها تهاست الوصيفات والخدم بأن الملك لا يبيت في فراش الملكة، لم يؤكد حديثهم أو ينفيه أحد، فكل شيء كان على ما يُرام بينهما، زوجان ملكيان باركتهما الآلهة ومنّت عليهما بالحكمة، التي اهتدى بها الملك أي إلى قراره في أمر من أسماهم بالخونة والقتلة.

في صباح اليوم التالي من مشاوراته مع الكهنة، انتشرت بشوارع طيبة دوريات من مشاة وفرسان آمون، قبضوا على قائد الشرطة حنت تانب وعدد من رجاله، وداهموا ضياع ومنازل بعض النبلاء، وأشيع في المدينة أن الرجل هو من أثار الشائعات والأقاويل حول ملكته، وأن مخطط انقلاب كان على وشك التنفيذ، لولا رحمة الآلهة وعونها،

والعامة يصدقون من يشبع بطونهم. أنزلوا سخطهم على معبد آتون وما تبقى من كهنته، وحُول الأمر إلى حكاية عن مؤامرة أسطورية يقودها أتباع الذي لا يُذكر اسمه.

برزت أشرعة بيضاء وحمراء لأسطول عظيم قادم عكس جريان النهر. أبدان حربية من خشب الأرز، تتقدمها سفينة عظيمة لها ثلاثون مجدافاً، ماجت بفعلها مياه النهر الداكنة وزبدت برهبة بلغت النفوس، اختلجت قلوب الرائيين على الضفتين، ركنت قوارب وطوافات الصيادين إلى جزر صغيرة، أمام أكبر سفينة رأوها تبحر يوماً، كزهرة لوتس عملاقة تطفو عكس التيار، وعلى سطحها كشك تعلوه منصة تظللها سقيفة من الخشب وستائر الكتان. اشرأبت الرؤوس والأعناق، وعين حور المرسومة على الأشرعة تفصح عن هوية القادمين، وسرت همهمات باسم الرجل، حور محب، الوصي السابق على العرش، وقائد الجيش الغائب عن طيبة منذ سنوات. اتخذ من منف معقلاً له ولجندة ليكون قريباً من جبهات القتال، بلغهم من عدة أشهر أخبار انتصاراته على قبائل أرض كنعان وفينيقيّا. فاتته طقوس تشييع ملكه، والآن يعود مع كتائب وفياتق جيشه المنتصر. استقرت سفينته أمام المرفأ الملكي على الضفة الشرقية، بينما أخذت بقية سفن أسطوله في التجمع. لُملمت الأشرعة ورُفعت المجاديف، تراصت متزاحمة بعضها إلى جوار بعض، ورُبِطت بحبال الليف حتى صارت كحصن طاف وسط نهر لُج.

* * *

ليلة معتمة تخلت فيها نوت عن زينتها من النجوم، وبدا خونسو

هزيلة كخيض أبيض رفيع لا يقوى على الإنارة، وجثمت الحيرة
والريية على قلوب أهل طيبة، ونال الأرق من الجفون، وخطفت
الأبصار جزيرة السفن الرابضة بين الضفتين، ورايات حور محب
فوق الصواري تخفق مع هبات ريح خفيفة. لم يتزحزح أي عن
شرفته، صرف الخدم والمحظيات عن جناحه مبكرًا، تفاجأ بقدوم
الأسطول مثل الجميع، ونال منه الجزع، وتساءل مرارًا كيف لم يرده
أي خبر عن صعود كل تلك السفن إلى موطن حكمه، ولكن هيهات
هو ملك الأرضين الذي اختاره ونصبه آمون. لقاءهما محتوم، وكل
شيء يخضع له بمباركة الآلهة أجمعين. فكر ودبر ما عليه فعله، ومع
ضوء الفجر الأول أرسل في طلب باواح وباسر ومعى وبقية مستشاريه
ووزرائه، وأمر بحشد فرسانه والحرس الملكي. تحرك رجاله لتنفيذ
ما أمرهم، والتفت حوله أربع من كاهنات آمون المطهرات، من وهبن
حياتهن لخدمة الملك، صامتات جامدات الملامح، مكتحلات
يعتمرن البواريك المطرزة. طهرنه بالملح والماء والتعاويد، ودهن
جسده بالزيوت والعمور، وألبسنه رداءً كتانياً أبيض، وشُد بطنه بحزام
مذهب عريض، وثبتت على معصميه أساور ذهبية خُتمت ونُقشت
بألقابه وطغرائه الملكية، وكحلت إحداهن عينيه، وبخرته الثانية،
وثبتت الثالثة لحيته المستعارة، والرابعة وضعت على رأسه تاجي
القطرين، المرة الأولى التي يعتمر فيها التاجين الأحمر والأبيض.
وأمام عينيه وفي النهر رأى القوارب الصغيرة تتجمع مصطفة أمام
جزيرة السفن، والبحارة يشدون جسراً خشبياً ليعبر قائدهم إلى طيبة.
لا أحد يدري كيف اجتمعت كل تلك الحشود، تراحم الناس،

واصطف الجند ليصنعوا حاجزًا وطريقًا للرجل المهيب. مترجلًا من دون خيل ولا عجلات حربية مشى رفقة معاونيه، ومن خلفه حملة الأعلام والرايات، وفرقة عظيمة من حاملي الرماح والدروع الطويلة تبعت خطاه. كان قصير القامة بارد المحيا، واسع العينين يحدهما ثمد الكحل، عريض الفك يزين شفثيه بابتسامة خافتة، يعتمر غطاء رأس فضي الخطوط، ويرتدي شنديت أبيض، ويتنعل نعلين جلديتين عريضتي الأحزمة. حُليه بسيطة لا فخامة فيها ولا بهاء، وسيف خاباش برونزي يتدلى من خصره، ويظهر جليًا مقبضه الذهبي الفريد. حياه العامة وهتفوا باسمه، وجالت عيناه في وجوه حفر الشقاء ملامحها، يرفعون أيديهم نحوه برجاء يلتمسون بركاته، ودبيب جنده يختلط بالصيحات، وفي كبد السماء ارتفع رع مشرقًا مشعًا يبارك حضوره، وعند بوابة القصر نُفخ في الأبواق ليعلن وصول الرجل إلى بوابة الصرح.

عبر وعُصبتَه إلى الباحة الكبرى، وبقيت فرقة مشاته بين العامة خارج أسوار القصر، تقدم بخطوات واثقة بين تماثيل الآلهة، ومن حوله تراص رجال الحرس الملكي بأزيائهم الذهبية ودروعهم البراقة، وعلى الدرج اصطف فرسان آمون وكهنته. استقبال باهر يليق بقائد الجيش العائد من بعد غياب. إلى يمينه متأخرًا بضع خطوات كان رعمسيس، مساعده الذي قيل إنه تخلى عن الملكة وطيبة وهرب، وبدا الرجل طويل القامة لا يأبه بتلك النظرات المصوبة نحوه، وعلى بوابة البهو الكبير استقبلهم باسر، انحنى أمام حور محب وكذلك فعل كل رجاله:

- التحيات لك يا قاهر الأقواس التسعة.

ربت حور محب على كتف باسر، وقال بنبرته الحادة المشحودة:

- باسر بن حوي، يليق بك زي قائد الحرس الملكي.

- إنه شرف كرممني به الآلهة.

- بالتأكيد، هو كذلك.

ابتسم باسر رافعاً رأسه:

- إن الملك بانتظارك منذ الأمس.

رد حور محب بسخرية جليلة:

- وأين الملكة؟

لم يتلقَ إجابة، والحرس يسحبون مزلاج الباب الكبير، الذي فُتح على مصراعيه كاشفاً البهو الملكي وأعمدته الملونة المصطفة على جانبي القاعة، وقرب درج العرش وقف رجلان إلى جوار الكرسي حيث يجلس رفيقه القديم. دلف حور محب ولحق به مساعده رعمسيس، ولكن باسر اعترض طريق الأخير، لم يرق للرجل ما يحدث، ولكنه استكان بإشارة من يد قائده، الذي خطا بثقة وعزة إلى القاعة وحده من دون رجاله، واتجه إلى حيث يجلس ملكه الجديد، وأغلق الباب خلفه.

يعرف بعضهما بعضاً جيداً، كلاهما كان من مناصري الذي لا يُذكر اسمه، راشدان ذهباً معاً إلى صحراء آخت آتون، وشاركاً في بنائها طمعاً في مجد ونفوذ لم يجدها، ملكهما الضعيف لم يكن يأبه إلا بنفسه وأسرته، وإلهه ذي الأيدي الممتدة من السماء، وتوالت هزائم فيالق المملكة شمالاً وجنوباً، وتمرد الأمراء والعامّة في

أصقاع البلاد، ووجد الخراب ملجأً في الحواضر والقرى، خوت
الأسواق وكسدت من بعد عمار، وخلت المعابد بأمر الملك
المُهرطق، الذي جُن وراح يعدم رجاله ويعزل بعضهم، وكان حور
محب ذا حظ، وإن أبعدت عنه محبوبته موت نجمت غصباً. احتفظ
برأسه بعد أن عُزل من منصبه، وخرج من المدينة يحمل بغضاً
وكرهاً، ارتحل إلى منف وبدّل اسمه مرة أخرى، تخلى عن آتون
وعاد تائباً إلى عبادة آلهته وما كان عليه أباًؤه. زهد الحياة وأغدق
جُل ماله على استكمال مقبرته الجديدة بسقارة، بدلاً من التي تركها
وراءه في آخت آتون الغاربة، بقي في المدينة ذات الجدران البيضاء
حتى مات أخناتون، وحين طلب منه أي النصيحة والمشورة لم
يixel عليه، وراقب من كُتب ما يحدث بين سنخ كارع ونفرتيتي،
وذاث يوم وبعد فراغه من تقديم قرايينه، جاءته رسالة استدعاء من
قائد فرسان آمون إلى طيبة.

وجدت الريبة مستقرّاً لها بقلبه، ولما غفا رأى الإله حور، جاءه
بجناحين من نور وضاء، أحاط به وربت بمنقاره المعقوف على
رأسه، وأخبره بأن يمد خطاه إلى طيبة، ليعيد مجد الآلهة من بعد
ما حاق بهم، وحل بين يدي الملك الصغير ساجداً مقسماً بالولاء،
وكان قلب توت راضياً مسروراً باختيار آي للرجل ذي الخطط واسع
النظر، وهكذا دبرت الآلهة مقاديرها، أصبح وصياً على عرش البلاد
وقائد جيشها، وأثبت للجميع أنه فذ منقطع القرين، أدهش الناس
بما خرج من فمه من حكمة وتدبير، وبينما كان آي يهتم بأمر القصر
والحاشية وما يخص الكهنة والتجار، أدار هو شؤون الأرضين من

منف، وعيّن له الكثير من المخلصين يبلغونه بكل واردة وشاردة. حمل على عاتقه أمر المملكة وفلاحها، وهو المهاب كلما حل بمكان، ونائب الملك على جميع الأنحاء. ينحني له الأعداء قبل الأصدقاء، يسجدون خضوعًا له، وتبسط أيديهم في حضرته مقدمين لمحياء التحيات، وعندما يحضر إلى طيبة يكون الخوف منه عظيمًا في أعين الناس، ويدب النظام في القصر حين يفتح فاه. رافق ملكه الصغير في رحلات الصيد التي يحبها، وعلمه ركوب العربات والقنص ومطاردة النعام والأسود، وكل قرار وخطوة كانا جزءًا من حكمة وتدبير الإله جحوتي. بسيط هو يحب رعاياه كما كان الإله أوزير، يبث السرور فيمن حوله ويرعى الحرفيين والصناع كممثل الإله بتاح، ويسير على نهج ماعت التي كانت تحميه بجناحيها أينما حل.

والآن يقف متطلعًا إلى آي ذي اللحية المستعارة وتاجي القطرين الأحمر والأبيض. طال الصمت، وعقد الكاهن باواح حاجبيه متبادلًا النظرات مع الكاتب معي، دار بينهما حوار صامت، كيف لا ينحني الرجل ويخر ساجدًا للملك؟! نطق الجالس على كرسيه ببرود لم يفلح في إخماد ما اشتعل بداخله من نار وحقن:

- أشرقت طيبة بحضورك يا قائد جيش مملكتنا.

بهدهوء يشوبه سخرية جليلة رد حور محب:

- التحيات لك يا كاهن آمون الأعظم وقائد فرسانه. يبدو أنني قد جئت متأخرًا.

مرة أخرى ابتلع آي مرارة كلمات محدثه الذي لا يراه ملكًا:

- لا عليك، نقدر تضحياتك من أجل البلاد وبسط سلطان آمون

- في الأرض، ونعذر غيابك بعد أن بلغتنا أخبار انتصاراتك في
 فينيقيا وخيتا، وإعادة سلطاننا على التخوم الشمالية.
- لم أفعل سوى واجبي المقدس وما كلفتني به الآلهة. وهأنذا
 هنا لأرى شيئاً لم يكن ليحدث لو أنني قدمت مبكراً.
- ألقى صمت ثقيل برحاله في أرجاء القاعة برهة، قبل أن يتدخل
 الكاتب معي قائلاً بنبرة جوفاء:
- كيف تُحدث والد الإله ملك الأرضين هكذا؟! في البدء تدلف
 إلى القاعة تقطر غطرسة وكبراً، لم تُحنِ رأسك ركوعاً، ولم تخر
 ساجداً لجلال ملكنا العظيم.
- كفى.
- هدر بها آي ورددها الصدى، نهض عن كرسیه متابعاً:
- باواح خذ الوزير معي، وغادرا الآن.
- انصاعاً لأمر ملكهما، وابتسم حور محب، وقال محدثاً إياهما
 فور مرورهما بجواره:
- أخبرا الحرس بأن يسمحوا بدخول هديتي.
- التفت معي بوجه مكفهر ناظرًا ناحية الملك الذي اكتفى بإيماءة،
 ولم تمض لحظات على مغادرتهما حتى دلف عبدان يحملان صندوقاً
 خشبياً صغيراً، وضعاه أمام قائدهما ورحلا، وما إن أغلق الباب
 خلفهما، نزل آي إلى حيث يقف حور محب وبينهما الصندوق، نظر
 كلاهما إلى وجه الآخر قبل أن ينطق الملك بلطف:
- أعتذر عما بدر من كاتبتي ووزير خزائني. من الصعب أن يجد
 المرء أشخاصاً مخلصين في مثل هذه الأيام.

- هذا يتوقف على معنى الإخلاص لدى البعض.

- أيزعجك أنني أصبحت ملكًا؟

- ليست التيجان وحدها ما تصنع الملوك.

- فعلتها مضطرًا بعد مشاورة كهنة آمون، وأيام من الخلوة في قدس الأقداس، ولولا طلب الملكة الأرملة، ما نصبتني الآلهة لأنقذ البلاد من الفوضى والثورة، هذا قدرتي الذي خطه الإله جحوتي. وكان موت الملك مفاجئًا للجميع، حادثة مفاجئة لم يتوقعها أحد. وكان عليّ التحرك.

- لا داعي للتبرير، ولكن كان عليك انتظار عودتي وأنا شريكك في الوصاية على العرش.

- أخبرني أنت ماذا كان عليّ أن أفعل؟! هلك كل الذكور من سلالة العظيم أحمس، وانتشرت كثير من الشائعات حول الملكة، هل كنت سأترك المسكينة لقمة سائغة للأقارب وحكايات العامة، أنت رجل حرب يا حور محب وتعرف أننا محاطون بالأعداء من كل جانب، وما زال هناك أتباع لآتون يثيرون القلاقل، يهاجمون سفن التجارة والقوافل بين المدن، وفي خضم كل هذا ترك رجالك مواقعهم وهربوا إلى منف.

توقف آي عن الحديث، وهو يرى تلك النظرة الساخرة على وجه حور محب، علم أن الرجل لا يُصدق كلمة مما يقول، وقرر مواصلة الحديث بنبرة بها مسحة من شدة:

- أفنيت عمري في خدمة هذه العائلة، كنت سيفها ودرعها ومنير دربها في أحلك الأوقات، وأرضعت زوجتي من ثدييها نفرتي

وأختها موت نجمت، وحملتُ على عاتقي إعادة عبادة الآلهة من بعد جحود الذي لا يُذكر اسمه، واهتممت بالصغير حيًّا، وكرمه ميتًا بدفن لائق، وشرفت بالزواج بالملكة العظيمة، وتلك هي قوانينا منذ ارتقى حور الذهبي إلى السماء تاركًا الحكم بأيدينا نحن البشر، ومن يُشيع الملك يصبح ملكًا.

- نعم هي العادة، ولكني لا أرى ملكًا أمامي، بل وضعًا من أخميم يرتدي تاجين لا يليقان به، ويرتعد مبررًا كل فعل ليثبت أحقيته بالملك.

زلزلته كلمات حور محب، رد بغضب:

- كيف تجرؤ على قول هذا، أيها الخائن؟!

- لا تتحدث عن الخيانة يا آي، كلانا يعرف ما صنعت بسنخ كارع وميريت آمون، وصلت إليّ رسائل أخرى غير التي أرسلتها تنعى فيها الملك، ولا أظن أن كهنة آمون وفرسانك سيستهجون حين يعلمون بأمر هديتي.

- كم أنت ماهر في تغيير الحقائق، لا أريد هدايا منك، فقط كل ما عليك هو أن تخضع لي وتقسم بالولاء، وإلا...

قاطع حور محب بغضبة:

- وإلا ماذا؟! إن فيلقًا من الرماحين الأشداء يقفون خارج هذا القصر، محاربون أقسموا على الولاء لي، ترى هل سيصمد رجالك المنعمون أمام حراب تشتهي الدماء؟! اسمع يا آي، لا أبه بك وما جئت إلى هنا إلا لأرى كيف تبدو في حلتك الجديدة، ولم تُخب ظني، متلون ينال من الفرص وينتهز السقطات.

- تهددني؟! أنسيت نفسك يا حور محب، أنا من صنعتك وجئت بك من النسيان إلى بهاء القصور ورغد الحياة مرة أخرى... قاطعه حور محب مرة أخرى:

- ولولاى ما بسطت نفوذك على الملك الصغير، وما كنت لتعتمر هذه التيجان الآن، ولكنها مشيئة الآلهة وغايتهم، فعلوا هذا لسبب ما وعلينا الانصياع لاختياراتهم، وعليك أن تفهم شيئاً، أنا لا أحمل لك أي ضغائن، ولا مانع لديّ بأن تظل ملكاً كما تريد، أرني كيف تحكم قبضتك على الأرضين بعدل ماعت وقدرة آمون، والآلهة وحدهم يقررون المصير، أما أنا فتكفيني محاربة الأعداء ودحرهم، وابق أنت هنا على هذا الكرسي كما تريد.

ظل آي جامداً بوجه ممتقع وعينين عكرهما احمرار غيظ. إن كان حور محب لا يريد العرش والمُلك، لمَ يفعل هذا ويتمعن في إذلاله؟! تمنى لو سحب خنجره وجزبه عنق ذلك المتغطرس الذي أخذ يتابع:

- أعلم يا آي، لا أدري كيف قبلت الأرملة الشابة بأن تتزوجك، ومنحك شرعية لا غبار عليها!

- إن عنخ إسن آمون، هادئة مطيعة أرهاقها ما حاق بأسرتها. إنها الزوجة الملكية العظيمة للإله آمون.

دار حور محب في أرجاء القاعة ببصره قبل أن يطلق زفرة أتبعها بقوله:

- أخشى أن تكون مثل أمها، وتلاعب بنا جميعاً، لقد أرسلت

زوجتك العظيمة برسالة إلى شوبليوليو ما ملك الحيشين، تطلب
الزواج بأحد أبنائه.

- إنها مجرد شائعات أطلقها الغوغاء من العامة والمتربصون
بالبیت الملكي.

- ما في هذا الصندوق يثبت حقيقة ما أقول.

انحنى آي متوجسًا ويبد مرتجفة أزاح غطاء الصندوق، وما إن
وقعت عيناه على ما بداخله تراجع فزعًا. ضحك حور محب من
فعله، وحدثه ساخرًا:

- إنه رأس الأمير ابن ملك الحيشين، صادفته مفرزة من جندنا في
أثناء عبوره إلى البلاد، وبعد استجوابه أقر بما كان ينوي فعله،
يبدو أن الفتاة تلاعبت بك يا ملك الأرضين، جاء ذلك الدنس
الوضع ليتزوجها.

أنهى كلماته واستدار متجهًا إلى باب القاعة، وقبل أن يخرج
التفت قائلاً:

- سأبقى في طيبة بضعة أيام قبل العودة إلى منف، إن أردت
شيئًا تعرف أين تجدني، وأرجو أن تنال هديتي إعجاب ملكتك
العظيمة.

غادر المتبجح تاركًا الملك وقد استولى عليه الغضب والقلق،
وسط عاصفة من الشكوك والظنون، إن كان قوله صائبًا، فهذا يعني
أن امرأته تُكيد له وللبلاد شرًا، ولكن كيف أرسلت مثل هذه الرسالة
وأعين أتباعه لم تفارقها؟ لعله كاذب يريد الفرقة بينهما بأقاويله
هذه. تطلع آي إلى رأس الأمير بالصندوق، هو إعلان حرب في غير

وقته، وللمرة لا يدري كم عددها لام نفسه، لجعله حور محب قائدًا للجيش ووصيًا على العرش، وإن أراد البقاء ملكًا للبلاد فعليه أن يتحرك بكل حزم وقوة ودهاء.

* * *

حطَّ عصفور رمادي على حافة حوض اللوتس، بالكاد ارتشف من مائه قبل أن يخفق بجناحيه هاربًا، أفزعه انقضاض شبل أسد يلهو محاولًا الإمساك به، حلق النُّغير مغردًا فرحًا بنجاته، وعلى كرسي قريب جلس حور محب مسترخيًا يتابع قفزات سبعة الصغير، تجاوز عمره خمسة أشهر منذ أن جيء به إليه، انتوى إهداءه إلى الملك توت، وهذا ما أعلنه حين وقعت عيناه على ذي الفراء الذهبي، والآن صار رفيقه في كل رحلاته، وها هو ذا يحل معه بقصر منيف، كان يومًا لأحد إخوة أمنتب الثالث، آخر العظماء من سلالة المحارب المحرّر العظيم أحمس. صورهم وتماثيلهم تُحيط به أينما قلب وجهه، كانوا آلهة عبّدوا وقُدسوا في الحياة قبل الممات، ودانت لهم الدنيا وعُظمت سيرتهم بما كسبوا، ودار الزمان وجار على نسلهم بما فعل المهرطق، كم يبغض ذلك الرجل الذي بدّل الدين والبلاد، لم ينسَ أنه كان تابعًا له ذات يوم، وما زال في قلبه ذنب عالق من تلك السنين الغابرة، سفك الدماء ودنس المعابد بأمر ذلك المغبون، يستحق المحو والنسيان على ما فعل بأرض الآلهة وأهلها، وفي خضم شروده قفز الشبل إلى حجره مباغتًا، ابتسم لفعله وأخذ يداعبه ويفرك فراءه، وديع حتى يكبر ويصبح قاتلاً، لا أحد ينسى أصله وما كان عليه أسلافه، والآلهة هي من تختار المصير الأمثل، وما حدث لتوت كان خيار

آمون حتى لا يصبح مارقاً مثل أبيه، أما آي فليس سوى كهل مرتد يدعي محبة الآلهة، انتهازي يطمح إلى أن يكون ملكاً عنوة.

قبيل المغيب جاءه مساعده رعمسيس، استقبله جالساً ومنح الشبل إلى خادمه ليرعاه، أوصاه بأن يُطعمه جيداً وألا يغيب عن عينيه، وحدث رئيس جنده:

- إن تربية مخلوق كهذا كترية طفل صغير، يحتاج إلى عناية ومراقبة دائمة.

- محظوظ هو بأن يشب في كنفك يا حاضر الخطط.
أوماً برأسه موافقاً، ونهض عن كرسيه متوجّهاً إلى تمثال آمون:
- نعم هو كذلك، ولكنه بالنهاية وحش تتحكم فيه شهيته ومزاجيته، أتعرف ما يفرقنا عن تلك المخلوقات؟ أنها تفعل ما تريد من دون أي شعور بألم أو ندم، هل رأيت يوماً أسداً يبيكي على غزال اصطاده؟! وهذا ما وجب علينا اكتسابه وتعلمه من تلك الوحوش، ألا نشعر بندم لشيء اقترفناه عن قصد أو بغير ذلك، وعلى الرغم من أن الآلهة ميزتنا عنها بكثير من الصفات والقدرات، فإن قلوبنا واهنة، حتى وقت قريب كنت أسأل نفسي، هل كل فعل نحن بفاعليه هو لإرضائها أم لأنفسنا الشبهة والتواقة للمزيد؟ واهتديت إلى أننا جميعاً نسير وفق خططها، هي في الأعلى تنظر كيف نصنع، ونحن هنا على هذه الأرض نرتع في نعيمها، ونبتغي الخلود والمجد إلى جوارها.

- سيدي، لديّ سؤال يؤرقني.

- أعلم ما تود قوله، إن كنا سنرحل خلال أيام، لمَ جئنا كل تلك المسافة بهذا العتاد والجند؟
- ابتسم رعمسيس ولمعت عيناه، وهور محب يتابع:
- إن أهل طيبة بحاجة إلى الطمأنينة، ورؤية فيالق الجيش المنتصر أبهجتهم من بعد حداد على الملك الراحل. وكذلك وجب علينا تقديم الولاء للملك الجديد.
- إن الجند والناس يقولون إنني خائن، تركت واجبي وهربت إلى منف.
- دعهم يقولوا ما يريدون، أنا أثق بك وأعلم أين يكمن ولاؤك، كل شيء يُنسى يا رعمسيس إلا الأمجاد، هناك ملوك وأمراء كُثر اتُّهموا بالخيانة ذات يوم، والآن هناك قصص تحكي أمجادهم وبطولاتهم على الجدران، تعرف لماذا؟ لأنهم امتلكوا القوة والقدرة على الصمود في وجه نوائب الدهر، استحقوا التيجان التي منحتهم الخلود إلى جانب القوة والسلطة، وحين يُنصب المرء ملكًا يصير إلهاً خالداً.
- ابتسم رعمسيس متفهماً لحكمة سيده:
- حين كنا ننتظرك خارج قاعة الملك، سألني باسر ما الذي يحويه ذلك الصندوق المتواضع، لا أعلم السر في إخفاء الأمر. وقد خشيت ألا يعجب الملك بالهدية.
- قد لا تكون أعجيبته، ولكنها ستوقظه من هيامه بالخائنة، إنها مثل أمها وأبيها، ما زالت تعتقد وتؤمن بآتون!
- هز رعمسيس رأسه مؤكداً:

- سيدي، ما لا تراه الأعين تؤكد الألسنة والسيوف والرؤوس. عيناه لم تفارقا وجه حور محب، مثله الأعلى الذي ارتقى درج المجد وحده، من كاتب للمجندين إلى قائد جيوش مصر، وواضع خططها المنتصر، هو الغامض الذي لا يتحدث بأكثر مما يريد، شخصية عجيبة ليس من السهل سبر أغواره، داهية لا يفصح عن حقيقة ما يخفيه، ولعل هذا ما جعله في تلك المكانة، يستميل الناس بكلماته ولباقته، ولا يخفي عداوته لآتون وأتباعه، رجل صريح لا يخشى قول الحق. تعلّم منه الكثير في الحرب والسلام، وتمنى في قرارة نفسه أن يصير ابنه سيّتي مثل قائده المهيّب الذي اختار اسم الصبي. طال الحوار بينهما عن أحوال البلاد ونفوذ كهنة آمون، وعن القادة والنبلاء والكهنة الذين قبض عليهم. أخذوا يراجعان التقارير وهمسات العصافير، وجاء أحد الحرس ليعلمهما أن قائد المدجاي نب خنوم بالباب، يطلب المثل أمام فم الناس المبجل حور محب، سيد الأقواس التسعة.



يقال إن الإله خنوم وقت حرب الآلهة، مضى إلى العزلة بجزيرة إلفنتين، لم يشغله أمر أوزير و حور وست ولم يستنفره الصراع القائم في السماء والأرض. كانت له مهام أخرى كلفه بها آتوم رع، الذي منحه زوجتين خصيبتين، تعجنان له الطين وتقدمانه إليه كل صباح، بينما يجلس هو على عجلة الفخار ليصوغ ملامح وأجساد البشر، وتصب زوجته عنقت وساتت المياه ليجري فيضان الخير، هو المعطاء الذي يعرف مكنون صدور من خلقهم، وهو المحايد منذ

زمن جب ونوت، كان أول المغادرين للأرض رفقة حور الذهبي إلى مقصورة الشمس، بعد أن أتم مهمته وملاً الأرض بشراً، وتسمى الناس باسمه كمثّل قائد المدجاي النوبي الذي اتخذه مثلاً أعلى في السلم والحرب، والبشر ليسوا كما الآلهة.

حين جاء الشابان ينشدان عون نب خنوم، أنصت الرجل لهما ووعد بأن ينظر في أمرهما، وأكد لهما أن رجاله سيبحثون عن السجينين. كان في حيرة من أمره، بات هناك من يعرف صنيع أي، الذي نصب نفسه ملكاً رغم أنف الجميع، تحدى المرتد الآلهة ومشيتها باغتصابه للعرش، ولا يفهم كيف وافقت الملكة على ذلك، لولا رآها بجواره سليمة معافاة لصدق تلك الأقاويل أنه أجبرها، بدت راضية مرفوعة الرأس. طوال سنوات تحاشى الدخول إلى عصف الصراعات، ونأى بنفسه ورجاله عن الفتن ودسائس الحكم، وبعد قضائه عدة أيام في خلوة مقدسة، أوعز إلى الرّسام حور حتب بأن يعود إلى مدينة العمال، كي لا يثير غيابه الشكوك، شعر بصدق ما قاله الشاب، ويذكر أنه رآه مع تحوتي الذي اختفى قبل تشييع الملك، أما الآخر الذي يدعي أنه قريب الكاهنة المتهمّة بالسرقة، فغامض مريب، أبقيه على مقربة منه، تحت عينيه وبين قبضة المدجاي. ومرت الأيام حتى حُمل إليه خبر وصول قائد الجيش، صعد إلى قمة الجبل ورأى ما أخبر به، جزيرة من السفن تعترض مجرى النهر. جمع رجاله المقربين وتشاور معهم، وانتهى إلى أن يذهب لمقابلة القادم من منف، رفض أن يصحبه أحد إلا رجلين، أراد كالأذهب معه ولم يتلق سوى نظرة ساخرة وجملة مقتضبة:

- ابقَ هنا، ولا تمتدِ الحماقة، إنك لن تأخذ إلا ما قُدر لك.
وفي قصر حور محب، حظي المدجاي العجوز بترحاب بالغ،
أحاط به الجند والكتّاب والخدم والابتسامات، يتباركون به وهو
المحارب العتيد، آخر رفقاء أُمَنحتب العظيم. استقبله قائد الجيش
المهاب فاتحاً ذراعيه، وضع كلُّ منهما يده على كتف الآخر، والعجوز
الأشيب يحدثه بصوته الأَجش:

- لم أصدق أنك جئت إلى طيبة، حتى رأيت الأبدان ذات
الصواري القوية.

ضحك حور محب وربت على كتف ضيفه:

- مر زمن منذ التقينا آخر مرة أيها المدجاي، أتذكر آخر لقاء بيننا
أم أن السنون جلت ذاكرتك؟

- خلقتني الآلهة من صخر، وما يُحفر في الجلمود يبقى.

- باركتك الآلهة أيها القائد المبجل.

- كان ثالثنا الصغير توت ذا الوجه الباسم والروح النقية.

بدا على وجه حور محب الأسى وهو يحثه على السير:

- الموت سُنّة أوزير، وللخلائق منها نصيب محتوم. علمت أن

المرض اشتد عليه قبل فترة من رحيله، ولعل فيما حدث راحة

له أن اجتنبته الآلهة إلى جوارها.

عقد النوبي الغليظ حاجبيه، وضافت حدقاته، واحتقن صوته

الخشن:

- يبدو أن رسائلي لم تصل إليك.

- لم يصل إليَّ سوى رسالتين، الأولى من باسر بن حوي، وصلت

إليّ قبل خروجي من قادش إلى فينيقيا، عندها قطعت رحلتي
وعدت أدراجي لتصل إليّ رسالة آي وأنا على تخوم أون، وحين
بلغت منف وجدت المعزين في انتظاري. وهذا ما أخبرني عن
تشيع الملك.

- قبل جنازة الملك أرسلت إليك، لأعلمك بشيء جلل.
- ربما وصل رسولك بعد رحيلي عن منف، هانحن أولاء نسير معًا
ونتسامر كالأيام الخوالي. أخبرني بما تود قوله وإني لمنصت.
باقتضاب رد الكهل:
- قُتل الملك.

تبيست قدما حور محب، توقف عن المسير بعد أن جمدت
الدماء في عروقه، تبذلت ملامحه وأخذ يحملق إلى وجه المدجاي
الذي تابع:

- هناك شاهد من الحرس الملكي، فارس يُسمّى «تحتوي بن عحا
المنفي»، هو من كان يحقق في الأمر، ولما حل شباك اللغز كنت
برفقته، ورأيت بعيني الدليل على صدق قوله...
قاطعته حور محب بخفوت:

- هل تعرف القاتل؟!
- آي، هو من فعلها، دبر كل شيء من البداية، وتوّج نفسه على
جدران مقبرة الملك معتمرًا التاج، وذلك قبل إعلان زواجه
من الملكة بأسابيع.

- لعلها شريكة له في الجرم.
أشاح نب خنوم بيده نفيًا:

- لا، ليست كذلك، رأيتها وتحدثت معها، إنها بائسة خائفة من بعد فقدانها آخر فرد في عائلتها.

تبدلت نبرة حور محب إلى الغضب:

- وإن كنت على علم بكل هذا، لماذا لم توقف تتويجه ومؤامرتة؟! - المدجاي لا دخل لهم بهذا، ولن أسمح بأن تُراق الدماء على أرض البر الغربي المقدسة باسمي، كما أن فرسان آمون لديهم عتاد وعربات ما ليس لرجالي، لن أكون أول من يبدأ معركة تؤدي إلى هلاكنا جميعاً.

- لكنك تسمح بأن يعلو عرش البلاد قاتل مغتصب؟! ألم تقسم أنت ورجالك على خدمة الملك والآلهة؟!

- فعلنا وما زلنا على قسمنا للملكة والبلاد، وما جئتكم اليوم إلا لندبر الأمر ونرى ماذا نصنع، أنت قائد الجيش وحاضر الخطط، فم الناس ولسانهم، وأنا على يقين بأنك ستعمل العدالة مع أي الدينيء.

تقدم حور محب بضع خطوات إلى الأمام، أخذ يتطلع إلى طيبة وعمائرهما من شرفة البهو، ولما طال صمته جاءه نب خنوم ووقف إلى جواره ليستطرد:

- أعلم أن وقع ما قلته ثقیل على قلبك، إنه محاط بكهنة آمون وله الكثير من الأعوان المخلصين، باواح كان يعلم بالأمر وهو من وجه الرّسّامين، وكذلك الكاتب ذو البطن المترهل المُسمّى «معي». أضف إليهم جمعاً غفيراً من الفرسان والجند، ولا أعلم أين يقع ولاء الحرس الملكي وقائدهم باسر ابن حاكم كوش،

أيضاً قبض آي على كهنة معبدَي موت وخونسو، وقائد شرطة
طيبة وثلة من رجاله.

- إن صدقت فيما تقول، فإن محاولة الإطاحة به الآن قد تنهك
المملكة، وتضعنا في لب فوضى تمتد إلى عقود لاحقة، أين
ذلك الفارس الذي ذكرت؟!

- تقصد تحوتي! لم يعثر على أثر له منذ قبض عليه، ولا أحد
يعلم أين هو، وهناك آخران يبحثان عنه، كان قد أفضى إليهما
بأمر قاتل الملك.

عقد حور محب حاجبيه:

- يبدو أن الكثير قد فاتني، من هؤلاء أيضاً؟!
- رسّام مقبرة الملك يدعى «حور حتب»، والآخر قريب لإحدى
كاهنات أنوبيس، ممن قبض عليهم بتهمة سرقة أغراض الملك
ويدعى «كا سرق».

- هل تثق بهما؟!

- علمتني الحياة أن الشخص الوحيد الجدير بالثقة، هو نفسي،
وأن ست سيد الفوضى والظلام له يد على كل ذي قلب نابض،
لكن لا بأس بهما.

التفت حور محب إلى المدجاي الكهل:

- حسناً، عُد أنت إلى ثكنتك ورجالك، وانتظر خبراً مني، وأبقِ
الرجلين تحت عينيك، واحرص ألا يُشاع الخبر، حتى أتُحقق
من الأمر، وننظر ما نحن بفاعلين.

* * *

مأدبة ضخمة باذخة أقيمت بقصر الملك، دُعي إليها الأمراء والنبلاء والكهنة، وأكابر التجار والموظفين، عُلفت الزينة والرايات، وأوقدت المباخر في زوايا الصرح، ونثر الورد على الأرضيات والطاولات العامرة بصنوف الأطعمة والفاكهة، وفاضت أباريق العصير وأقداح البيرة والنيذ، وامتلأت جنبات القاعة بأهازيج وضحكات وصخب السمير. ارتدت النسوة أزياء فاخرة تباهين بتفردھا وتفصيلاتها، وغطت الرقاب والأذرع حلي ثمينة، وغازلت القيان أوتار القيثارات بترنم خفيف مطرب، وفاض بالمكان لحن عذب مسه شجن المزامير، ودقت الدفوف والشخاشيخ بتناغم، وتمايلت راقصات نحيلات الخصر مكتنزات الأرداف بغنج ودلال، بيض متوردات وسُمر حسان، عاريات إلا من حلي وشرائط رفيعة، وأخفين وجوههن بأقنعة سيدة البهجة والسعادة حتحور، وعلى رأس المائدة الكبرى كانت الملكة عنخ إسن آمون، صاحبة الدعوة ومقيمة الحفل الذي ندر رؤية مثله منذ سنوات بعيدة، فاتنة بثوب أسود فضفاض مذهب، وتعتمر تاج نخبيت أنثى النسر الحامية والتي تدلى جناحاها الملونان على جانبي رأسها. مكتحلة العينين تدور بهما في الحضور، تبتسم وترفع كأسها بتحيات فتخضع لها الرؤوس تبجيلاً، بدت في أعين البعض كإلهة السحر والحكمة إيست.

إلى جوارها يجلس زوجها، الملك آي معتمراً نمساً مخططاً بالأحمر والأبيض ويزين جبهته برأس صل الكوبرا وادجيت، راقب الوجوه والكؤوس تدور، الجمع منتبهج إلا هو واجم صامت، يؤرقه ما كان بينهما بالأمس من حديث لطيف، هل عليه أن يخشاها، أم

يصدقها ويتماها مع ما أصبح عليه؟! ذلك اللعين حور محب كاد
يقلب بعضهما على بعض، إلا أن ملكته الشابة هونت عليه وقع ما
حدث، احتوت ثورته، وأقسمت أمام آمون إنها لم ترسل إلى الحيشين.
سحرته بجمالها النابض بالحياة، وأحس بما علق بروحها من ألم،
صادقة لا سبيل للكذب على لسانها، وناعمة كصل كوبرا سوداء.
أثارت بداخله شبقاً فريداً، لا يدري كيف خضع لها ولانت عزيمته،
وأقامت ذلك الحفل كيداً، لتظهر للجميع كم هما على وفاق. مالت
إليه وهمست في أذنه:

- كل ما يهمهم هو رؤيتنا بعضنا إلى جوار بعض، كان من الخطأ
أن تُقابل ذلك المتبجح وحدك، ها هو ذا يراقبنا بطرف عينه.
ابتسم يا مليكي وأظهر كم نحن سعيدان.
ضحك آي لافتاً الأنظار إليهما، وتورد وجهها بحمرة خجل، لا
يدري إن كان مصطنعاً أم تلك روحها الحقيقية. تذكر حديثهما ليلة
أمس وهي تدافع عن نفسها أمام أكاذيب حور محب، وكيف ركلت
رأس الأمير الحيشي، كلبؤة شرسة أخبرته بأنها ستقتل من يمسها بسوء،
أقنعتة بسلاسة ويسر عن ضرورة توافقهما، من أجل الآلهة والبلاد،
وأن عليه ألا ينسى أنها سليلة نسل مقدس، وصدقت ابنة أبيها، لولاها
ما وُضعت التيجان على رأسه الأصلع يومًا. مال ناحيتها هامساً:
- يبدو أن طعام المأدبة وشرابها لا يروقان لقائد جيوشنا.
رمت طرفها ناحية حور محب الذي وضع راحة يده على فوهة
كأسه، لكيلا يصب له الساقى، وأطباق طعامه التي لم تُمس، ابتسمت
بدلال:

- انظر إلى ما أنا بفاعلة.

قامت الملكة عن كرسيها، وكذلك فعل أي، فتوقفت القيثارات وجمدت الراقصات من فورهن، وخفضت رؤوس الحضور جميعاً ركوعاً خاشعين، وتعلقت بها الأعين، بينما كان حور محب ومساعدته رعمسيس آخر المنحنيين أمام جلال الملكة. حملت كأسها ورفعتهـا: - التحيات لحتحور سيدة شجرة الجميز، المبهجة حاضنة الأرباب وراعية الملوك، التي بفضلها ننعم بالفرح ويعم جمعنا السرور، والتحيات لأنوبيس حارس قاعة الحساب المطلع على القلوب. تغمرني الليلة الغبطة بوجود مخلصين أمثالكم حولي. ارفعوا رؤوسكم ولتُملاً الكؤوس وترفع إلى الأفواه لترتوي أنفس الحاضرين، وليُبعد حور السماء عنا شرور نون وأتباعه، باسمي أنا ملكة الأرضين ووريثة نوت وجب، ابنة آمون رع سيد الآلهة والبشر.

فاضت الأقداح والكؤوس، ورُفعت تحيةً للملكة الفاتنة، شرب الجميع فرحين مهللين بالمجد والمحبة لعنخ إسن آمون، وتجرع حور محب ما صُب إليه من بعد تردد، ولم يفلح النبيذ الحار في زحزحة الغصة التي تملكّت من صدره، وعيناه لم تبعدا عن وجهها وبسمة النصر على شفيتها. جلست وانحنى زوجها مقبلاً جبهتها، فضربت الدفوف واهتزت أوتار القيثارات من جديد، وضجت القاعة وماجت بهرج وفرح. انغمس الحضور في ملذاتهم وارتفعت الضحكات، وعاد هدير الأحاديث الجانية، ونهل الجميع مما طاب لهم من الملذات والشهوات، قُبلات محمومة بالسُكر وأجساد عارية تتلوى،

تحت نظر وسمع ملكتهم القوية البهية، وملكهم الباهت الجالس بجوارها، يفكر في خطة زوجته التي نجحت كما أرادت. قبل أشهر ظن أنه المسيطر على الأوضاع، وأن الآلهة منحته فرصة عظيمة ليكون ملكًا إلهًا مخلدًا كمن سبقه من الملوك، كان بحاجة إليها وإلى دعمها، لا يهمه إن كان في أعين البعض، وعلى رأسهم حور محب، مجرد تابع لشابة طموح تطمع في أن تكون ملكة عظيمة مُخلدة.

تحلى قائد الجيوش ببرودة اكتسبها من وجوده في جبال فينيقيا، هناك رأى الثلوج البيضاء وقاوم ورجاله الصقيع والأهوال، لم يفتت في عضده ضحكات الملكة وزوجها الكهل، بداله أنهما على وفاق، وأن محاولته للإيقاع بينهما لم تؤت ثمارها، ولكن ماذا لو علمت عنخ إسن آمون أن الجالس بجوارها، هو قاتل أخيها كما يعتقد قائد المدجاي الغائب عن الحفل؟! ارتشف ما تبقى في كأس شرابه وهو يتذكر أخناتون البغيض، ذلك الرجل الذي بدّل دين الأجداد والآباء، وخدعهم بضلاله وحرم عليه الزواج بمحبوبته، وتمعن في إذلاله ونفيه. وجوه عدة مرت واستقر بصره على الملكة الفتية، لن يغامر بالتقرب منها أو البقاء في دائرة نفوذها الصغيرة، يعلم أنها لم تضاجع ذلك الكهل المتصابي يومًا، ويعلم أنها تزور نصب أخيها كل يوم، ولكنه لا يعلم ما بنفسها وما تدبر له، يبغضها وهي التي تسببت في فضيحته وخالتها ذات يوم، ورثت من دهاء أمها الكثير، وتُشبهها في الهيئة والصورة، كم يمقتها وكل عائلتها التي لم يتبقَّ منها سواها. ليست سهلة المنال ولا ضعيفة كما ظن، تتحدث عن الآلهة وتسقيه نخبها جبرًا. دار في أرجاء القاعة العامرة بأتباع أي والموالين له،

غارقين في الترف والمجون والبلاد على حافة الفوضى والضياع،
وفي زاوية بعيدة يقف باسر بن حوي جامدًا، عاقدًا يديه خلف ظهره
ينظر إليه بعينين كهوتين سحيقتين.



مرت أيام على المأدبة ومن بعدها زيارة حور محب للكرنك،
يقولون إن الرجل تقرب إلى الآلهة بكنوز أتى بها من بلاد بعيدة،
ومكث يومين في خلوة داخل قدس الأقداس، وفي اليوم الثالث
خرج واغتسل متطهرًا في البحيرة المقدسة. باركه الكهنة، وعلى
رأسهم موت نجمت، كاهنة آمون المطهرة، العذراء التي لم تطأ
قدمها خارج المعبد منذ ما يقرب العقدين، يسمونها ابنة آمون
الصائمة عن الحديث، ولا ينطق لسانها إلا للآلهة. وسرت بالقصر
والمدينة همسات تؤكد أنها جالست حور محب وحدثته، وبعدها
أبحر صوب منف، مضى تتبعه الدعوات والأهازيج، وقد أعلن أنه
ذاهب لملاقاة العدو الذي يحشد جيوشه على تخوم قادش، ترك
طيبة من ورائه ليرتع فيها آي وملكته كما يحلو لهما.

سأذهب لتأدية واجبي تجاه الآلهة والبلاد، وعليك المثل، لا
تثق بأحد في طيبة ولا تصدق كل ما يُشاع.

تلك كانت آخر الكلمات في رسالته التي بعث بها إلى قائد
المدجاي، منحه أيضًا بضعة رجال أشداء ليعاونوه في المهمة التي
أوكلها إليه، وصندوقًا من النفائس لتُنفق على خطتهم لإعادة الأسرى
ممن غدر بهم آي. زج الكهل النوبي نفسه إلى داخل لعبة لطالما
تحاشى الولوج إليها، ولن تصدق الملكة أحدًا إلا ذلك الحارس

الغائب، وتلك هي البداية لإزاحة المغتصب عن عرش البلاد. وفي مغارته بجوف الجبل، وأمام تمثال خنوم جمع المقربين المخلصين يتقدمهم حور وكا، وبدأ في شرح خطته، مفصلاً عما ورد إليه من أخبار حول السجناء:

- من حسن طالعنا أن الفساد يرتع وينمو بين فرسان آمون، وبدلاً من أن يُقتل الأسرى لجرائمهم التي ادعاها آي، باعهم رجاله إلى مجموعة من المرتزقة، وما خلصنا إليه من بحثنا الدؤوب، أن قافلة هؤلاء الخارجين عن القانون حملت من نبتغي إلى أعالي النهر، اتجهوا إلى كوش براً منذ قمر، وإن صدق حدسي سيبيعونهم في حصن بوهين، حيث يتوافد النحاسون وتجار الذهب والنحاس. سيقود جمعكم هذا رجلي جَدَف با، عليكم طاعته وعدم مخالفته الرأي. لقد أولى قائد الجيش حور محب إليكم بأن تتحلوا بالشجاعة والصبر، وأن تمضوا في معية الآلهة وعلى أعينها حتى تعودوا مكللين بالفلاح، وتذكروا أن حياتكم مهمة بقدر حياة ذلك الأسير تحوتي بن عحا المنفي. أمامكم يومان للرحيل، سيكون الإبحار أصعب الطريقين وقد بدأ الفيضان. ستذهبون براً، وتحاشوا دخول المدن والاقتراب منها. انفض الجمع، وخوى المكان ذو الزوايا المعتمة إلا من الرجل والشابين، أطال النظر إلى وجهيهما قبل أن يحدثهما:

- وعدتكما بالمساعدة وهأنذا أوفي بعهدي إليكما. وقد حظيتما بثقتي ودعم حاضر الخطط حور محب، أرجو أن تفلح مساعينا فيما نحن مقبلون عليه، وأن تجدوا ذويكما في خير حال.

أوماً حور برأسه، ورد كا:

- نأمل ذلك، ولكن هل تسمح لي بالنزول إلى المدينة الجنائزية، هناك أغراض عليّ أخذها معي.

وأضاف الرّسام دمث الخلق:

- أنا أيضًا أريد الذهاب إلى مدينة العمال، للملمة أغراضي.
لم يستسغ نب خنوم طلبيهما، وبدا ذلك على وجهه وهو يحدثهما:
- لستما بحاجة إلى أي شيء، سأوفر لكما كل ما تريدهما.
نطق كا فور سكوت الرجل:

- سيدي، يمكنك أن ترسل معنا بعضًا من رجالك، ليتأكدوا أننا لن نخبر أحدًا بما نحن مقبلون عليه. ولكن أنا بحاجة إلى الحصول على أغراضي التي أخشى ضياعها إن تركتها خلفي. ثق بنا كما وثقنا بك، أنا هنا لأكثر من شهرين لم أخرج عن نطاق ومحيط مغارتك، هل وجدت مني شيئًا يغضبك أو يجعلك تسيء الظن بي، وهذا حور تركته يذهب ويأتي كما يحلو له.

- هذا رسّام مشهور بين أقرانه وليس مثلك. ولكن لا بأس ستذهبان رفقة رجالي إلى حيث تريدان، أما أنت يا حور فأخبر رفاقك في العمل بأنك ستعود إلى منف. ووفق علمي أن العمل بدأ في مقبرة آي، وهم بحاجة إلى كل الحرفيين المهرة من أمثالك، اختلق عذرًا مقبولًا، هيّا اذهبا.

* * *

رحلا عن المكان رفقة رجلين من المدجاي، لم يتحدثا طوال الطريق إلى غايتيهما، وبداخل كل واحد منهما اشتعلت جذوات

الفكر. في الأسابيع الفائتة كان لحدود جليس وصاحب جديد، سن نجم الصبي الذي يُذكره دومًا بالإله نفرتم، فطن سريع التعلم، تلميذ نجيب هون عليه الأيام، وأتى له بصنوف شتى من الطعام الذي تعدّه أمه، ووثقت به السيدة بعد أن علمت أنه أحد رسّامي مقبرة الملك توت، أو صته بتعليم صغيرها ما استطاع من فنه، ولم يكن بحاجة إلى وصيتها. وكلما اقترب من مدينة العمال تتزاحم الأفكار والذكريات القريبة برأسه، وعند بوابتها افترق عن كا وحارسه، ومضى هو ومعه الحارس الآخر، عبرا الطرقات الضيقة. تمنى أن تكلل رحلتها بالنجاح، وأن يجد تحوتي ويحرره من الأسر، ويعودا إلى منف حيث ذووهما. دلف إلى البيت وبقي المدجاي بالخارج، لم يغلق حور الباب خلفه ليسمح للرجل بأن ينصت ويرى ما يحدث بالداخل. التقى رفاقه الثلاثة، سأله باثاي عن سبب غيابه. في كل مرة كان يتعلل بالذهاب إلى معبد حتحور القريب، ولم يتردد في النطق باقتضاب وهو يللم أغراضه القليلة وأدواته وعدته:

- سأعود إلى منف.

- لم؟ هل حدث شيء ما؟

- والداي بحاجة إليّ، وصلت إليّ رسالة منهما وعليّ العودة.

تدخل بانحسي ذو الوجه الممتلئ قائلاً باستغراب:

- حور، هل هناك خطب ما لا تود قوله لنا؟!

- أنتم إخوتي يا بانحسي، وشرفت بالعمل معكم. والآلهة تشهد على ذلك.

عقد باثاي حاجبيه، وكاد يقول شيئًا، لولا أن سبقه بتتاور:

- أرجو أن يكون والداك بخير يا حور، وأن تعود قريباً للعمل معنا في مقبرة الملك آي. لقد وصلت إلينا للتو توصيات رئيس العمال، وسنذهب في الصباح لبدء ترتيبات العمل. أوما برأسه موافقاً وحمل جعبته. ربت بتاور على ظهره واحتضنه بانحسي، وقال له باثاي بغلظة:

- ألن تخبر رئيس العمال والكاهن باواح بأمر رحيلك؟
- سأدع الأمر لك يا باثاي، أنت كبيرنا هنا.

ودعهم وخرج تتبعه نظراتهم المتعجبة من رحيله المفاجئ، ورأى ثلاثتهم المدجاي الذي ينتظره بالباب. مشيا والرجل يشيد بسرعة إنهائه لما جاء من أجله، ابتسم وكاد يقول شيئاً، لولا أن تبخرت الكلمات حين رأى سن نجم على مقربة منه، التقت أعينهما والصبي يقف حاملاً بيده ورقة بردي:

- أيها المعلم حور...

بدا التملل على وجه الحارس، وخطا حور باتجاه الفتى من بعد جمود:

- سن نجم، كيف حالك؟

مد الصغير يده بالبردية:

- أنا بخير، انظر ماذا صنعت، قضيت النهار أبحث عنك لأريك صنيعي.

ألقى حور نظرة خاطفة على الورقة المليئة برسوم للآلهة، ابتهجته نفسه وربت على رأسه قائلاً:

- عمل رائع، أحسنت يا سن نجم، لا ينقصها سوى التلوين.

استمر فيما أنت فاعل، والزم المعبد واهتم بدروسك، واسع
للمجد وستصير ما تريد يومًا.

- أريد أن أكون مثلك.

- ستكون أعظم، هل تعدني بذلك؟

ضحك سن نجم، وعيناه تتأملان الجعبة بيد حور:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- سأعود إلى منف. هناك من هم بحاجة إليّ.

تجلى الحزن على وجه الصبي وقال ببراءة:

- هل ستعود مرة أخرى؟

شرد حور برهة وقد نال منه الأسى الذي ألمّ بسن نجم، ركع على
ركبتيه ووضع جعبته بينهما وأخذ يقلب فيها:

- لا أدري، ولكن خذ هذه ستذكرك بي على الدوام.

ومد يده إلى الفتى بلفافة من أزاميل دقيقة ومطارق مختلفة الحجم
والشكل، وأدوات قياس وميزان ماء، وبضع فرش مختلفة الأحجام
والأشكال، تناولها سن نجم بيد مرتجفة، وحور يستطرد:

- بارك بتاح عملك، ووهبك جحوتي من حكمته وعلمه. الوداع
يا صديقي.

ربت على كتفه ونهض ليمضي مع المدجاي، من دون أن ينطق أو
يلتفت، كما اعتاد أن يفعل حين يهيم بالرحيل، لا ينظر وراءه، انفطر
قلبه مرة أخرى، لما تحققت أحلامه بأن يكون أحد رسّامي الملوك
والآلهة، اختار أن يمضي إلى المجهول بحثًا عن صاحبه. كذب
وهو الصادق على الدوام، تطلع إلى السماء الصافية، إنهم يراقبون

فعله وما يَكُنْ بصدرة، يعلمون سريره وصدق نياته، وما يفعله ليس من أجل تحوتي فقط، بل من أجل ما اقترفه من خطأ في حق الملك توت، ومن أجل الآلهة والبلاد.

في بيت نخ تي، وقف كما يتأمل الخواء، الهواء يعبث بالستائر المغبرة، وقطتها تجلس هزيلة حزينة على درج السلم غير آبهة به، ارتقى إلى جوارها جالسًا، حاول أن يداعب فراءها، عدل عن الأمر حين رمقته بعينيها المشقوقتين نصف المغمضتين، ربما تشعر بأنه السبب فيما أصاب صاحبها، لا تحبه، ومن فعل هذا قبل ذلك؟! لم يعرف مذاق الحب إلا حين اقترب منها، والشعور بالذنب ينهش روحه، والأسابيع التي قضاها في مغارة المدجاي جعلت منه شخصًا آخر. غمغم محدثًا بأسيت وقد غلبته الشجون:

- أعلم أن الحزن يفتك بقلبك، تنتظرين عودة صاحبك، وأعدك أن أسترجعها، إن كانت حية.

رفعت القطعة عينيها إليه، كأنها تلومه على قوله هذا، ابتسم وهز رأسه:

- تفهميني إذن، كنت أعلم ذلك، لم أغب عنك طوال هذه الفترة عن عمد، كنت رفقة المدجاي نبحت أمر تحرير نخ تي، سأرحل مرة أخرى ولكن هذه المرة إلى حيث ذهبت، سألحق بالركب الذي يحملها. ربما تودين مرافقتي.

قامت تتمطى كأن الأمر قد أعجبها، أخذت تموء رافعة ذيلها تتمسح به، ضحك ومد يده ليلاطفها، لعقت أنامله فحملها برفق متممًا:

- رحلتنا ستكون شاقة، ولعمري قد تكون نهايتنا، لكن لا بأس
بصحبتك يا باسيت. والآن علينا فعل شيء أخير.
وضعها أرضاً ونزل الدرج، ألقى نظرة خاطفة على المدجاي
الواقف بالخارج، وعاد تتبعه القطة إلى الحديقة الخلفية، حيث أخفى
بين الشجيرات والثرى خنجره الثمين.

ترنيمة موت

«تقول الآلهة: حضر من كُتب عليه الحضور
لتبحر في دروب السماء رفقة نوت
لا أحد في الأرض يمكنه احتجارك وقد هيأها لك جب
ولتطر كالإوزة المقدسة بمعية الإله شو
ولتقاتل أولئك الذين أغواهم ست بقوة الإلهة تفنوت
وكن عظيمًا في ترحالك كما روح آتوم رع صاحب الخلود».

حصن بوهين

امتد أمام أعينهم المرهقة الحزينة بناء ضخمة عتيق يجثم على
حافة النهر، ظنوا أنه محض سراب، لم ير أحدهم مثيلاً له من قبل،
حتى الحصون التي تجنبوا المرور قربها لم تكن تشبهه، أسواره
وجدرانه وأبراجه يتصاغر بجوارها كل شيء، ويحيط بها خندق
مائي عريض نبت على ضفافه البوص والعشب. تنسموا الظلال
من بعد رحلة شاقة خاضوها مكبلي الأيدي والأعناق، لأيام وليالٍ
سيقوا كالأنعام تحاصرهم السياط وأسنة الرماح، مشوا عبر دروب

وعرة وجبال قاسية، رع يصلي رؤوسهم وأجسادهم العارية نهارًا، وفي الليل يتكوم بعضهم فوق بعض بحثًا عن الدفء، تهامسوا وتعارفوا سرًا، والذين حاولوا الفرار تعقبهم متعقبو الأثر ونكلوا بهم، وتركت الجيف المشوهة لضواري البiddاء، والبقية استسلموا، ومن تغلب عليه اليأس مات حسرة. تبينوا ماهية أسريهم بعد أيام من المسير والكثير من الحوادث، كانوا تحت رحمة عصابة من القتلة صائدي الجوائز. خمسون فارسًا يقودهم رجل نحيل متوسط القامة أجدع الأنف، ذميم بجانب وجهه ندبة غائرة من أذنه وحتى فمه، يُكنى بـ«العقرب» الذي يتخذه شعارًا، وتتدلى على صدره قلادة للإلهة الحامية سرقت، من العقيق الأحمر المعشق بالذهب، مطاع مهاب بين رجاله القساة. ذات نهار حاول التحرش بالأسيرة الشابة، وتصدت له باصقة بوجهه، لطمها وانهاه عليها جلدًا بسوطه، ولم يكسر عزميتها وقد رأت بعض الأسرى يثورون من أجلها، أنقذوها من بين يديه، ونُكل بتحتوي وبضعة رجال من أجلها. وخلال أيام المسير الطويل شكرتهم وعرفتهم باسمها من دون ذكر لمكانتها. ومن بعد مسيرة قمر ونصف القمر نحو الجنوب، يعبرون الآن بوابات حصن بوهين العظيم.

عالم غريب خطف أبصارهم على الرغم من السلاسل والقيود، رأوا قبائل وأقوامًا وأعراقًا مختلفة، سحرة يتلاعبون بالنيران والشعابين، ومن ورائهم سوق كبيرة مزدحمة، مظلات جلدية وخيام من وبر وريش، وتجار يقفون بين أجولة عامرة بصنوف التوابل والبخور، وأكوام من أخشاب وعاج وعظام وجماجم، جلود حمير وحشية

وثيران وغزلان، وأقفاص تحوي عجائب الطيور والسباع يرونها لأول مرة، ألوان زاهية وروائح غريبة متداخلة. صخب الباعة وصياحهم هيمنا على ربوع المكان، وفي الغرب تتصاعد أدخنة سوداء حيث مسابك الذهب والنحاس والبرونز، وتتراص حمير محملة بأحجار ومعادن أمام أفران الصهر، وفي الجانب القريب من القلعة انتشر الجزارون وباعة الطعام والفواكه، وعلى مقربة من السور منازل وأبنية من اللبن، ونُزل للمسافرين وحظائر وسكن للحرفيين والصناع. هيجت رائحة شواء شهى الأمعاء الخاوية وسال لعاب الجوعى الحفاة، لا يأبه بهم أحد ولا تلتفت لهم الأعين، إنهم على مشارف كوش بعيداً عن ديارهم وأحلامهم، أُلقي بهم في الساحة بين القلعة وبوابة المعبد الكبير للإله حور، الذي تتدلى من وراء تمثاليه رايات وأعلام موسومة بطغراء الملك آي.

دلف العقرب ومساعدوه إلى داخل القلعة، وحين خرج رجاله لم يكن هو بينهم، ومرة أخرى طرقعت السياط على ظهور الأسرى، أنهِضُوا وسُحبوا إلى حظائر العبيد حيث سيبيتون، وفُصلت عنهم نخ تي، التي أخذت إلى القلعة من دون مقاومة، خاوية الروح غائرة العينين، وحُبس تحوتي وبقية الأسرى داخل حظيرة عطنة الرائحة، فُكت الحبال والأغلال عنهم، ومُنحوا جرار ماء وكسرات خبز وقليلًا من شرائح سمك مجفف، أكلوا وشربوا واستلقوا أرضًا، نعموا بالظلال من بعد هجير سفرهم. من يصدق أن جل هؤلاء كانوا أناسًا منعمين ذوي شأن، تشققت شفاههم عطشًا ودُميت أقدامهم، نال الجفاف من جلودهم، شُعثًا غُبرًا لم يستحموا منذ خرجوا من

طيبة! وفي ركن معتم تكور على نفسه قائد الشرطة حنت تانب، مُنْهَك القلب لا يحدث أحداً، والكاهن نبوع لا يتوقف عن ترانيمه الخافتة، والبقية خلد بعضهم للنوم، وكثير منهم ظل شاردًا يرثي حاله.

وفي ركن يطل على القلعة المهيبة، أخذ ابن النِّسَّاج يستذكر محاولاته البائسة في الأيام الأولى من القبض عليه، حين حاول محادثة أسريه، وصاح بهم وقد ضاق ذرعًا، أخبرهم بأن هناك مؤامرة تُحاك ضد الملكة، وأن عليهم إطلاق سراحه، لم يأبه به الحراس الضجرون، جاءوا بمزيد من السجناء، نبلاء وكهنة من نساء ورجال يعرف وجوه بعضهم، ويأتي سجانهم بفم مُطبق وقليل من زاد، وحين سمع بخبر تنصيب أي ملكًا، أدرك موقعه من الحكاية، سينتهي به المطاف مقتولًا منسيًا، ليته أنصت لنصيحة حور. فكر كثيرًا في الهرب، وكان من السهل وضع خطط عصية التنفيذ، الحراس كُثر، ويبيت أكثرهم سكارى فاقدى الوعي بعد مضاجعة العاهرات، محاولة هروب فاشلة قُطعت بسببها ثلاثة رؤوس، وفي الطريق إلى بوهين، تخلصوا ممن شق عليهم المسير.

في الصباح جاءوا بضبعين ثائرين ليسكنا القفص المجاور، أدخلوهما بصعوبة وسط ضجيج الرجال وهياج الوحشين، اللذين أصبحا رفيقَي محبسه، ووجبة لهما تسد رمق غضبتهما. لا يفصل بينهما سوى أوتاد خشبية سميكة، صار يخشى الاقتراب من الجدار الفاصل، يدور الضبعان طوال الوقت من دون كلل، يُطعمان جيدًا. أرهف تحوتي السمع، وإذ بأحد الحراس يقول لصاحبه:

- ساحر من أخميم سيجزل العطاء نظيرهما. ألم يسمح لنا العقرب

بالتبضع، وفرصة نشري وتاجر مع مدن وقرى رحلة عودتنا،
ما دمت ستوفيه قدرًا من مغنمك.

صمت أذناه عن بقية الحديث، وقد علم أن العقرب وعصبته
سيعودون إلى طيبة مرة أخرى، ولكن ماذا عنه وبقية الأسرى، وتلك
الكاينة الغاضبة التي أخذت من بينهم؟! تهامس مع رفاق محبسه
حول مصيرهم، ولكن حنت تانب المتشائم قال:

- بقاؤنا مرهون بسوق النحاسين التي تقام بعد الفيضان.

لم ينطق أحد، زأغت الأعين وتوطن الجُبن بقلوبهم، هكذا رأيهم
تحتوي الذي كظم غيظه وحدثهم:

- علينا السعي للخروج من هنا، سأتحين الفرصة، ومن أراد منكم
اللاحاق بي فليفعل.

لأيام بقي تحوتي صامت اللسان أمام خذلان رفاق أسره، يحدث
الضبعين بعينيه، واعتاده المفترسان وألفا وجوده، يتأملانه ساكنين
والزبد يسيل من بين شفاههما، وما يلبثان يزمرجان ويضحكان غير
أبهين به، وينهشان الهواء بأنيا بهما الحادة كلما اقترب الحراس منهما.
ركن إلى الصمت والحنين واللوم، تدبر وطأة الأيام الثقيلة على قلبه،
وأخذ يفكر في المسكينة التي كانت معهم، راودت الشكوك قلبه،
وهرب بروحه طالبًا غوث الآلهة، ناشد بتاح وسخمت ونفرتهم،
وتناجى بصلوات لإله الكلمات المقدسة، جحوتي، الذي سُمّي تيمناً
به، وسأل نفسه مرارًا ترى كيف حال نبت الجميلة التي قضى معها
أجمل ليلة في حياته، وما حاق بالملكة الحزينة ووالديه وإخوته؟!
هل سيذكرونه في يومياتهم وتمائمهم؟! هل سيقومون له مقبرة خاوية

يُنقش على جدرانها اسمه؟! وكل ليلة يغمض عينيه ويتمنى أن تحيط به عناية ماعت التي يحارب من أجلها.

في الحصن الطيني، قبع نخ تي بغرفة ضيقة ملحقة بجناح الخدم، مقرضة تحتضن ركبتيها المضمومتين إلى صدرها. نبت شعر رأسها وبدت كالرجال، ترتدي أسماً بالية مصفرة، بائسة غائرة العينين يحدهما سواد السهر، لا أجوبة تشفي قلبها الخاوي ولا سمير يطيب جراحها. تذكر يوم قبض عليها قبل أن تغادر المعبد الجنائزي، جردوها من ثيابها وحُلِيِّها وأخذوا كل مقتنياتهما، ولم يشفع لها الكاهن شسمو الذي اكتفى بمراقبتهم وهم يجرونها بعيداً. سارقة قرابين هكذا وصمت، والآلهة تعلم أنها بريئة، لم تسرق شيئاً ولم ترتكب إثماً، مظلومة مكلومة لا تدري من فعل بها هذا، من وضع الأوشابتي وأغراض الملك في متاعها؟ راودتها كوابيس اليقظة، ولسانها لم يكف عن التوسل إلى ماعت بأن تُظهر الحق، تفتقد موضعها بمعبد إنبو وبيتها وقطتها وكما سرقت، ذلك الغريب الذي نبض قلبها لأجله، هل يذكرها أو يعلم بما حاق بها؟ رحلتها مع الأسرى كانت مريعة، ودت لو ماتت وألا يمسها الحقير بسوء، تحملت مشقة السير بجلد وقوة فاقت الرجال، وضربت من تحرش بها وأظهرت شراستها، وساعدها بقية الأسرى بكل ما تبقى فيهم من قوة، وظنت أن الأسوأ ينتظرها حين فصلت عنهم.

طلبها العقرب لتكون خادمتها، بدا أنه يبجل حضورها، بها شيء من هيبة لا يعرف سببها، يقضي نهاره في سوق الحصن مع رجاله، ويأتي مساءً بصحبة عاهرتين نحيلتين تنهكانه حتى يغط في نوم

عميق. أُجبرت على تنظيف المكان، وغسل الأواني، وتغيير ماء
الجرار، وتراقب خروج العاهرتين فجرًا عاريتين تحملان ملابسهما
بين أيديهما. كانت تصلي وتبتهل وتدعو إنبو بأن ينقذها. ومن ردهة
القلعة رأت معبد حور حيث تقام الاحتفالات بآخر أيام الفيضان،
وتساءلت إن كان ملك الآلهة والبشر يرى ما يُصنع بها. مُنعت من
الخروج وذكُرت بكونها سجين، وما إن تنقضي إقامتهم هنا سيرحلون
ويبيعونها، اشتروها بثمن بخس من فرسان آمون، إنها ميتة في أعين
من كانوا يعرفونها، حتى لو عادت ماذا ستقول لهم وقد أُذيع جُرمها
على الملأ.

أيام مضت واختلست الزيارات إلى حظيرة الأسرى، طمأنت
تحتوي والكاهن على حالها. فرح الأسرى بها وبثت فيهم طمأنينة
عجيبة، جاءت لهم بالطعام والفاكهة وما تسمعه من أخبار. ذات
ليلة استرقت السمع، والعقرب يُحادث رجاله، اشترى كمية كبيرة
من العاج، ويريد شراء مزيد من الجلود النادرة والثمينة، ولكنه
ينتظر سوق النحاسين ليتسنى له بيع عبيده الكسالى، سئم من علفهم
وحاكم بوهين يريد زيادة ثمن الكِراء، ولم يُعجب الرجل أن يسلب
العقرب تجارة العاج منه، سيحاول استمالته بمأدبة عمل ماجنة. في
النهار التالي زارت حظيرة العبيد، لم تستطع قول شيء لتحتوي هذه
المرة، المكان كان مكتظًا بأقفاص إضافية مليئة بالوحوش، أسود
وفهود ونمور مرقطة، وغزلان مختلفة الأحجام، وكلاب صيد تنبح،
صرفها الجند بغلظة وعادت إلى مجلس العقرب.

ليلة عاصفة اشتدت ريحها، وبرد كنس الطرقات، أوى الناس إلى

النُّزُل والبيوت، وثُبَّت السفن بالحبال إلى الرصيف، الرايات تجلد الهواء وصفيره يُعمر الآذان، والمشاعل تحاول التشبث بنيرانها. ركن الجند إلى الراحة وتراخى الحرس في الأبراج. نَوَّات شتوية سنوية يتقلب فيها الجو، يقولون إن جب يجامع نوت الشبكة فتقطر ماءها من السماء، ويقذف هو آخر دفقة في موسم الفيضان. أقيمت الصلوات في معبد حور، وقُدِّمت القرابين لِنُصب سوبيك وحابي عند حافة الميناء. وعاد العقرب إلى مأواه مبكرًا، متململاً يترنح من فرط سُكره، خلع درعه وثيابه وتمدد عاريًا على رخام أرضية البهو، ونسيم بارد يغازل الستائر المخملية، غفا وحلت عتمة الليل بالغرفة، فتح عينيه حين شعر بحفيف قدميها، فاعتدل جالسًا قائلاً بلهجة أهل طيبة:

- ماذا تفعلين؟ لَمْ أَنْتِ هنا؟!

شهقت فزعًا وأجابت وهي تحديق إلى الظلمة:

- جئت لأشعل مصابيح الزيت ككل مساء. عذرًا لم أعرف أنك هنا.

- قومي بعملك.

حشتها كلماته المقتضبة على أن تنهي ما جاءت لأجله، أخرجت حجرَي الإشعال وتحسست فتيل أقرب المصابيح إليها، كانت اعتادت الأمر في الأيام الماضية، رتبت كل شيء في المكان ليسهل عليها الخدمة، أوقدت الأول وذهبت إلى الثاني. كانت توليه ظهرها وما زالت الظلال تحجبه عنها، وعلى وهج الضوء بدا تموج عودها تحت الثوب الخفيف، أثارتها على الرغم من شعرها القصير وبؤسها، أحس برغبة عارمة في لمس نهديها المكورين المنتفخين. تحرك

عكسها مستترًا بظلمة الزوايا، وفزعت حين وجدته خلفها فجأة، دفعها بجسده إلى الجدار. أخذ يتنفس رحيق عنقها، كأنه يرى أنثى لأول مرة، حاولت دفعه وليتها ما فعلت، أطبق عليها بقوة آلتها وهمس في أذنها:

- المقاومة ستزيد الأمر سوءًا، ولعلك تمنحيني في هذه الليلة المباركة ولدًا، أشعر بأن روح مين نتر الخصوبة والفحولة تتجلى بهيئتي.

- الآلهة لا تحب الفاسدين مثلك.

صرخة ألم، كانت آخر ما سُمع منها، واشتعلت أحشاؤها بنيران انكسارها، شعور بالخزي ونشيج مكتوم، ووجع دفع دمعها فيضًا، أفلتت الأحجار من يديها ودماء عذريتها اللزجة تجري على فخذيها، أغمضت عينيها والحسرة تنهش قلبها. ليلة طويلة لن تنساها ما حيت، وقضى الوحش المقرز وطره منها مرارًا، وتكرر فعله هذا يومًا بعد يوم، وأظلمت الدنيا في عينيها، ولم يغادر الغيم الأسود عن السماء حزنًا على ما حاق بها، حتى استسلمت خاوية الروح.

راقت له، وأصبحت محظيته المفضلة، صار أكثر تلافًا معها، ولا يزعج نومها حين يستيقظ، إنما ينهض ويرتدي ملابسه ودرعه ويخرج. وذات نهار استيقظت هي بعد الظهيرة على جلبه، لملمت ما حولها من أغطية لتستر جسدها، والضجيج تحول إلى صياح، نهضت راكضة إلى الشرفة لترى ما يحدث، في الساحة تكالب الحرس على رفاقها الأسرى، نُكل بهم وتُركوا أجسادًا مُسجاةً مسلسلين بعضهم إلى رقاب بعض. شعرت بطعنات العجز وهي تشاهد ما يُفعل بهم،

واستعرت بداخلها نيران الغضب والبغض لذاتها، لم تعد كاهنة ولا
عذراء ولا مطهرة، ما الذي اقترفته في حياتها ليحدث لها كل هذا؟!
ولماذا لا تجيب الآلهة دعاءها؟!

اغرورقت عيناها بالدمع قهراً، وولت وجهها شطر السماء برجاء،
ومن ورائها وقف مدنسها ينهل بعينه جمال قوامها، لديه قدرة عجيبة
على التسلل والظهور فجأة، إنه الشر الخالص، روح مظلمة من رحم
نون ينهش شبابها من دون مقاومة منها. في تلك الليلة نال منها العقرب
عدة مرات، لدغاته أوقدت جذوة شهوة بداخلها سرعان ما تبددت،
واحتقرت ما أصبحت عليه، طريحة الفراش كالليلة الفاتنة، منهكة
الجسد متوجعة، عارية تفوح منها رائحته، وحيدة تحتضن ركبتها
بين الملاءات والأغطية.

أخبرها بأن رفاقها حاولوا الهرب، وعوقبوا على فعلهم، ألقي بهم
إلى الساحة الجرداء، ومن حولهم أقفاص القردة والضواري، سيباعون
في الغد أو يُقتلون. الغيوم فوق بوهين سوداء، وبرق يومض مراراً
قبل أن يدوي الهزيم، هطل مطر ثقیل ما لبث أن بدل ألوان المباني
والأسوار، خلت الطرقات ولملم التجار بضائعهم، امتلأت الحانات
بالتجار والمسافرين، وتملك اليأس من قلب تحوتي، تمنى الموت
واستسلم له، ولم تتقبل صلوات نب وع الراجي في الخلاص، أما
الواشي الخائن حنت تانب فوجد له مكاناً دنيئاً يليق به، تمت مكافأته
بأن يزيح الروث عن أقفاص الحيوانات، والمطر ينهمر ونخ تي
وحيدة، تراقب زخات الصيب، حتى حل الليل.

* * *

ليلة دهماء لم يُوقَد فيها إلا النزر من المشاعل، سادت الظلال
وسكنت العتمة في الأزقة والأركان، ولا يزيح الظلام إلا برق يضرب
بين الفينة والفينة. يقولون إن آمون رع، كان هناك يوم انتصر أحمس
على الهكسوس في أواريس، شهد المعركة وقاتل جنبًا إلى جنب مع
أتباعه من البشر، وطرده الغاصبين أتباع ست إلى أقطارهم البعيدة في
الصحراء، تلك كانت حرب الآلهة الثانية، والمعركة الأولى للمدجاي
تحت لواء العظيم حور القاهر أحمس بن سقن رع تاعا، مؤسس ذلك
الفيلق المجيد. يقدسون آمون سيد الخفاء وكبير ثامون الأشمونين،
ويبجلون خنوم الذي باركهم بقوة السواعد والبأس الشديد. محاربون
مدربون على فنون القتال والتسلل والاقتحام، يخضعون الظلال
ويتماهون معها، وجدف با رجلٌ لا يوقفه عائق عن إتمام ما كُلِّفَ
به، خاض بهم الصعاب بقلب لا يعرف الخوف، ودَرَّب حور حتب
على حمل السيف وكيفية القتال وبعض أساليب الدفاع عن النفس،
نثر كشافته ومتعقبي الأثر عبر الصحراء، والتقطت أذناه خبر القافلة
ومستقرها. قبل يومين دخل ورهطه إلى بوهين فرادى كتجار وباعة
ومسافرين، انبثوا وسط الزحام وذابوا فيه، تسكعوا في الأرجاء يتلقفون
الأخبار، ويرصدون الأنحاء. أحب كما سرقت المغامرة والتلصص
الذي بعث في نفسه زهو الأيام الخوالي، بالأمس سارق قبور وقاطع
طريق، واليوم يسعى لتحقيق العدالة رفقة مجموعة من المؤمنين
المتعصبين لآمون. منضبطون يلقون نِكَاثًا صعبة بينهم، مبتسمون
لا يلقون بالآل للموت.

في الثلث الأخير من الليل خفت الأمطار، خمدت النيران ولم

يبقَ زيت بالمصاييح. سكن الوجود والخلائق نيام، وتحركت الظلال تحت ستر الظلام، اقتضت الخطة بأن يدخلوا ويخرجوا بأقل خسائر، وإن أفلحوا من دون قتال. وزعت المهام عليهم وتسلسل كما سرقت رفقة جدف با وثمانية آخرين إلى القلعة، وجُعل حور على قارعة الطريق، المرة الأولى التي سيقاتل فيها إن اضطر إلى هذا، عليه أن يؤمن البقية عند الخروج إلى الميناء.

فزع تحوتي المسجى من الأيدي العابثة به وبرفاقه، ملثمون بأردية سوداء راحوا يفكون وثاقهم، حاول سبر الظلام لمعرفة من هؤلاء، وسرت همهمات، وأول من استيقظ من الضواري كانت الضباع، ضج المكان بضحكاتها الشامتة، وانطلقت القردة تصرخ فزعة، والأسود تزار غاضبة، وتجمد الجميع ترقبًا، وما لبثوا أن تحركوا مسابقين الزمن لتحرير خمسة عشر أسيرًا، فُك وثاقهم وكُسرت القيود عنهم، وكا سرقت يسألهم عن كاهنة كانت معهم، لم يُجبه أحد من الفرّحين بالخلاص، خرجوا بخفة تباغًا يحرسهم المدجاي، وأخذ هو يدور في المكان باحثًا عنها، حتى وقعت عيناه على تحوتي، بالكاد ميزه، أمسك بكتفيه وحدثه بلهفة:

- أنت صديق حور حتب الرّسام. أخبرني أين الكاهنة نخ تي؟!

هل كانت معكم؟! تعرفها أليس كذلك؟! هل تسمعي؟!

أجابه تحوتي نافضًا الذهول عنه:

- داخل القلعة...

وصاح جدف با:

- هيّا لنخرج، لم يعد هناك أحد.

هز كا جسد تحوتي الهزيل مرة أخرى:

- تعرفها، أليس كذلك؟ الكاهنة... نخ تي.

أوما تحوتي برأسه إيجابًا:

- بلى يا أخي هي بالداخل.

ربت على كتفه ممتنًا:

- ستجد ما يسرك في الخارج.

أفله ليتلقفه أحد رفاقه ويخرج معه، ولم يتبقَّ سواه والمحارب
جدف با الذي قال والمطر يزدد غزارة:

- المدجاي لا يتركون وراءهم أسيرًا، لنذهب لتحرير فتاتك،
وأرجو أن تكون حية.

وما لبثا أن تحركا بخفة إلى القلعة الصغيرة، ونادى من ورائهما
مُنادٍ:

- دخلاء، دخلاء... هرب السجناء.

بسرعة تلفت جدف باحثًا عن مصدر الصوت، ونذير الشؤم يكرر
النداء، وهاجت الطيور والحيوانات والجند. ضجت الأقفاص،
وأوقدت مشاعل أكشاك الحراسة، والمطر يهطل بغزارة والصراخ
لا يتوقف، وعند البوابة احتضن حور صاحبه عاصرًا إياه فرحًا:

- وجدتك يا صاحبي. كنت أعلم أنني سأجدك في النهاية.

انسل الدمع من عيني تحوتي، لم يكن يصدق ما يحدث، لوهلة
ظن أنه ما زال مقيّدًا ينتظر الموت، تلثم محاولًا الحديث، وهو
يتحسس وجه حور، ولكن أحد المدجاي صاح بهما:

- القائد جدف با وكا سرقت في مأزق. سأعود إليهما...

لم يتم كلمته حتى سُمع في الساحة صدى صراخ مُدوّ. دفع حور بصاحبه إلى الرجل قائلاً:

- أوصل أنت الفارس تحوتي إلى السفينة، وإن استطعت العودة بدعم فافعل، وأنا سأدخل لمساعدتهما.

ألقى جملته وابتسم لتحوتي الذاهل:

- سألحق بك. لديّ الكثير لأقصه عليك.

مضى. ولم يلتفت، حور الشجاع، لقب مستحق لروح نبيلة. الفوضى تسود المكان، تحررت الفهود والأسود والضباع، هاجت وراحت تهاجم بعضها وتفتك بالحراس، وحطم ذكر فرس نهر هائج كثيرًا من الأقفاص، معركة تجسدت فيها الآلهة في هيئات الضواري والوحوش. وبصعوبة استطاع حور رؤية رفيقه يدلّفان إلى القلعة عبر باب ضيق في الجهة الأخرى، حاول أن يصل إليهما بالدوران حول الساحة، متفاديًا الحراس المشتبكين مع الحيوانات، كاد يصل إلى المدخل حين استوقفه أحد الحراس، بصيحة قطعها حشرة ودماء، انقض عليه أسد ضخّم بلبدة كثيفة قاضمًا رقبته، أفاق حور سريعًا وركض نحو الباب الذي أغلقه خلفه فور دخوله.

* * *

في الرواق العلوي شقّ كا ورفيقه طريقهما باحثين عن نخ تي، ومن حسن حظهما أن عدد من بالقلعة قليل على عكس ما توقعوا، تخلصا من الحراس بسهولة، ودفعا مصراعي الباب اقتحامًا، وعلى ضوء المشاعل رآها تقف عند طرف الفراش خائفة، نادى باسمها: - نخ تي.

تسارعت أنفاسها، أي كابوس هذا الذي لا تستطيع الاستيقاظ منه؟! اقترب منها وأزال لثامه فاستقبلته ركضاً مرتمية بين ذراعيه، كان حقيقياً وليس كما ظنت، هو بسُمرته وملامحه الدقيقة الجادة وابتسامته الساحرة، اعتصرته وتمنت لو دلفت إلى داخل أضلعه هرباً، وبلين احتواها:

- كنت أعلم أنني سأجذك.

وصل حور متأملاً الفوضى التي أحدثها وراءهما، ضحك وهو يرى كا ونخ تي يحتضنان بعضهما، وقال بمرح:

- نهاية مثالية لأسطورة حب.

لكن كان للعقرب رأي آخر، قاطعهم بحضوره مع ثلاثة من رجاله، سدوا عليهم طريق العودة، تحفز حور وأشهر سيفه وكذلك فعل المدجاي، وبُهِت كا وهو يرى وجهاً يعرفه جيداً؛ العقرب.

الرجل الذي منح كا اسمه كلقب، من أنقذه في الصحراء وجعله جروه المدلل، الخائن المتمرد عليه، تحسس الندبة بجانب وجهه، وابتسامته تزداد عرضاً، وعيناه الرماديتان تلمعان، زفر قبل أن يقول مندهشاً:

- كا الخائن، صغيرة هي الأرض، من يصدق أننا نلتقي بعد غدرك بنا في سمنود، إنها ليلة مباركة من الآلهة التي تبغضها أيها المقيت، تخيلوا أيها السادة أن يخونني قريني من ربيته وأويته، فر هارباً بعد أن قتل رجالي وحاول ذبحي، الآن فقط أعرف أن الآلهة قبلت قراييني.

- لتكن ألهتك في عونك الليلة إذن.

نطق بها كا، وتقدم خطوتين إلى صف رفيقيه، تشبث نخ تي بذراعه متوارية وراءه، خشيت عليه وإن كانت لا تفهم ما يحدث، والعقرب يستطرد ساخرًا:

- عجيب أن تعرف العاهرة سارقة القرايين، صار لديك قلب ينبض بالحب إذن، كنت أحسب أنك لا تأبه سوى بنفسك، وأثمن قدومك لنجدتها حقًا، فهي لينة شبقة ورطبة على الدوام... لم يتمم كلماته بفعل انقضااض كا الغاضب، بدا كأن نخ تي هي من أطلقتته، ودارت رحي المعركة في البهو الأعلى. التقت السيوف بشرر وصليل، ثلاثة مقابل أربعة، قتال دموي جرح فيه حور ولم يسلم منه جدف، ورغم ذلك تخلصا من رجال العقرب الثلاثة وحدهما، بينما كان القتال بين الغريمين يشتد، حاول العقرب الفتك بربيه الخائن، ويبدو أنه لم يُقدر قوة وخفة كا. تلذذ الشاب بتشريحه بمهارة، تلاعب به وشق نصل خنجره عدة جروح بالرجل الذي لم يأبه بالدماء والآلام، قاتل بقوة وضراوة، أطلق سُبَابًا وهو يبصق الدماء بعد لكمة قوية نالها، ثم ركلة بين ساقيه أتبعتها كا بضربة رأس، وسقط العقرب أرضًا. وانقضت نخ تي صارخة، تصفعه وتخمشه بأظفارها، طوقها كا من خصرها جاذبًا إياها بعيدًا عنه. ضحك العقرب على الرغم من الألم المبرح:

- شهية أنتِ! وإن كنت سأرحل عن هذه الحياة، فلتعلم يا كا أنني دفقت مائي بداخلها مرارًا...

أخذت تصرخ محاولة الإفلات من ذراعِي كا الذي سلمها إلى المدجاي، بينما حور يستشرف الطريق، عاد كا إلى العقرب، مال

إليه من دون أن ينطق وهوى بالخنجر، ولم يكن قتل النحيل سهلاً،
تفادى النصل الذي غُرس حتى نصفه بالأرضية الخشبية، وتلوى
جاذباً يد طاعنه الغاضب. ضرب العقرب برأسه جبهة وأنف كا،
وحاول أن ينهش رقبتة كالمفترسات، ولكن حور تدخل مسرعاً،
جذب صاحبه إلى الخلف، ومن مكانهما رأى المدجاي ونخ تي ما
حدث على ضوء المشاعل.

لم يأخذ الأمر سوى لحظات، تبادل فيها حور والعقرب اللكمات
والركلات، ومالت الغلبة إلى المرتزق المتمرس، أسقط حور أرضاً،
والتفت إلى كا غير المتزن الذي كان يحاول النهوض، وحين همَّ
العقرب بطعنه، انقضض عليه حور مرة أخرى، قفز ممسكاً برقبة العقرب
خانقاً إياه. أخذ الرجل يصارع الهواء محاولاً التحرر، قبل أن يسقطاً
بقوة على الدرج، تدرجاً بعنف وقوة.

أفلت جدف با السيدة التي ركضت لتتبع كا الذي هرع ليساعد
حور على النهوض، فتفاجأ بالدماء الساخنة تتدفق بغزارة من جرح
بجانبه، أما العقرب فقد انقطعت أنفاسه بعد أن دُقت عنقه، واعوج
رأسه وتدلّى لسانه. أجلس صاحبه وتفحص جرحه:
- تنفّس ببطء.

ابتسم حور حتب بصعوبة، ونطق متلعثماً:

- هل الجرح بليغ؟ لا أشعر بجانبي.

نزل كا إلى جواره وبدا عليه القلق، وحدثه لائماً بعصية:

- لم فعلت هذا؟

سعل حور وقال بصعوبة:

- رددت دَينِي يا صاح. ولكنني سأنجو أليس كذلك؟ أمي وأبي
ينتظرانني في منف. أراهما، احملني إليهما يا كالعلمهما يعذرانني.
انساب الدمع من عيني نخ تي وهي تكتم الجرح بقطعة كتان، لم
يتوقف النزيف وقد تبينت أن نصلاً مكسوراً بداخل الجرح. حملة
جدف با قائلًا:

- اصمديا حور، ستعود معنا.

خرجوا إلى الفناء الخاوي إلا من الجثث والأشلاء، وحيوانات
ميتة وأخرى تأكل غير عابئة بهم، وهبط على الحصن ضباب خفيف،
خرجوا ليجدوا رفاقهم جاءوا من أجلهم، حثوا الخطى إلى الميناء
بخفة، ومن ورائهم بدأت أبواق الحراس في الدوي، ركبوا السفينة،
وتحوتي يبحث بين العائدين عن صاحبه، أخذ بيد نخ تي سائلًا إياها:
- هل أنت بخير؟

أومأت برأسها والدمع يترقرق بمقلتيها وهي ترى على ضوء
المشاعل قطتها تركض إليها، حملتها وأخذت تقبلها، ومن ورائها
كا جامد الوجه، جريح بالكاد يسير محمولاً، وانكب بعض الرجال
على جدف با والجريح حور بين يديه، وضع في منتصف السفينة،
وأسدلت الأشرعة وأنزلت المجاديف بسرعة، وانزلت مع التيار
في ظلمة الليل. أضاء البرق وجهه الشاحب، غافياً وتحوتي يجلس
إلى جواره، والرجال متحلقون حولهما مطأطئين الرؤوس. تحسسه
تحوتي وجذبه إلى صدره محتضناً رأسه:

- حور، استيقظ يا صاح. استيقظ ما زال لديك الكثير لتثرثر به،
سنعود إلى منف أعدك. هياً أفق.

ولم يجبه حور حتب الشجاع، الذي بكته السماء ونعاه فرسان
المدجاي الشرفاء، وذرفت عينا كما سرقت دمعا لأول مرة، وهو الذي
حسب أن مقلتيه جفتا وتصحرتا منذ زمن بعيد. شيء وخز قلبه مرارا،
ونخ تي تدفن جسدها الضئيل بصدرة محتضنة قطتها التي لم تكف
عن التمسح بها ولعقتها.



للموت جلال وهيبة، لا أحد يعرف مواعده وكيف يحضر، يقولون
إنه بداية لحياة ثانية، ووحدهم من ماتوا يعلمون الحقيقة، اصطلى
تحتوي بحسرة الخسارة، قضى ليلته بجوار جثة صاحبه، تائها تكالبت
عليه الهموم والهواجس. ليته يفيق من نومته هذه ويفتح عينيه، ينهض
ويثرثر مثل الأيام الخوالي! لم يبق إلا الذكرى، وسفينة المدجاي
تجري مع موج النهر الهائج، وفي أحد الأركان تكوم كاستنداً إلى
الأجولة، لم يذق النوم ولا يكف عن تذكر حواراته مع حور، وابتسامته
الدائمة، وتضحيته، غمغم وهو يمسح على رأس نخ تي الغافية بين
ذراعيه مُحتضنة قطتها:

- خشيت ألا أجذك بعد عناء الرحلة، كنت أعلم أن الموت يرافقنا
ولن يرضى إلا بسلب أحدنا، ولكن ليس هو. نعتُّ بالجبان مراراً
واتضح أنه أشجع من قابلتهم يوماً. ضحى بحياته من أجلي،
وفعل ما فشلت أنا فيه، ليتني قتلت العقرب في مستنقعات
سمنود قبل عامين.

تأملها ولا يدري إن كانت سمعت همهمات، لا فخر في حياته
يضاهي إنقاذه لها، وسرعان ما تبدد عجبه وهو يتذكر دناءته معها،

أعليه الإفصاح عن حقيقته، أم ينكر ويكذب كما عاش دومًا. وجاء الفجر ببطء، وذابت النجوم في لون السماء الأرجواني، خفتت الرياح وطلع رع باهتًا من خلف جبال الشرق، أيقظ جدف با رجاله بغلظة:

- هيّا انهضوا. أمامنا مسيرة طويلة.

بدأ المدجاي في حمل متاعهم القليل، ورسّت السفينة قرب جرف رملي، تعاونوا والأسرى المحررون على النزول، أخذت نخ تي بيد كا، وحاول تحوتي الهزيل حمل جثمان حور فاستوقفه جدف: - لا تفعل، ستحملة السفينة إلى طيبة، وسيسلمه رجالنا هناك. - لن أتركه.

قال تحوتي بغضب، وتقدم جدف با ذو النظرة العميقة إليه قائلاً: - سيصل حور قبلنا إلى طيبة ليجهز ويكفن، لو حملناه معنا سيتلف الجسد، اطمئن أيها الرجل، ودعني أصدق ما قاله عنك صاحبك عن حكمتك، لا تدع دماء صاحبك تضيع هباءً. ما زال أمامك درب طويل يا حارس الملك.

شيء من أمل سرى به بعد سماعه اللقب، نعم هو تحوتي بن عحا فارس الآلهة وحامي الملك، انصاع للمدجاي، وانحنى مقبلاً رأس صاحبه هامساً: «أنت في معية أوزير يا أخي، بوركت يا حور حتب، وحفظتك إيست بتعاويذها، أعرف أنك لم تحب الوداع يومًا، ولكننا سنلتقي مجددًا، أعدك».

ألقي رثاءه ومضى باكيًا ينتحب. اتخذوا الجانب الشرقي لليل، مشوا سيرًا على الأقدام كقبيلة نمل تتبع بعضها أثر بعض، وروح

نخ تي المعذبة تحاول إزاحة ما علق بها من دنس، تحمل قطتها وتسير صامئة، لم تحدث كا الحزين ولم يحاول هو بدء أي حديث، طببت جراحه بعشبة طحنتها وخلطتها بقليل من الماء، منحها نعليه ورداءً كثنائياً أسود أخذه من أحد الصيادين، كلاهما يحمل في قلبه وجعاً وصراخاً صامتاً. أيام من المسير بوديان تحدها جبال شاهقة، يأوون نهاراً إلى الظلل والجروف الصخرية، هارين من الشمس والأعين، يصطادون ما يجدونه من أرانب برية وثعابين، وفي الليل يكملون المسير مهتدين بالنجوم ووهج قمر ينير دربهم ويزداد قُرصه يوماً بعد يوم. قصّ جدف با على تحوتي ما كان من أمر طيبة والملكة، وكيف لجأ حور إلى قائد المدجاي ليساعده في إيجاده وتحريره.

توطن الحزن قلوبهم جميعاً، ولكن وجود نخ تي لطف الأجواء قليلاً، عاملوها بدمائة وتوقفوا عن السباب واستتروا عند التبول، وتباركوا بوجود قطتها باسيت ومنحوها من طعامهم، يعلمون بمكانتها وما كانت عليه، بجلوها وطلبوا بركاتهما، وكظمت هي قهرها ودمعها من أن يظهرها للعيان، إنها دنسة آثمة، أي مصير كان ينتظرها لو لم يأتِ كا؟! تبدل كثيراً عن الرجل الذي عرفته، ولعلها لم تعد تذكر كيف كان، كل ما قصه عليها أن حور هو من أقنعه بأن يأتي لنجدتها، حكاية واهية بعيدة عن بطولته، أخبرها بأنه عرف ذلك المدعو «العقرب» ذات يوم، ولم يتحدث بأكثر مما أراد. ظل يراها ويساعدها طوال الطريق، وإن بدا أنه يتحاشى قربها، أما الكاهن نب وع فلازمها وتقرب منها سائلاً عن رتبته بمعبد إنبو،

وتذكرا معاً بعض المعارف والمنشدين، وما لبثا أن تشاركا الصلوات،
خرا راكعين باتجاه شمس المغيب، وتجمع المدجاي والمحرّرون
وراءهما. وفي أفق الغروب حلق صقر باسطاً جناحيه، وانفرج
لسانها بترنيمة عذبة، من أجل حور حتب، الشجاع.



telegram @
yasmeenbook

ريشة وقلب

«أيها الكباش عظيم السيادة، أنا الابن الذي يحب والديه
 جئت لكي أشهدك، أني خرجت في الأفق ضد عدوي
 ومددت يدي وفردت ساقي، امنحني مما علمك آتوم رع
 مُدني بالقوة مثل حور، وامنُ عليَّ بحكمة جحوتي
 واجعل لي رمح متو، وشراسة سخمت
 لأسحق ست وأتباعه، وأطهر عرش الأرضين
 وأقتل ثعبان نون الذي يبث سُمه بالنفوس».

واست - طيبة

الأيام لا تنتظر أحداً، تمضي غير عابئة باللاهثين خلفها، وكل صباح
 يولد رع من بين فخذَي نوت، يخوض رحلة لا كلل فيها تنتهي مع
 غروبه، وطيبة خاوية من بعد عمار. انقضت أيام عيد الوادي الجميل،
 ولم يبقَ في الطرقات سوى المتسكعين وبقايا من زينة العيد، وخوت
 باحات المعابد من بعد زحام، والألسنة انشغلت بعظمة ما رأوه، قدموا
 من كل حذب يرجون بركات وعطايا، ولم يبخل الملك آي ومنحهم ما

يبتغون، احتفالات وأهازيج، وموكب عظيم لثالث طيبة. حُمل آمون وزوجته موت وابنهما خونسو على قوارب ذهبية براقعة، تتقدمهم صفوف الكهنة والمرتلين، ومنشدات وراقصات وعازفات. أبحرت القوارب فوق الأعناق والأكتاف، وعبروا النهر ومن خلفهم الملكان، طافوا بالمعابد الجنائزية للملوك القدامى، وقدموا القرابين وزار الناس قبور أحبائهم، وأقيمت احتفالات صاخبة تزامنت مع عودة الثالث المقدس إلى الكرنك، ونسي الناس أمر الغلاء والشُّح والفيضان الجارف، وُزعت عليهم حصص من طعام وكساء، نعمة وهبة من آمون وكهنته.

أطلق الملك أيديهم في البلاد، لينفذوا سُلطة الآلهة في حضوره وغيباه، وكانوا خير عون له. وبعد أن اطمأن قرر أن يمضي في جولة ملكية، يزور فيها المدن والقرى وأقداس الآلهة بطول النهر حتى يصل إلى منف، اصطحب معه رجليه المقربين الكاهن باواح والكاتب معي، وفرقة عظيمة من فرسانه، وخلف وراءه على العرش الملكة التي صارت قليلة الظهور، وكثرت الهمسات عنها. يقولون إنها زهدت الحياة وسخرت روحها لآمون، تقضي جُل وقتها في الصلوات، وآخرون يجزمون بانغماسها في الملذات والترف، ماجنة سكيرة تتقاذفها أيدي وقضبان حراسها، ولا أحد يعلم حقيقة ما يدور خلف جدران القصر مشدد الحراسة.

ذات مساء وبعد شهرين من رحيل الملك عن طيبة، رست سفينة بمرفأ البر الغربي، استقبل المدجاي ركابها بترحاب وحفاوة، وما لبثوا أن رحلوا جميعاً تقلهم الخيول والعجلات. شقوا طريقهم إلى جوف الجبل، يغلفهم الصمت وتحيط بهم الظلمة. وعلى مدخل الكهف

الكبير وقف القائد نب خنوم، عاقداً يديه خلف ظهره ووراء يتراص
رجاله، لمعت عيناه الواسعتان حين لمح جدف با، الذي جذب لجام
جواده وقفز عن ظهره، انحنى أمام قائده، فأمسك الكهل بكتفيه
وأنهضه مبتسماً:

- صليت لأجلكم كثيراً يا جدف با.
ضم الفارس قبضته اليمنى إلى صدره:
- واستجابت الآلهة.

توقفت العجلات ونزل عنها المحاربون والأسرى المحررون،
وبين الأجساد والظلال رأى تحوتي حارس الملكة، نحيلاً بدلت
ملامحه لحية نامية وشعر كثيف، عيناه زائغتان ومثقلتان بالحزن،
وعلى مقربة منه كا سرقت الذي أخذ يساعد شابة ذات شعر قصير
أجعد، ظل يتابعها حتى برز أمامه الكاهن نب وع:
- من الرائع رؤيتك من جديد أيها المسن.

رد نب وع:

- من يقول هذا؟! ساكن الجبل مترهل البطن، أم الذي خاض
رحلة ذهاب وعودة من طيبة إلى كوش مشياً!
احتضنا بعضهما، وربت كل منهما على ظهر الآخر؛ يعرفان
بعضهما منذ كانا شابين. تبادل الحديث إلى أن قاطعهما أحد الأسرى
المحررين سائلاً:

- هل سنمكث هنا طويلاً؟!

التفت إليه نب خنوم برأسه، تطلع إليه برهة قبل أن يقول بصوت
جهوري:

- إنكم ضيوف لدينا بأمر من قائد الجيوش حور محب، وله الفضل في عملية تحريركم، ستبقون هنا وستحظون بكل ما تريدون، وستوزع عليكم ملابس جديدة وبعض المهام، فتقبلوها بسعة صدر.

صمت برهة وهو يجول فيمن حوله، وأردف:

- قلب سليم، هو كل ما يحتاج إليه المرء لبلوغ حقول الآرو،

مستقر الخلود والنعيم الأبدي، وميزان ماعت لا يميل إلا إلى

الحق، ولا تنسوا أنكم مدينون للذين بذلوا أرواحهم من أجلكم.

الليلة نُولم، وفي الصباح نشيع حور حتب الشجاع.

تبادلوا النظرات والرجل يخبرهم بأن الجثمان حظي بتأبين

وتحنيط يليقان بفارس نبيل. فرغ من كلماته وانصهر الجمع، بقي

تحتوي شاردًا بينهم، مر به كا قائلاً:

- أفق يا رجل، والحق بقطع الضأن قبل أن تنفذ.

لم يذهب تحوتي وراءهم، بل توجه إلى حيث حُنت صاحبه، جلس

بجواره بعض الوقت، ثم عاد ليجلس بين المتحلقين حول النيران

ودخان الشواء يرتفع، تسامروا وحكى جدف بالقاءده ورفاقه ما كان

من أمر مهمته، وكيف وجد حصن بوهين. أقسم إن الآلهة كانت تقاتل

إلى جوارهم، وأشاد ببطولة كا، وشجاعة حور وتضحيته، وكيف

عالجت الكاهنة نخ تي جراح رجاله. وأضاف الكاهن نب وع قصة

خيانة حنت تانب، وتعجبوا من فعل رجل كان يومًا قائد شرطة طيبة،

ومُرّر الحديث حتى نفذت الكلمات وانتصف الليل، ونهض كلٌّ إلى

فراشه ومضجعه ببطون ممتلئة، ونفوس تستشرف الخير.

* * *

شُيع حور في تابوت خشبي ملون بهيئة صقر، نُقش اسمه واضحًا على جوانبه، وألحقوا به لقب المدجاي الشجاع والرَّسَّام الماهر، حور حتب المنفي، ابن الصياد الذي ضحى بحياته لأجل الآلهة والبلاد. عند رأسه وقفت نخ تي تتلو نصوص «الخروج للنهار»، وحُمل على أكتاف رفاقه ومن سعى لتحريرهم. تحرك التابوت كقارب يبحر وسط الرؤوس، وعلى ضوء المشاعل مشوا به عبر سراديب عميقة حتى وصلوا إلى غرفة الدفن، أزيح حجر غلقها ووضعوه بجانب صفوف من التوابيت المتراسة. تأمل كا المكان من حوله، وجدف با يقول بخفوت:

- جميعهم من المدجاي، بعض هذه التوابيت ترجع إلى زمن حرب التحرير، أيام كاموس وأحمس. محاربون عظماء لم يحملوا معهم أي متاع للأخرة سوى بطولاتهم المنقوشة على النقوش، بذلوا نفوسهم في سبيل العدالة، وها هو ذا صاحبك ينضم إليهم.

ألقي نظرة متفحصة على المكان والذكرى تداهمه، رأى نفسه وهو يقتحم المقابر ويعبث بمحتوياتها، تعرق وأحس بالضيق وكلمات حور الأخيرة تتردد بداخله، مشى مع محدثه إلى باب الغرفة، ومن ورائهما كان تحوتي يربت برفق على غطاء التابوت هامسًا: «أبحر صوب الأفق، وأدلف إلى قاعة الحساب رافعًا رأسك، قلبك أخف من ريشة ماعت، والآلهة تشهد على صلاحك، اسمك مذكور ووسمك مرسوم، لتنهأ روحك يا حور، وداعًا يا صاحبي حتى نلتقي مجددًا في حقول الآرو».

أنهى كلماته ونهض خارجًا خلف صحبته، وأغلق من وراءهم الجدار، ومن يردم تلك الفجوات بنفوسهم! يؤمن وكل من حوله بأنهم سيلتقون برفاقهم وأقاربهم في حقول الآرو، حيث خلود لا فناء بعده.

أما كما سرقت الواجم، فلم يكن يأبه بكل تلك الأمور، ولعلها المرة الأولى التي يدخل فيها إلى مقبرة من دون أن يمس شيئًا فيها، لم يمتن لأحد طوال حياته، ولكن الرجل دفع حياته مقابل أن يحيا هو، يزعجه ذلك الشعور بداخله، لا يعرف ماهيته ولكنه ينفش روحه، ولا يستطيع التخلص منه. بات مضطربًا ويخشى النهاية، لا يعرف ماذا يريد أو ما عليه فعله. عند مخرج الكهف كان القائد نب خنوم ينتظر كما وتحوتي، حدثهما بعد انصراف رجاله:

- حكمت الآلهة هذه الأرض ما شاءت أن تحكم، ورحلت حينما أرادت ذلك، ومن بعدها ملكها أنصاف الآلهة من أتباع حور، سُموا ملوك النور المبجلين، وكما سن أوزير، رحلوا تباغًا إلى الحياة الآخرة، وورث الملوك من بعدهم ملوك ضعاف أضاعوا العلوم وبدلوا ما كان، وسادت الفوضى قرونًا حتى جاء من وحد البلاد، وبقيت مملكة الآلهة على هذه الحال، تنقسم وتتوحد، وكلما علا شأن الشر وقوى الظلام، تجتبي الآلهة من البشر ملكًا ليعيد أمجاد البلاد ويتشلها من الضياع. ولهذا السبب اجتمعنا، عدونا واحد، وحتى تحين لحظة التحرك لمحاربته، عليكم البقاء هنا وألا يلحظكما أحد ممن كانوا يعرفونكما سابقًا.

بنبرة مترددة قال تحوتي:

- ظننت أنني سأذهب إلى الملكة لأعترف لها بالحقائق الغائبة عنها، وقد سمعت أن أي رجل إلى منف ولن يعود قريباً.
- ستفعل، ولكن حين يأمر القائد حور محب.
- سيدي، هل أنا أسير لديك؟!
- بل واحد منا، من المدجاي كمثل هذا الواقف بجوارك. ومثل صاحبكما الشجاع.

نقل الكهل بصره إلى كا سرقت وهو يتابع:
- الليلة تتلوان القسم، ويُمنح كل منكما سواره الخاص...
قاطعه كا:

- لا داعي لهذا، ربما أرحل خلال أيام.
- إلى أين؟!
- لا أعلم، ولكن عليّ العودة إلى...

- اسمع أيها الشاب، بينما كنتما تدفنان صاحبكما، سمعت من الكاهنة قصتها معك، وأعلم منذ البداية أنك لست من أقاربها، ولكن فعلك تجاهها ومخاطرتك بإنقاذها تثبت لي أنك تكبر لها الكثير، وهي كذلك ترى فيك بُلاً وشهامة، ويبدو أنك تخفي أكثر مما نعلم عنك، إن كنت تنوي الرحيل، فخذها معك ولا تخذلها بتركها وراءك، لم يعد لها شيء في البر الغربي ولا طيبة، وحتى تقرر رحيلك من عدمه، يجب عليك المكوث هنا ومساعدتنا في الواجب المقدس الذي أوكلته لنا الآلهة. بجانب حماية قبور الملوك علينا أن نزيح المغتصب عن العرش، وربما

تحصل على مجد ورفعة شأن من بعد ذلك. خذا وقتكما في التدبر، واختارا بحكمة.

غادرهما نب خنوم بعد أن وضعهما أمام نفسيهما، افترقا واتخذ كلُّ منهما طريقه. توقف تحوتي عند حلاق المدجاي، جلس بين يديه وما إن فرغ الرجل، جعله ينظر إلى انعكاس صورته في إناء الماء أمامه، عاد إلى هيئته الأولى على الرغم من النحول والسُّمرة اللذين ألما به، ولا شيء يملأ قلبه سوى الانتقام، لن يغادر حتى يحصل على العدالة، من أجل توت وحوور وكل من غدر بهم على يد آي.

* * *

جلست نخ تي أمام مائدة نذور حجرية، ويربض عليها تمثال إنبو، ككلب أسود تخشاه باسيت ولا تقرب منه. أغمضت عينيها تاركة روحها تحلق مع ريح أجلت الهواجس والظنون عن قلبها ورددت: «تسمعي وتراني، ياراعي الموتى وحارس البوابة، أعلم أنك وجميع الآلهة استمتعتم إلى مناشدتي ومناجاتي يوم رعدت السماء واهتزت الأرض، دُنس قسمي وفقدت طهارتي، أصبحت سارقة هاربة لا تقوى على العودة إلى بيتها وعملها. لا أريد سوى الخلاص والهداية، جئتك من بعد تيه، وراضية بما اخترته لي».

فرغت، وما كادت تفتح عينيها حتى سمعته:

- كم مرة استجابت الآلهة لك؟!

قالت وهي تنهض من دون أن تلتفت إليه:

- تستجيب دومًا. وأنت إحدى استجاباتها.

تصدع قلبه وهوى من كلماتها، جف حلقه وتلعثم مغيرًا مجرى الحديث:

- طُلب مني البقاء هنا، وأن أكون من المدجاي.

بدا الارتياح على وجهها:

- هل كنت سترحل؟

- لا، حسبت أن مهمتي انقضت بإنقاذك.

- لَمْ فعلت هذا؟! لَمْ أتيت ورائي؟!

شرد برهة وابتلع ريقه، ووجد لسانه ينطق:

- لأنني مدين لكِ و...

قاطعته وهي تقترب منه:

- أتعلم حين رأيتك هناك في حصن بوهين، علمت أن الآلهة من

أرسلتك، منذ جئت جريحًا إلى فناء داري، إلى اللحظة التي

قاتلت فيها ذلك الذميم من أجلي، أنت هبة لمن حولك، أنت

القرين الوفي والروح الصافية، وعليك أن تعي هذا، اختارتك

الآلهة لتكون هنا لتخوض حربها، وبعد أن علمت بالمؤامرة

التي قام بها ذلك المدعو آي، عليك أن توقن بأننا جميعًا جزء

من حكمة القدر، علينا مساعدة المدجاي وحوار محب فيما

سيفعلون، علينا الانتصار على من ظلمونا، ونقاوم لتبرئة ذمتنا

مما يظنه الناس بنا. هذا ما تعلمته منك...

قاطعها:

- نخ تي، أريد أن أعترف لكِ بأمر ما...

تطلعت إليه بعينين واسعتين جميلتين، أراد أن يخبرها بأنه الفاعل،

أوشك على الاعتراف ولكن لسانه لم يقوَ على البوح، وبدل كلماته
ناطقًا بخفوت:
- أحبك.

نسمة هواء بارد منعش لفحت وجهها، ابتسمت وتوردت وجنتاها،
وماءت القطرة وهو يقترب من صاحبها ممسكًا بكتفيها، وعيناه لا
تفارقان مقلتيها متابعًا:

- أحبك، وسأفعل أي شيء من أجلك.

ختم كلماته عند شفتيها، مال بجذعه ورأسه ليُقَبِّلَها قُبلة رقيقة،
فإذ بها تفزع وتراجع، بدت خائفة وجسدها ينتفض، انسل دمعها
وتسارعت أنفاسها بنشيج، وبدخلها انبعثت رؤى مقية أرادت
نسيانها، ولكنه اقترب منها وأحاطها بذراعيه مهدئًا من روعها، وما
لبث أن انصهرت بين ذراعيه، ورفعت رأسها ببطء إليه مرة أخرى،
ليذوبا في قُبلة طويلة أمام نُصب خنوم صاحب رأس الكبش ذي
القرنين العظيمين.



أشهر مرت على تحوتي كسنين طوال، يجاري الأيام منتظرًا اللحظة
التي تأخرت، صار واحدًا من المدجاي ولم يتلُ القسم بعد، يتدرب
ويصطاد معهم ويشاركهم الدوريات، أما نخ تي فأصبحت معالجة
الكهف كما يطلقون عليها، أقامت أحواض زهور وأعشابًا، وداومت
على رعاية حقلها الصغير من دون كلل، باتت قرية من القائد نب خنوم،
وكثيرًا ما يتحاوران ويساعدها في أعمالها. في المساء تجتمع مع حبييها
كا وتطعمه مما تطهو، ويستأنس بعضهما ببعض، ويفضي إليها بمكنون

صدره. كل ما يعرفونه أن آي ما زال في منف، وأن حال طيبة ليست بأفضل من المقاطعات القرية، تفتت البطالة وعمّ الكساد، رفع تجار الحبوب الأسعار، وهاجمت اللصوص صوامع القرى والبلدات، غاب الأمن وعلى الرغم من كثرة الحرس والجند، فإنهم لا يفعلون شيئاً، ووحدهم كهنة آمون من يحاولون إحكام الأمور. وآخر ما سُمع عن قائد الجيش حور محب أنه خرج لحرب الحيشين.

ملّ تحوتي الانتظار، إلى متى عليهم الاختباء كالجرذان في جحر بالجبل؟ جفاه النوم، وكلما اختلى بنفسه راودته الهواجس والأفكار، يسمع صوتاً يناديه كلما رمى ببصره ناحية طيبة، حتى جاء يوم ولبى النداء، أعد عدته وانتظر حتى غاب إله القمر عن السماء، لم يخبر أحداً بما ينوي، وتسلسل متجنباً المرور قرب حواجز وأبراج المدجاي، هبط حيث مرابط الخيل، ليجد الحارس يغط في نوم عميق، وما لبث أن وضع اللجام برأس أحدها، امتطى الجواد المستكين من دون سرج، وقطع البر الغربي رهواً، عبر الحقول إلى مكان قريب من الميناء، وترجل هامساً:

- عُد إلى المربط.

صفعه على فخذه، فما كان من الفحل إلا أن ركض عائداً من حيث جاء، كل ما كان يلزمه هو طوافة من البوص، وعلى الضفة الكثير مما يشتهي، دفع بإحداها إلى الماء وقفز فوقها ممسكاً بعصا طويلة. أبحرت الطوافة ببطء، ومن حولها تحوم التماسيح. قصد المرفأ الملكي الواقع تحت سفح القصر، تفادى الرسو عند الرصيف الخشبي، اختار بقعة يكثر فيها العشب وهبط ساحباً الطوافة ليخفيها

عن الأنظار. استطاع الولوج إلى حديقة القصر، وعلى الرغم من يقظة الحراس فإنه تجاوزهم بسهولة، وتوارى خلف الآجام وأحواض اللوتس، وسكن قليلاً في زاوية معتمة حتى مرت دورية الحراس. يعرف المكان جيداً، ونفض ذكريات عدة عن كاهله وهو يمضي عبر الممرات والأروقة. راقبته صور الآلهة، وهو يتسلق بقايا جدار قديم أوصله إلى ردهة الملكة.

أضاءت مصابيح زيت الغرفة الخاوية، لم يجدها وبُث الأمل في نفسه، حين رأى تمثالاً للملك توت يتوسط جدار غرفتها، دار في أرجائها يجتر ذكرياته، الفراش مرتب كأنها لم ترقد عليه، أين ذهبت؟! راح السؤال يتردد بداخله حتى سمع همهمات خارج الردهة، وصرير مزلاج الباب يُسحب، استتر خلف أحد الأعمدة. وفتح المصراعان ليغمر المكان ضوء المشاعل، وارتوى ظل طويل على الأرض، دلفت تبختر في مشيتها وأغلق الباب من خلفها، تدندن لحناً ما وتفتح الخزانة، ليست الملكة وهذا ما تبينه من مكمنه. انتقل من خلف عمود إلى آخر بخفة حتى استطاع رؤية وجهها، ابتسم ولم يستطع كبح جماح شوقه، وخرج إليها منادياً باسمها: - نبت.

اقشعر بدنهما وشهقت ملتفتة بسرعة نحو الصوت، جمدت الدماء بعروقها واتسعت مقلتاها، خرج إليها من الظلام فارتجفت مترجعة، امتقع وجهها بشحوب الموتى، اقترب منها هامساً: - أنا تحوتي، لا تخافي.

كررها، رافعاً يديه محاولاً تهدئتها، التصقت بالجدار وسألته:

- أهذا أنت حقاً؟

- وهل يعود الموتى إلى حياتهم الأولى؟!

دنا منها ولم يعد يفصلهما إلا خطوة، لم يتبدل كثيراً، وإن حاق ببشرته الجافة سُمره، احتضنته بقوة وتحسست ظهره:

- كيف عدت؟!

- هذه قصة طويلة، أريد رؤية الملكة.

- ظننت أنك لن تعود، وانفطر قلبي حزناً عليك.

اختلجت أنفاسهما، وهو يجيئها بجديته المعهودة:

- لم أنسك يوماً يا نبت، وأذكر ليلتنا الأخيرة، قلقت عليك وعلى الملكة، أين هي؟

- تصلي رفقة كاهنات آمون، ستأتي إلى هنا حالما تفرغ من طقوسها. جئت لأعد لها الفراش وأشعل المباخر، سأذهب لأخبرها بأنك تنتظرها.

دفعها عنه برفق:

- لا، ابقِ هنا وأكملي ما كنتِ ستفعلينه.

- وأنت؟

أشار إلى العمود الأقرب للباب:

- سأبقى هنا، حتى لا يراني أحد إذا ما فُتح الباب.

شهر سيفه واتجه إلى الزاوية خلف الباب، ورغم تردها أخذت

توقد مزيداً من مصابيح الزيت قائلة:

- قالوا إنك قُتلت، لم أصدقهم ولم أكذبهم، أيام وأسابيع وشهور

لم تكن كافية لنسيانك...

قاطعها باقتضاب:

- للآلهة تصاريدها. أخبريني ما الطقوس التي تؤديها الملكة في هذا الوقت المتأخر؟!

- وحدهن كاهنات آمون من يعرفن، لا يُسمح لأحد غيرهن بالدخول إلى البهو المقدس، نسمع ترانيم وأناشيد حتحور وموت في الأرجاء، ونشم رائحة بخور عجبية تنبعث من المكان.
- والمربية مايا؟!

- رحلت إلى سقارة لتقضي آخر أيامها رفقة أقاربها، وحلت مكانها الكاهنة إيبار، ساحرة معبد آمون، صارمة متعصبة وهي من ابتدعت تلك الطقوس والصلوات. تغير الكثير في القصر والبلاد منذ اختفائك.

- ستعود الأمور إلى نصابها قريباً يا نبت.

- لا شيء يعود إلى حاله.

جملة جافة أثرت الصمت بعدها، وكذلك فعل هو، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى تناهت إليهما أصوات من خارج الغرفة. التصق تحوتي بالحائط وتحركت هي ناحية الباب الذي فُتح على مصراعيه. ابتسمت لتخفي ما ألمَّ بها من قلق وخوف، وخطت عنخ إسن آمون ببهاثها الملكي، ترفل في ثوب أبيض شفاف وعلى كتفها أسدل رداء ذهبي، تتبعها حاشيتها من كاهنات آمون والخدم، هرعت نبت وانحنت تبجيلاً، رمقتها الملكة بنظرة خاوية وهي تجلس على كرسيها، وتهافتت الخادמות يساعدها لخلع الحللي وثيابها، ونبت تقف على مقربة منهن، وعيناها مثبتتان على الركن المظلم حيث يكمن

تحتوي، يراهن من حيث لا يرينه. بدلت الملكة لباسها بعد أن مسحت الكاهنات جسدها بالعطور والزيوت، وما إن فرغن مالت إليها خادمتها وهمست لها بشيء، فانتفضت عنخ إسن آمون واضطربت ملامحها، الأمر الذي لم يرق للكاهنة إيبار المتجهمة التي رمقتها بغیظ، وكادت تنطق بشيء لولا أن قالت سيدة الأرضين:

- اخرجن جميعاً، إلا نبت.

خرجن تباعاً يلملمن الدهشة من فعل ملكتهن، وفي العادة كنَّ يجالسنها حتى تنعس، ويقصصن عليها من حكايات الآلهة، وتعزف إحداهن على أوتار قيثارة سحرية، وتذوب هياماً فيما يروى عن عشق حتحور وهور، أما الليلة فكانت ملكتهن واجمة. صكت نبت مزلاج الباب لتحكم إغلاقه، ومن بين الظلال ظهر تحوتي رويداً. جمدت كأنها من جرانیت، وخر أمامها راکعاً:

- جلالة ملكة مصر، سليلة الآلهة، اعذري غيابي وتقصيري...

- قالوا إنك ميت!

رفع رأسه باتجاهها:

- لعلی كنت كذلك، وردتني الآلهة بمشيئتها، لأخبرك بحقيقة كل شيء..

تبع جملة صمت مقبض، تبادلوا النظرات قبل أن تنطق الملكة:

- نبت اذهبي إلى طرف الردهة، وراقبي الممر والحديقة.

فعلت الخادمة ما أمرت به، وما إن استقرت بمكان مراقبتها القديم،

تحدث تحوتي بنبرة خافتة:

- آي هو من فعلها، دبر لقتل الملك ورسم صورته مُتوجّاً على

جدران المقبرة الصغيرة الضيقة، نقش طغراءه كالملك قبل أن يُتوج.

تبدلت ملامحها وعقدت حاجبيها، أنصتت والنيران تشتعل بداخلها، حزن ثقيل جثم على جوارحها، وتمكن الغضب من روحها وهو يقص عليها كل ما حدث وما اكتشفه، وما حاق به والأسرى الآخرين، أخبرها بأن آي انتقم ممن عارضه وكشف أمر سرقاته لكنوز الملك، وتهاوت صورة زوجها كتمثال من رمل فُرط. رتبت الأحداث والأفعال، استرجعت أقواله وكلماته، لطالما كان المخلص لعائلتها وذكرى أسلافها، اتخذته سندًا لها وهو الذي يتفاخر بكونه مربى أمها وخالتها، وأن زوجته الراحلة أَرْضَعَتِهما، كيف يخدعها بهذه السهولة؟! وكيف سَوَّلَ له نفسه قتل أخيها؟!

وهي التي كادت تمنحه جسدها كما أوصتها الكاهنة إيبار، بضرورة معاشرته للحصول على وريث، وحددت لها موعدًا مقدسًا، وحالما يعود من رحلته ستفتح له ساقبها، وهيأتها لتلك الأمور طوال فترة غيابه. تلاعب من حولها بها، وأسكروها بتلك الطقوس المثيرة، وبعثوا في نفسها نشوة ورغبة وشهوة للحياة مجددًا، غمرت روحها بضجيج. وما إن سكت الفارس عن الكلام، أدركت أنها عادت إلى واقعها القاسي، حملقت إلى وجهه برهة قبل أن تقول بصوت متحشرج:

- أصدقك، وقد فعلت من قبل.

- ملكتي، لقد أقسمت على خدمتك حتى مماتي.

- عليك أن تبقى. سيعود آي من رحلته قريبًا وأريدك إلى جوارى.

أتوق إلى رؤية وجهه حين يراك حيًّا، وهو الذي أخبرني بأنك
قتلت عديدًا من الفرسان قبل أن ينالوا منك، وأن جثتك صُلبت
على جذع نخلة في البر الغربي.

- من الحكمة أن أبقى بين الظلال، حتى تحين اللحظة المناسبة.
سأذهب الآن، قبل أن يكتشف رفاقي غيابي.

- رفاقك؟!!

- كُثر وجميعهم في خدمة جلالتك. ملكتي، أرجو أن يكون خبري
سرًّا، وألا يشعر أي وأتباعه بتغيرك ناحيته.

- كيف سأراك مجددًا؟!!

- سأعود مع اكتمال القمر لأطمئن عليك.

انحنى محيًّا لملكته، وودع نبت بابتسامة وأمل بلقاء قريب، ولما
سألته عن مكان سكناه أجاب:

- في تلك البقعة بين الأحياء والأموات.

شق طريقه عبر الظلام عائداً من حيث أتى، شيء بداخله جعله
يصمت عن ذكر أمر المدجاي وقائدهم، شعر بأنه خفيف الخطى
وقد تخلص من ذلك الثقل بقلبه، وتمنى ألا يكتشف أحد أمر غيابه،
ومن ورائه وفي شرفتها وقفت الملكة وخادمتها والصمت ثالثهما...

* * *

خُلقت ماعت من ريشة، نتفها آتوم رع من إبط الإوزة المقدسة،
جسدها بقدرته كامرأة ووهبها الحقيقة والعدل، وأوصى إليها بالفصل
بين الخلائق، صنعت ميزان العدل بيديها، فلا تميل كفة عن الأخرى
إلا بما تزن، وحكمت بين الآلهة فعدلت، وأهداها أوزير حيوانًا مخيفًا،

أسمته «عمعم»، وأطعمته قلوب المخطئين والفاستدين، وصار البشر يرجونها محبة وطمعاً في رضاها، ويخشونها خوفاً من تيه أرواحهم. تنظر إلى قلوب العباد وتطلع على أمانيتهم، وتحقق عدالتها في الأرض بطرق شتى، تقتصص للمظلوم وإن أملت للظالم بطول الأمد. وأقسم تحوتي بها يوم اكتشفوا أمر غيابه، ولم ينكر ما فعله.

تلقى فيضاً من اللوم والتوبيخ، وأمعن القائد نب خنوم في تحقير فعله، الذي قد يكلفهم حياتهم جميعاً إن اكتشف أي وزمرته الأمر، وخير بين الرضوخ والانصياع لقوانين المدجاي، أو الرحيل، ولم يجد إلا الاعتذار سبيلاً للخروج من المأزق. ولأيام تأهب الرجال لأي طارئ، ولم يحدث شيء، قبعوا ينتظرون هجوم فرسان آمون، ولم يأت أحد، وقلب تحوتي لا يهدأ، مرة أخرى ذهب إلى الكهل المتعبد بجوف الكهف، واستقبله الرجل بهدوئه المعتاد، جلس وهز صلعته الجعداء قائلاً بصوته الخشن:

- تحوتي المتهور، أعرف ما دفع بك إلى مجلسي، ولديّ الكثير لأخبرك به أيضاً، بلغني أن الأمور تشتعل في أرجاء المقاطعات، وأن الفساد والفوضى يستشريان في أوصال البلاد، وطيبة وتخومها القرية تحت سيطرة كهنة آمون الذين يبسطون سيطرتهم بقوة وحزم. أعلم أن الأمر طال ولا خبر عن حور محب، أخبرتني بأن لك موعداً مع الملكة عند اكتمال القمر، أليس كذلك؟

أوما تحوتي موافقاً حديث الرجل الذي تابع:

- لا أمانع أن تذهب على أن تخبرني، من الذي تثق به داخل هذا القصر غير الملكة؟

- خادمتها، نبت.

- الخادِمات يملن دومًا إلى من يملك السلطة، وليس إلى الحق.
- هي خليلتي، وأمانة سر الملكة، يمكنها أن تكون عينًا لنا، لو أمرتني بالذهاب في موعد الذي حددت، سأتي لك بالخبر الأكيد.

بدا العجوز أنه يفكر في الأمر قبل أن يقول بصوته الخشن:

- قُل لي أيها الفارس، ما يدفعك هو الواجب أم الانتقام؟!
- العدل.

- إن قلت غير هذا، لنصحتك أن تنقي روحك مما علق بها، أوافق على نزولك إلى طيبة، ولكن سيصحبك كما سرقت وجدف با. وتذكّر أن الآلهة تبصر وتسمع، فلا تقدم على فعل أحمق يكلفنا الكثير، ولا تتجهم هكذا، أكلُ الشجعان حمقى؟! هيّا اذهب، تجهز واتلُ صلواتك، وادعُ أن تمنحك ماعت القوة لتنفيذ مشيئتها.

أبوفيس

«التحيات لتاسوع أون المقدس
 أحضرت لك كحل العيون الأخضر
 وتظهرت بتعاويز آتوم رع، وجئت لأدفع أتباع نون وآلهة
 الفوضى، وأضرب رأس ثعبان الظلام
 فلتنظر إلينا من علياء السماء بزهو يا حور، ولتذكر ماعت أسماءنا
 بين الخالدين».

لا أحد يعرف أين يكمن «أبوفيس»، ليس كمثل أي ثعبان ولم
 يبدل يومًا سواد حراشفه الصلدة، التي تجعله متماهيًا مع مياه والده
 نون، ووحدها قردة البابون الحارسة من تستطيع شم رائحة الشرور.
 اثنا عشر قردها بعدد ساعات الليل البهيم، تنشب رماحها في جسد
 المتلوي ذي السموم، وينسحب جريحًا تاركًا خيطًا من دماء وراءه
 يسيل، صابغًا الفجر بلون وردي يتبدد كلما تقدم مركب رع الذهبي.
 تُجذف قردة البابون وتمخض وجه السماء، ماسحة عنها ما علق من
 رجس الشرير، وتألقت القبة السماوية بضياء الصباح. وفي النهر

دفعت المجاديف السفن الملكية، ودوت الأبواق لتعلن وصول الملك آي.

استقبلته الملكة بترحاب بالغ، ومحاطاً بأتباعه خطب في الناس أمام الكرنك، طمأنهم على أحوال البلاد وأن قادم الأيام يحمل بشرى الخير، وكل ما عليهم هو أن يصبروا ويتحملوا، ليخرجوا من الفترة العصبية التي ألمت بهم بعد الفيضان. دُبحت الثيران والجواميس ووزعت لحومها على الفقراء والمساكين تقريباً للآلهة، وبالكاد أشبعت الذبائح العظيمة والولائم بطون الحفاة، وبعد عدة أيام شوهد هو وزوجته يزوران معبد مين إله الخصوبة في شمال طيبة، وتحلقت حولها كاهنات المعبد وسدنته، جميلة راقية تتعامل بلطف شديد ورقة متناهية، لم يكن من العسير عليها أن ترتدي قناع اللطف والتودد، ووحدتها نبت من كانت تعلم ما بداخل الملكة من بغض. زارها تحوتي ثلاث مرات قبل عودة الملك، وهي من كانت تسهل له الولوج إلى القصر، والآن ينقبض قلبها كلما حاولت استشراف ما قد يحدث لاحقاً.

ولم تلبث البلدة إلا أياماً، ليضربها سيل شائعات من جديد، داهم العوز البيوت وجثم الهم على النفوس، كثرت إضرابات العمال وتراخى الموظفون في أداء مهامهم، والكلام بضاعة الأسواق. حاول كهنة آمون جمع الناس من حولهم مرة أخرى، وهاجم غوغاء متعصبون معبد آتون، خربوه وسلبوا كل ما فيه وذروه قاعاً صفصفاً، وفي ذات الليلة جاء زمرة من فرسان آمون وبسطوا حواجزهم حوله، وأغلق المعبد بمرسوم ملكي يقضي بحظر عبادة الإله الزائف، وشاع

خبر قتال دار بين قوات الحرس الملكي وفرسان آمون، وما حدث خلف جدران القصر، بقي خلفها.

أوشك القمر على الاكتمال، واقترب ميعاد لقاء تحوتي بملكته، وبات الملك قليل الظهور، منذ أن عاد من منف، ووحده الكاتب معي من يستقبل الوفود، ويخرج القرايين إلى المعابد باسم سيده، وبين الحين والحين يظهر باسر بن حوي بزي الحرس الملكي، الأمر الذي نفى الشائعات عن وجود خلاف بينه وبين فرسان آمون. وأيام مضت على تحوتي ورفيقه داخل المدينة، لم تفلح مساعيه للدخول إلى مجمع القصور بعد رجوع الملك، حيث انتشرت فرق ودوريات فرسان آمون، ورأى جدف بأ أن عليهم البقاء في طيبة التي تغلي ببطء. تجولوا فرادى في الأسواق والمعابد، يحومون كقطيع من الضواري حول أسوار القصر، يلتمسون الأخبار من ألسنة العامة التي لا تكف عن الحديث، يقولون إن أعظم الرائن الكاهن باواح أصيب بالعمى، وطلب من الملك أن يقضي ما تبقى من عمره في كنف رع بمدينة أون المقدسة، وضحك كا ساخرًا من القصة وقال:

- يبدو أن آلهته سئمت تلصصه عليها.

ورحل جدف با عائداً إلى البر الغربي، وعهد إليهما أن يتوخيا الحذر حتى عودته، استقر بهما المقام في دار صغيرة، يستخدمها المدجاي مخزنًا لبضائع موسم الحصاد، ينامان على الأجولة الخشنة، ويجوب كلُّ منهما ناحية مختلفة من المدينة، وإن تقابلا يمران كغريبين بين طوفان البشر. يسهران الليل يُراقبان القصر وأسواره، وذات صباح استيقظا على أصوات هادرة وهياج يملأ الشوارع، ت قلب

كا غاضبًا من بعد هروب النوم، وبوجه ناعس وعينين نصف مغمضتين نهض تحوتي ليتبين ما يحدث، ومن نافذة الدار رأى جموعًا من الناس تهرول باتجاه باحة السوق. أخرج رأسه ونادى أحد المارين:

- يا رجل، ما الذي يحدث؟

قال أحدهم وهو يحث الخطى:

- الملك آي في باحة الكرنك...

تلقى تحوتي الكلمات وركض لِيُنهض صاحبه، ولم يستغرقا كثيرًا من الوقت للوصول إلى باحة الكرنك، ولكن الملك أنهى حديثه ورحل؛ ركب عربته ومن خلفه حُمِلت محفة الملكة ذات الستائر المخملية، ومضى الموكب بين الحشود عائدًا إلى القصر. كان من الصعب عليهما اللحاق به، أراد تحوتي رؤية الجالسة داخل الهودج الذهبي، وراح كما يسأل الناس ويستفسر عما قاله الملك. لا شيء جديد، جاء وملكته للصلاة وطلب العون من الآلهة، ووعد الناس بحياة رغدة، وبث فيهم أملًا بأن تصير الأمور إلى حال أفضل، وبين الجموع سرت أحاديث ناقمة على الأوضاع، لا تُشبع الوعود والآمال البطون، ولا تكسو الكلمات المنمقة الأبدان، وبدا أن الملك ورجاله غير قادرين على احتواء الأمور. عجيب أمر الناس يسجدون له وما إن تستوي ظهورهم يسبون! مشى الرفيقان ومن حولهما تتقلب الوجوه والألسنة، افترقا عند ساحة معبد طيبة، كل إلى سبيله وغايته.

في تلك الليلة لم يعد كما إلى ميتهما، توجس تحوتي، والخلائق تغط في نوم عميق، وطال انتظاره مستذكرًا ما كان من أمر لقائهما الأول وصفاقته، غامض لا يتحدث كثيرًا، لا يدري إن تبدل أم أنه

هكذا طوال الوقت. ظل يفكر فيه ويستشرف الطريق مترصدًا عودته،
جاء الفجر وبرز الغائب على قارعة الدرب، لم ينتظره تحوتي ليدخل
وسأله:

- أين كنت؟

رمقه كا وهو يدلف إلى الدار:

- تسللت إلى القصر، ورأيت الملكة بصحبة كاهنات خليعات،
دخلن جميعًا إلى قاعة شديدة التحصين، لم أستطع الولوج إليها،
وفي أثناء تجولي وجدت هذا الخاتم في زاوية ردهة الملك،
وكانت هناك آثار دماء على الأرضية والجدران، ورأيت آي رفقة
قائد الحرس وبعض الكهنة.

أخذ الخاتم وأخذ يقرأ الاسم عليه، آي وعنخ إسن آمون، وكا
يستطرد:

- نجحت في الاختباء حتى عادت الملكة إلى ردهتها، حيث
كان ينتظرها، وما إن أُغلق الباب افترس فحل الجاموس الظبية
الصغيرة، اللعنة يا رجل، لقد ضاجعها بقوة ممتطيًا إياها، وكانت
تتلوى تحته بشبق، وآهات نشوتها سُمعت في الأرجاء، هل تعتقد
أنهما شريكان في الجُرم؟

بغضب رد تحوتي:

- إنها ليست الملكة.

- بل هي. أقول لك رأيها محاطة بالكاهنات والحرس ينحنون
لها كلما مرت بأحدهم.

لم يستسغ ما قصه كا، وقبض على الخاتم بقوة:

- لا أصدق كلمة مما قلت، حتى أرى بنفسى.
- اذهب إذن وألق ما يكفي من النظر لتصدق أنها أنثى ثعبان سام
تتلذذ بتبديل جلدها وغواية بسطاء العقول. ودعني أنعم بقسط
من الراحة قبل أن أعود إلى البر الغربي.
- ما الذي تقول؟! أتعني أنك لن تتم المهمة؟!
- مهمتنا كانت تقتضي أن نقتفي الأخبار ونرى الأوضاع من كذب،
وقد فعلنا، وما رأيته جعلني أفكر في جدوى تلك المهمة، إن
الملكة التي نسعى إلى نصرتها، تضاجع قاتل أخيها...
- أنت لا تعرف عنخ إسن آمون.
- رأيت وسمعت عنها ما يكفي.
- سأدلف إلى القصر الليلة مهما كلفني الأمر.
- رماه كا بنظرة يائسة قبل أن يلقي بجسده إلى الفراش الخشن:
- افعل ما تريد يا تحوتي، واطركني أنعم ببعض النوم.
- لم يُرد النوم بقدر ما رغب في إنهاء الحوار، أغلق عينيه ولكن
صوت تحوتي داهمه:
- هل كان هذا الخاتم قريباً من آثار الدماء التي رأيته؟!
- أجاب متململاً وهو مغمض:
- بموضع قريب.
- جلس تحوتي جواره وقلَّب الخاتم في كفه:
- عشت في هذا القصر بضع سنين، لم أفارق الملك وزوجته
إلا لقضاء حاجتي أو النوم، رأيت كيف تحبه وترعاه. أخت
كبرى قبل أن تكون زوجة ملكية، تحب الزهور وتهديه كثيراً

منها، تنصت لأحلامه وأمنيته، تربت على قلبه وتأبه لوجعه. إنها سيدة من الصعب ترويضها وإخضاعها، وشاهدت وجهها حين ربطت خيوط المؤامرة، وأدركت أنني صادق، وربما خدعها أي بحيلة ما، واستطاع الفوز بالعرش وليس بها، وإنها لبريئة من إفك أشاعه وضيع ما، إنها ليست خائنة للبلاد والآلهة، وأريدك معي حين ندلف إلى القصر. إنها في مأزق يا كا ولن نتركها.

فتح كا عينيه على ذكرى تلك الليلة التي تحدث فيها مع حور، انقلبت الأدوار الآن وأضحى هو الجبان، تعب من الترحال وسئم المخاطرة، ركن إلى الأمن وعيني نخ تي الساحرتين، ارتضى بما أصبح عليه ولا يريد خسارتها بعد أن ذاق حلاوة الحياة في قربها، ولكن تحوتي محق لذا سيساعده للمرة الأخيرة، من أجل حور ونخ تي وكل من أحبهم وأحبه يومًا. اعتدل جالسًا وقاطع ثرثرة تحوتي:

- هل لديك خطة لما بعد دخولنا ومحاولة لقاء ملكتك؟

ابتسم تحوتي على غير عادته، وراح يشذب أفكاره ويرتبها، رسم بحجر جيرى على الأرض خريطة القصر، أسواره وأبراجه ومبانيه، حتى مواضع التماثيل وبوابة الميناء، وجاء على ذكر سراديب قديمة وأبواب سحرية، سمع عنها ولكنه لم يرَها، وبدأ يشير إلى تمرکز قوات الحرس الملكي، ودوريات فرسان آمون. أضاف كا بضع لمسات هو الآخر، مهمة هدفها ملاقة الملكة التي يظن حارسها السابق أنها في مأزق، سيجب عليهما إقناعها بضرورة المغادرة معهما. قبل الظهيرة كانا قد انتھيا من وضع تفاصيل خطتهما، نال

الإعياء من كليهما وأخذتهما سِنة من نوم، حتى أيقظتهما طرقات على باب الدار، نهض كا صاحبًا خنجره، وقفز تحوتي إلى الباب مستندًا إليه:

- مَنْ الطارق؟

- افتحا أيها الكسولان. غادر رع السماء وما زلتما نائمين.
انتشلهما صوت جدف من غابات القلق، فُتح الباب ودلف المدجاي طويل الوجه متطلعًا إليهما:
- يبدو أن ليلتكما لم تكن جيدة.
صافحاه وحدثه كا:

- عجيب أن يعود المدجاي البطيء سريعًا، هل من أخبار جديدة؟!
أجاب جدف با وهو ينظر إلى تحوتي الذي أغلق الباب وقدم إلى جواره:

- سأخبركما ولكن ليس قبل أن آكل، جائع، هل لديكما أي طعام هنا؟!
رد عليه كا:

- أعرف جزارًا جيدًا قريبًا من هنا، إن كنت ستدفع أنت ثمن الطعام.

ضحك الرجل ولكمه في كتفه صائحًا:

- لئيم أنت يا كا.

ولم يستطع تحوتي صبرًا، وسأله:

- سيدي، هل جاء رسول من القائد حور محب؟!

أوما جدف با برأسه وصاح فيهما:

- أقسمت ألا أتحدث حتى آكل.

خرجوا إلى السوق وقد خف الزحام، ورفع كثير من الباعة والتجار بضاعتهم. علم تحوتي إلى أين سبيلهم وتأكد حين وقف كا أمام حانوت جزار، وسمع أحدهم يتمتم باسمه فرحًا:
- الفارس تحوتي.

هرع صاحب الصوت إليه متابعًا:

- مر زمن منذ زرت السوق، تفضلوا أيها السادة، إن لديّ أشهى الأطباق، سيدي الفارس يعرف ذلك.
تبادل النظرات اللائمة القلقة مع رفيقيه، وإن بدا أن كا لا يبالي، وأمام إلحاح الرجل دلفوا إلى الحانوت وتحوتي يحدثه:
- سيخمي، كيف حالك؟

أفسح لهم الرجل الطريق ورحبت زوجته بهم. مسح الطاولة، وسحب مصطبة خشبية إلى جوار كرسي وقال فرحًا:
- باركتنا الآلهة بقدمك أيها الفارس النبيل، نحن بخير حال، وإن كانت الأوضاع في طيبة غير ذلك.
جلسوا وقاطعه كا ببرود:

- ماذا لديكما في قائمة الطعام اليوم؟

- كل ما يطيب لكم. لحم الإوز المحمر بدهن الضأن، وكبد الإوز بالبصل والثوم والكراث، ولحم فخذ الثور المدخن، والبط المسلوق مع حساء العدس والفجل.

جاءت زوجته بأقداح خشبية وجرة بيرة الشعير، وتحوتي يقول لزوجها:

- سأكتفي بلحم الإوز المُسوى بدهن الضأن مع بعض الخضراوات.

وأضاف كا المبتسم:

- وأنا أريد كبد الإوز وشريحة كبيرة من لحم فخذ الثور.
وقال جدف با مازحًا:

- أريد مثل هذا التعيس، مع إضافة حساء العدس.
ذهب الرجل وزوجته لإعداد الغداء، وما إن ابتعدا كفاية همس
تحتوي:

- ما كان عليك أن تأتي بنا إلى هنا.

- لا تقلق، كل ما أردته أن نحصل على وجبة لذيذة تسد جوعنا،
وقد وجدنا من يدفع ثمنها.

قاطعهما جدف الذي أخذ يصب الجعة:

- إن لم يعجبني الطعام فلن أدفع.
رد كا:

- سيعجبك بالتأكيد، لقاؤنا الأول أنا وتحوتي كان هنا.

نظر تحوتي تجاه الجزار الذي أخذ يجهز الأطباق:

- لقد كان حور هو من جمعنا.

ارتشف المدجاي قليلًا من شرابه:

- لقد كان رجلًا صالحًا.

هز تحوتي رأسه:

- نعم، طيب القلب بسيط الأحلام. لم يُرد من الحياة سوى رضا
والديه والآلهة، ولم يتغ إلا الخلود معهما وهما اللذان شقيا

وتعبا في تربيته، أراد أن يُذكر ولا يصيب ذكراه نسيان. وما نفعله

الآن هو خطوة في الطريق الصحيح لمنحه ما يستحق.

شرد كا وهو يتذكر كلمات حور الأخيرة، لم يتبع إلا أن يُدفن مع عائلته، وأن يحظى والداه بدفن لائق، أن يجتمع معهما في حقول الآرو. ومرة أخرى اندفع سيل من الأسئلة حول الإيمان والحساب والحياة الآخرة بداخله، وهو الذي لا يؤمن بكل هذا، ولكن حور يستحق أن يُكرم كما أراد، حتى وإن لم يتفق على تلك المسائل الإيمانية معه. وُضعت أطباق الطعام الشهية أمامهم، وفاحت الرائحة الشهية لتطمس عنهم كل الأفكار من دون الأكل، خبز طازج ساخن جاء به سيخمي المبتهج بضيوفه، الذين دار بينهم حوار خافت تدفعه اللقيمات. أخبرهما جدف بأن قائد الجيوش أرسل مبعوثه برسالة مفادها:

- أن تتجهز قوات المدجاي للتدخل في الموعد الذي حدده هو، ولا يعلمه إلا القائد نب خنوم الذي يقول إن آي وكهنته ألقوا بأنفسهم إلى العامة.

ابتلع تحوتي ما بفمه، وأخذ يبحث في حزامه عن شيء:
- إلى متى سنتنظر، الملكة في خطر، انظر ماذا وجد كا ليلة أمس...
أخرج الخاتم رافعاً إياه أمام عيني جدف با الذي توقف عن المضغ، تلفت الرجل حوله قبل أن يلتقطه متفحصاً إياه وتحوتي يكمل حديثه:

- كانت هناك آثار دماء في الردهة الملكية...
وأضاف كا وهو يميل ناحية المدجاي:

- لدينا خطة لدخول القصر الليلة.

- بل ستعودان معي إلى البر الغربي.

ألقى إليهما بجملته المقتضبة، واستدار مناديًا الجزار:

- أيها الرجل، أحسنت صنعًا، إنه أجمل طعام تذوقته في طيبة منذ زمن بعيد.

أخذ جدف يجادل ويحاور سيخمي، وتحوتي وكا واجمان لا يقويان على النطق، تبددت آمالهما في إنهاء كل هذا العبث، يعرفان أن الرجل صعب المراس كقائده ساكن الجبل الغربي، أخذًا ينيهان طعامهما وقد علم كل منهما ما يدور في رأس الآخر. شرب كا قدحًا من جعة الشعير منافسًا المدجاي، وما إن فرغوا نهضوا تحاوطهم عبارات التبجيل والحفاوة من صاحب الحانوت وزوجته. أجزل جدف بالهما العطاء، ووعد بالعودة إلى المكان كلما سنحت الفرصة. مشى ثلاثتهم عبر دروب طيبة، آثرين الصمت متنسمين هواء المساء العليل، ملئت بطونهم بالدمس والدهن، وثقلت خطواتهم وهم يتجهون إلى معبد طيبة الكبير عبر طريق الكباش المقدسة. توقف تحوتي فجأة محدثًا رفيقيه:

- لن أعود إلى البر الغربي، حتى أطمئن على الملكة، يمكنكما العودة وتركّي هنا، لست من المدجاي وفي عنقي قسم الحرس الملكي، ولا آبه بمخططات قائد الجيش حور محب. كل ما أفكر فيه هو إنقاذ الملكة.

باقتضاب أجابه جدف:

- لن يمنعك أحد إن ذهبت. ولكن هل ستفعل هذا وحدك؟

- إن اقتضى الأمر ذلك، كل ما أريده هو الاطمئنان عليها وإخبارها بأننا إلى جوارها.

وتدخل كما محدثاً المدجاي:

- يمكننا فعل هذا، والعودة إلى البر الغربي قبل الفجر.
نقل بصره بينهما:

- اتفقتما عليّ إذن؟

رد تحوتي بضيق:

- الواجب يحتم علينا تحرّي ما يحدث داخل القصر. سأقابل
نبت إن لم أفلح في لقاء الملكة، سيتم الأمر بسرعة ومن دون
أن يشعر بنا أحد.

حل الصمت بينهم، لم يقطعه إلا ترنيمة لكروان يتوارى بين
الأغصان وسعف النخيل، وأول من نطق كان جدف:

- سأنتظركما عند المرفأ الجنوبي القديم. حتى خيط الفجر الأول
وإلا سأرحل من دونكما.

* * *

غرب القمر تاركاً مسحة من ضيه في السماء، ليلة هادئة مثالية
للتسلل ومصاحبة الظلال، خفيفين كفهدّي صيد تجاوزا السور
الخارجي، لم تلاحظهما دوريات الحرس الملكي، وفي الداخل
ركن فرسان آمون وكهنته إلى الدعة والخمول، عبرا من خلالهم
مع الهواء الساري بأروقة القصر، وعند الممر المؤدي إلى الحديقة
همس كا سرقت:

- علينا الوصول إلى شرفة الردهة الملكية.

تسللا خلف التماثيل والأشجار، اندسا في العشب الطويل وسكنا حتى مر أحد الخدم، أحب كاذك الشعور بالإثارة، نشوة أكبر بكثير من تلك التي كانت تراوده قديمًا، لص مقابر يُداهم مرأقد موتى لا يستيقظون. أفنع نفسه بأن لا ضير من تسلل أخير وليلة من الإثارة، قبل أن يعود إلى نخ تي والحياة التي يريد، أمّن ظهر تحوتي واثق الخطى الثابت على عهده وقسمه في سبيل ما يؤمن، آلهته وملكته وبلاده.

تسلقا كرمة العنب إلى داخل الشرفة، المكان خاوٍ ومصباح زيت وحيد بالكاد يضيء زاوية فراش مُرتب، لم يكن هناك أثر للملكة أو أي شخص آخر، بحث تحوتي في الأرجاء، نظر إلى أسفل السرير، تفحص الكؤوس وشم ما علق بها من رائحة النبيذ، وجذبت عينيه لمعة الذهب بأحد مسندي كرسيها، اقترب ليجد أن أحدهم كشط اسم الملكة، وإن بقي جزء من كلمة عنخ. وتمتم كا مقاطعًا شروده: - علينا الذهاب إلى البهو الآخر قرب بركة المياه، حيث رأيتها معه، تعال.

قصدا الجناح الشرقي للقصر، مرًا بالبهو المقدس، اضطر كا إلى أن يبقى بين الظلال مراقبًا للطريق، بعد أن رفع تحوتي إلى إحدى نوافذ غرفة الملك، انسل بوثة رشيقة إلى مخدع آي، وأول ما وقعت عليه عيناه جسد ملقى بالفراش، دنا ووجم حين رأى وجه نبت. تغط في نوم عميق، لا يدري كم لبث تائها في زحام الظنون حين فتحت عينها، ظنته حلمًا، وما لبث أن شهقت فزعة، اقترب منها:

- لا تخافي، أنا تحوتي.

تنهدت متدركة الأمر:

- أفزعتني. متى تكف عن هذا؟

- ماذا تفعلين هنا؟

توترت واعوج لسانها، سألتها مرة أخرى مضيئاً:

- نبت، هل الملكة بخير؟

أومأت محاولة الابتسام وردت بتلعثم:

- نعم هي بخير، كنت أرتب الفراش هنا ونعست، كما تعلم أفعل
دوماً ما أشتهي.

اقتربت منه ملاطفة، وعيناها لا تفارقان وجهه، وبنبرة شوق
ناعمة قالت:

- اشتقت إليك.

- أين الملكة؟

عضت شفتيها غيظاً، وردت بحق:

- لا أظن أنك تستطيع مقابلتها الليلة، أو أي ليلة أخرى...

مع آخر حروفها سحبت خنجرًا من غمد مخفي أسفل ثوبها،
فاجأته وحاول تفاديها، ولكن النصل غادر كصاحبته، جرحته وأثارته
قطرات الدماء المتناثرة على وجهها، صرخت وهاجمته مرة أخرى،
لطمها بكل قوته لتسقط فاقدة الوعي، أهذه حقاً نبت التي يكن لها
الحب؟! تحسس جرح كتفه متألماً، ووقع أقدام من سمعوا صراخها
يقترّب، وصوت جلبة آتية من الحديقة. بسرعة حملها إلى الفراش،
دثرها والتقط الخنجر، وبالكاد توارى خلف تمثال حتحور، واندفعت
مفرزة جند إلى البهو، يحمل اثنان منهم المشاعل والبقية يشهرون
سيوفهم، جالوا في المكان وتقدم قائدهم إلى الفراش، السيدة نائمة.

تردد في إيقاظها وعدل عن الأمر حين سمع نداء الحرس في الخارج، غادروا المكان بسرعة وأغلقوا الباب خلفهم، عدَّ أنفاسه وأغمض عينيه لوهلة قبل أن يقرر الخروج، أرهف للصمت وتحرك لإيقاظها واستجوابها، استل واجبه وألقى الذكريات إلى ظلمة نون، حيث تقبع كل الشرور، همَّ بإيقاظها إن تحتم الأمر... توقف بفعل صرير الباب يُفتح من جديد.

انسكب الضوء من خلف القادم، دافعًا ظله الطويل إلى الأمام، ميزه من فوره، وتأكد حين تحدث ذو النعلين الخفيفتين:

- ابحثوا في كل شبر من أرجاء القصر. وأخبروا الغبي بأسر بن حوي بأن يزيد عدد الحراس حول مهجعي.

أنهى أي كلماته الأمرة وأشار إلى حرسه وخدمه بالرحيل، أغلق الباب وهيمنت الظلال، ألقى بصره ناحية الفراش حيث تنام نبت، توجه إلى النافذة وتطلع إلى الصمت والعتمة من تحته، وعاد إلى مضجعه وهو يخلع أساور يديه، ونعليه، وحزامه وغمده وصديريته. خطا حافيًا متجهًا إلى الفراش. وتوقف ثم تراجع خطوة وانحنى يتفحص الأرض. قطرات دماء لزجة دافئة كفاية ليدرك أن صاحبها ما زال هنا، لم يكد ينهض إلا وسمع صوتًا يحدثه:

- إياك والصراخ وطلب النجدة. ولا تُقدِّم على أي حماقة. تلفت بسرعة ليجد نصلًا حادًا يلامس رقبتة، ومن ورائه وجه غارق في الظلال، رد الملك ساخرًا:

- إن ما تفعله هو حماقة بعينها. أبعد هذا النصل ودعنا نتحدث كالرجال.

دفعه تحوتي وأرغمه على الجثو، ما زال الرجل عفيًا على الرغم من تقدّم سنه، رفع عينيه ونظر إلى وجهه وابتسم ببرود حين علم هوية مهاجمه الذي سأله بحدة:

- أين الملكة عنخ إسن آمون؟

رد آي ببلادة:

- قل الاسم وسأعفو عنك. من أرسلك لتبث سمومك؟ حور محب؟

- كفاك ثرثرة، أيها الخائن الوضيع. أين عنخ إسن آمون؟! أقتلتها مثل توت؟!

- لو أردت قتله لفعلتها قبل أن آتي به إلى طيبة. ما الذي يدفعني إلى هذا وأنا من أفنيت عمري في رعايته وتقديم العون له؟!

- بل أنت من فعلها، واستأجرت ذلك المدعو أوسر ليعبث بالعجلات الحربية، أنت من رتب كل شيء من البداية، سطوت على مقبرته واستبدلت بها قبرك الوضيع، ونصبت نفسك ملكًا على جدران المدفن قبل أن تضع تاجًا على رأسك. خدعت الأرملة المسكينة، وأثرت الشائعات في البلاد. قُدت انقلابك بكل هدوء وخسة، متخلصًا ممن حاول كشف أمرك، وفضح فعلك الدنيء. وثقت الملكة وأخوها بك، وخذلتها وغدرت بهما.

ارتعشت يد تحوتي وشعر بآلم يسري في أوصاله، لاحظ آي الأمر وقال بنبرته الرخيمة:

- ليس هذا ما حدث، إنك لا تعرف شيئًا وما تتفوّه به ليس سوى تكهنات خاطئة. أنا من أنقذت البلاد من الفوضى، وثبتُّ قواعد

العدل، أنا من اصطفيتني الآلهة ودفعت بي إلى مقام الخلود
والأبدية بين المبجلين، سيتعبد لي البشر من بعد موتتي الأولى،
كمثل أوزير...

قاطعته تحوتي بغضب:

- أنت نكرة، سرعان ما سيمحي اسمك وتُنسى في غياهب الزمان.

ضحك آي قبل أن يرد بسماجة:

- اقتلني، هيّا افعلها...

ولم يكد يتم كلماته بفعل نبت التي هاجمت تحوتي، تعلق برقبته
بكل قوتها، حاول إلقاءها عن ظهره ولكنهما ارتطما بأحد الأعمدة،
سقط الخنجر من يده وانقض آي كعاصفة من الركلات واللكمات
بوجه وصدر تحوتي، كأن العجوز استرد شبابه وعافيته. استطاع
تحوتي التملص منهما، وأحكم قبضته على رقبة آي محاولاً خنقه،
لكن نبت عادت تلوح بصولجان ذهبي، ضربت الأعمدة والتماثيل
وكل ما صادفها، تفادى تحوتي ضرباتها من دون أن يُفلت آي، الذي
حاول الفكاك من براثن مُصارعه، وبالكاد نطق بحشرة:

- نادي الحرس، أسرع.

ألقت الصولجان الثقيل، وركضت بسرعة نحو الباب، فما كان من
تحوتي إلا أن ضرب رأس آي مرتين في الحائط، قبل أن يتركه ويهرع
ممسكاً بها قبل أن تصل إلى المقبض، كان ثائراً عنيفاً، كعجل أبيض
هائج، حملها وألقى بها قرب الفراش، وساد السكون بعد صرختها
المكتومة وصوت ارتطامها بالأرض، نهض على الرغم من الألم الذي
نال من جنبات جسده، وعاد بخطى ثقيلة إلى آي المنهك، لكمة تلو

لكمة، وتفجرت الدماء من أنفه وشفتيه، وأخذ يتفوه بكلمات غير مفهومة. توقف تحوتي عن ضربه:

- انطق وقل إنك الفاعل.

تفل آي الدماء، وقال بصعوبة مُصرًّا:

- فعلت الكثير من الأشياء التي أفخر بها، ولكني لم أقتل توت...
لم يسمع تحوتي بقية جملته، شهق أَلْمًا وخنجر الغدر ينغرس بظهره، طعنة قوية جعلت جوارحه تتصلب، أفلت الملك وخر على ركبتيه، ضحك على الرغم مما به من أَلْم، ووراءه نبت تقف بوجه دامٍ وعينين حمراوين يملأهما الموت، وقالت بمقت:

- لطالما سمعتهم يتحدثون عن حكمتك وشجاعتك، ووسامتك أيها الحارس المطهر الذي لا يمس النساء، ولا يقرب الآثام، سر الملك وساعده وعيناه، والفارس النبيل المفضل لدى الملكة، يا لهما من بائسين وضعا ثقتهما في غبي، يظن نفسه أذكى الناس. أنت دنس بقدرنا جميعًا، أَلْم تُقدّ عملية نقل تابوت الذي لا يُذكر اسمه إلى البر الغربي، لقد خنت الآلهة وخذلت آمون رع بفعلك لنصرة آتون، وضاجعتني حائثًا بكل نذورك، ولا أنكر أنك فعل خصب...

صاح آي مقاطعًا بعد أن استرد أنفاسه:

- توقفي عن الكلام، وأجهزي عليه.

- سيموت على كل حال. السُّم يسري بيدنه ببطء، عليّ أن أشكر الكاهنة إيبار على هديتها تلك، قالت إن الخنجر نُقِع لتسعة أيام في سُم الكوبرا.

استجمع تحوتي ما تبقى من قوة وزحف إلى العمود القريب، وهي تتبعه بخطى بطيئة والخنجر يقطر دمًا، بصعوبة اعتدل جالسًا مسندًا ظهره إلى قاعدة العمود، نظر إلى وجهها وقال بثقة من لا يخشى شيئًا:

- الآلهة تسمع وترى، وأنا خلقت لهذا، لأكون شاهدًا على خيانتكم وفُجر خصومتكم، وميزان ماعت كاشف للزيف. خشيت الاقتراب منه خطوة أخرى، فتقدم أي وأخذ الخنجر من يدها قائلاً بضجر:

- أخبر الآلهة بأني من أرسلتك، هذا إن وجدت طريقك إلى قاعة الحساب أيها الضال، سأحرص على فناء اسمك وعدم ذكره إلى أبد الآبدين، لتتبه روحك البائسة في ظلام نون الأبدى. همّ بذبحه وابتسم تحوتي للموت، وقبل أن يصل النصل إلى حلقه، شق الهواء أزيز أتبعه صليل وشرر، سقط الخنجر من يد أي الفزع، وبرز كما سرقت شاهرًا سيف خاباش مصقولًا، وصاح فيهما بالتراجع وهو يركل أي ب صدره، حاول العجوز التوازن والأرض تميدبه، وما لبث أن وقع وارتطم رأسه بالأرض. لم يبالِ كالخادمة الجامدة وانكب على صاحبه:

- تحوتي، هل أنت بخير؟ لم يُجبه وإيماءة كانت كافية، وبطرفه لمح نبت تلتقط الخنجر، ركضت نحوه صارخة، فما كان منه إلا أن دار حول نفسه ملوحًا بالسيف الحاد، وحين اكتملت استدارته سقط رأسها عن رقبتها بنعومة ولزوجة، وبقي جسدها ينفث الدماء في الهواء قبل أن يهوي،

إلى جانب رأسها ذي الفم المفتوح والعينين الجاحظتين، ألقى نظرة على أي المَكُوم على الأرض، وعاد إلى تحوتي قائلاً:

- اعذر تأخري يا صاح، كان عليّ مراوغة الحراس وإبعادهم عن مكانك، حاول أن تتماسك، سأحملك إلى الأمان.

قبض تحوتي على يده، وقال والعرق يتصبب من جبينه:

- هل وجدت الملكة؟!

- دعنا ننقذك الآن، وبعدها نرى أمر هؤلاء الأوغاد وملكتهم.

حمله والدماء تقطر خلف خطواته، جعل الحراس يتوجهون إلى الجهة الأخرى من القصر؛ افتعل حريقاً في الحظيرة الملكية، وفك مرابط الخيل لتهرب مستنفرة. على الرغم من ثقل تحوتي مضى عبر الدروب الرملية والحشائش، وما زال الجريح على كتفه يتنفس، وعلى الضوء الشحيح رأى عجلة حربية تُركت قرب البوابات، لم يفكر مرتين وهو يبحث خطاه إليها، وضع تحوتي الذي أخذ يهذي بكلمات غير مفهومة، وصعد ممسكاً بلجام الجوادين، وصرخ فيهما:

- هَيَّا.

أطلق لهما العنان، ماراً من تحت البوابة مفاجئاً الجند، وما لبث أن غاب في ظلمة الليل.

* * *

اقتحم فرسان آمون والحرس الملكي ردهة آي، حاملين المشاعل شاهرين سيوفهم البرونزية، خاضت نعالهم الجلدية الخفيفة ببركة دماء قانية، انعكس على سطحها اللزج وهج النيران، توقفوا وأعينهم تتفحص جسداً أنثوياً من دون رأس ملقى قرب الفراش، وانبث الجند

يبحثون بحذر وسط الفوضى. رأس نبت مستقر بجوار أحد الأعمدة، وعيناها الجامدتان الجاحظتان ما زالتا تحتفظان بشيء من دمع ألم لم يذرف. اقترب باسر بن حوي بعيني خبير، وعلم أن الرأس لم يُنحر، بل ضربة واحدة بقوة وغضب، انتفض وأحد رجاله يقول بصوت جهوري:

- الملك هنا، أسرعوا.

هرعوا إليه وتفحصوه بحثًا عن أي جرح، حملوه بسرعة لم تخلُ من النظام إلى خارج البهو، وباسر يلتقط خنجرًا قريبًا من جثة نبت. تأملها وتفحص جسدها في نفس اللحظة، ثم اعتدل قائمًا وهو يقول لمقدم فرسان آمون بغضب:

- الدماء ساخنة، القاتل ما زال قريبًا، وإن لم يخب ظني فهو مصاب بجرح بليغ. أهكذا تحرسون الملك والملكة يا أوناس؟ خرج والرجل يتبعه مهرولًا:

- لقد كان رجالي يطفئون الحريق، ويطاردون أحد الدخلاء في الجانب الآخر من القصر.

- لم يكن علينا الخروج من القصر ليتولى الأمر من هم ليسوا بأهله. أين الملكة عنخ إسن آمون؟

وقع السؤال على أوناس كحجر ثقيل، لم يعرف بماذا يجيب، وقاطعهما صوت أحد الجند قائلاً بأنفاس متلاحقة:

- سيدي، لقد سرق رجلان عربة حربية.

وجل أوناس وانتفض، وصاح باسر بغضب هادر:

- ماذا تنتظرون أيها الحمقى؟! طاردوهما، هيّا.

وانطلقت جموع الحرس الملكي وفرسان آمون لمطاردة القتلة، فوضى عارمة من العجلات والجياد، وبينهم وقف باسر يستعيد ما حدث منذ أسابيع، حين اقتحم فرسان آمون القصر وطرّدوا كل الخدم والحرس الملكي، لم يبقَ داخل الحرم المقدس سوى الملك والملكة وكهنة آمون. امتعض وذكرى مرة تسري بحلقه، يومها مُنع من دخول القصر هو ورجاله، وتعلل الملك آي بأن هناك مخربين يتسللون بين الحين والحين، وأن الحرس الملكي وعلى رأسهم قائدهم مقصرون، ولا يُستأمن غافل على الأرواح، وها هو ذا آي يدفع نتيجة قراره العجيب.

عاد باسر إلى القصر مشدداً على الحراس والجند باليقظة، ودلف إلى بهو الملك المحاط بالكهنة والأطباء والمعالجين يمسدون جسده بالزيوت والمراهم. أوقدت المباخر ووقفت الكاهنة إيبار بوجهها الصارم تهمس بالصلوات ويدها على جبين ملكها، فاقد الوعي مُدْمى الوجه، مجرد رجل طاعن في السن، ليس إلهاً، كما يدعي أتباعه وكهنته بل بشر ضعيف واهن. غادر قائد الحرس الملكي تطارده ذكريات وآثام، يرى شبح توت يرقبه من بين الظلال متوارياً خلف الأعمدة، يحصي أنفاسه وينظر إليه بعينين خاويتين من الحياة. توجه صوب الردهة الملكية حيث تقيم الملكة، ولم يحاول أحد اعتراضه هذه المرة، لكن لم يكن هناك أثر لعنخ إسن آمون.



- ليت الكاهن باواح كان هنا.

نطق بها الوزير معي بأسى، محدثاً باسر الشارد، وهما يغادران

غرفة الملك بغير الوجه الذي دلّفا به، طردهما بعد أن وبخهما، حمّلهما المسؤولية تجاه ما حدث، وكال إليهما الاتهامات بالتخاذل والتآمر، كيف استطاع ذلك اللعين تحوتي أن يعود من الموت؟! بل ويقتحم القصر ويحاول قتله؟!

وبينما كان الكاتب معي يحاول الخلاص من شباك الأفكار والاحتمالات، خاض باسر حوارًا مع نفسه متسائلًا: «أين عنخ إسن آمون؟».

كان قد استغل فقدان أي للوعي نهائيًا كاملاً، وأخذ يبحث عن الملكة، مُنع خروج أي شخص من بوابات القصر، وسُئل الخدم والجند والعبيد، وتمنى لو نطق صور الملوك والآلهة بما رأت. استجوب رجاله كاهنات آمون وعلى رأسهن السيدة إيبار، ولم تنطق إحداهن بحرف، لا يدري بأي وجه يلومه أي وهو من أبعده وجنده خارج الأسوار، أي لعنة أصابت البلاد ليحكمها هذا الرجل، وما الذي أراده تحوتي بعودته؟! هذا إن كان الملك المسن لا يهذي.

- ما حدث في القصر يبقى في القصر، باسر هل تسمعني؟
كرر معي جملته الأخيرة مرتين، انتشله من غياهب الفكر، والكاتب يتابع:

- ولتُمنع الزيارات الرسمية منها والخاصة، ويراقب رجالك كل الموظفين، لا ندري حجم المؤامرة التي تحيط بنا.
سأله باسر:

- وماذا عن غياب الملكة؟ هل اختُطفَت، أم تبخرت كمثل أقاربها من قبل؟!

توقف الوزير ذو البطن المترهل، وقال بخفوت:

- ما الذي تود قوله؟

- ما أود قوله هو أنني أبعدت ورجالي عن القصر عمدًا، لئتم

هذا الأمر، ويسهل دخول المتسللين، وبعض الخدم يؤكدون

أن الملك والملكة كانا على وفاق، وأنه كان يزور جناحها أو

تذهب هي إليه بعد أن تنهي طقوسها مع كاهنات آمون!

- دع عنك تلك الترهات العبثية، تريد تبرئة ساحتك من التقصير،

وأنت المسؤول عن تأمين القصر وإن كنت خارجة، أراهن أن

عنخ إسن آمون هي من فعلت هذا، وأنها هربت مع القتلة.

ابتلع باسر بن حوي مرارة الكلمات، قرر الصمت وعدم خوض

أحاديث لا جدوى منها، لم يكن ليتخيل أن الأمور ستصل إلى هذا

الحد. رحل الوزير معي إلى بهو الموظفين، وبقي باسر وحيدًا بين

جدران قاعة الملوك، تأمل نقوشها ورسومها وخُيل إليه أن ذكرياته

تجسدت على الحوائط من حوله، حاصرته وجوه يعرفها، وأحس

بالضيق ومشهد يوم الصيد يستقر أمامه، وملكه صاحب عمره يلفظ

آخر أنفاسه بين ذراعيه. أشاح بوجهه عن الجدار ليصطدم بصره بتمثال

توت، شعر كأنه عاد إلى الحياة وينظر إليه بمحجرين خاويين، وبنبرة

خافتة حدث النُصب الحجري: «فعلت ما يجب عليّ فعله، ولعلك

تنعم بالخلود حيث أنت. هذه الحياة قاسية مليئة بالشور، ولا تليق

بمن هم في مثل نقاء قلبك أيها الملك توت عنخ آمون».

شعلة نار للمرء

«يا مشاعل النار حول رع أنيري درب الأنقياء
أيها المبجلون حراس حقول الآرو افتحوا مزلاج البوابات،
ليحمي سيد الحقيقة والكلمات من يحمل اسمه
وتستقبل ماعت مبتهجة من رفع ميزان عدلها فوق رأسه
ويتساءل التاسوع وهم أعلم: من يكون هذا؟!
وترد إيبث: ولد طيب من نسل طيب.
ويومئ أوزير واهن القلب قائلاً: عش خالدًا، وقد شهدت لك
الآلهة».

حام سرب عظيم من طير «أبو منجل» الأسود فوق جبال البر
الغربي، حدث عجيب لم يشهده أهل تلك الأنحاء من قبل، خرجوا
إلى الشوارع والحقول ليراو آلاف الطيور تدور في السماء، ولمحها
أهل طيبة من الضفة المقابلة كغيمة سوداء لا تتزحزح عن الأفق،
منذ الصباح الباكر وهي على تلك الحالة، تزداد ولا تنقص، دلالة لم
يخطئها أهل كهف المدجاي، كأنهم ينتظرون روح تحوتي المحتضر.

سرى السُّم بعروقه وسال الزبد من بين شفثيه، وبدت جراحه أرجوانية قاتمة بجسده الشاحب. لم يستطع الحديث وبياض عينيه يتمخض بالدم، وانسل دمع فراق الروح للجسد، ولم يستطع أحد وقف معاناته، ولفظ أنفاسه مختلطة بالدماء من دون أن ينطق بما أراد قوله. فاضت روحه وهو يُمسك بيد الكهل نب خنوم، الذي أخذ يلوم نفسه، أسى لما حاق بالفارس النبيل، لم يكن عليه السماح بتلك المخاطر التي أودت بحياة ابن عمار النسّاج الذي لحق بصاحبه ورفيق دربه، قضى نحبه في سبيل ما يؤمن وما أقسم عليه. شعر بأنه يختنق وهو الذي حذره من الخادمة اللئيمة، كانت تنتظره وهي الخائنة منذ البداية، غدرت به مرتين بعد أن وثق بها، سجنته في الأولى، وقتلته في الثانية، جاحدة متعصبة لآمون يملأ قلبها بغض، انتهى بها المطاف مفصولة الرأس عن الجسد، وبقي آي حيًّا. وسأل قائد المدجاي عن الملكة، واكتفى كما سرقت الواجم بقول:

- لم نرَها في أي مكان بالقصر.

ساعد الكاهن نب وع في تطهير جسد تحوتي، وأوقدت المشاعل وفرغت خزائن البخور استعدادًا لطقس التحنيط. طلبت نخ تي عدة لوازم، وأرسلت في طلبها من المدينة الجنائزية. ذهب جدف وبعض من رجاله، وجاءوا بكل ما طلبت. وما إن انتهت نخ تي من تجهيز تلك الكوة من الكهف حتى هرعت لتبحث عن حبيبها البائس. خرجت إلى فضاء الوادي ذي الجدران الجبلية، المائلة اتساعًا إلى سماء صُبغت بلون برتقالي، لم يعد فيها أثر لطيور «أبو منجل»، التي اختفت من حيث أتت. وفوق مرتفع صخري رأته يجلس مستندًا إلى حجر كبير.

يلقي ببصره على الوادي بضفتيه السوداوين ومدنه وبلداته،
الحقول الشاسعة والنخيل المتناثر، تبدو الحياة ضئيلة من علي.
وتماثيل الملوك المؤلهين مجرد أحجار مبعثرة، والنهر حي يجري
بنعومة لا يابه بساكني ضفتيه. لم تفارق عينا كما موضع القصر، ويلوك
بطرفي شفتيه قشة، مستذكرًا ما حدث في الليلة الماضية، لو وصل
مبكراً إلى تحوتي لكان حياً الآن، ليت ما طاعه على الدخول من
البداية. رفع عينيه إلى السماء وسواد الليل يمس أفق الشرق البعيد،
لم يموت كل القرييين منه؟! ولم يتحاشاه الموت الذي يتلذذ باللعب
معه وحصد أرواح أحبائه؟!

سئم المخاطرة وبات يخشى فقدان امرأته، محبوبته، تبدل عما
كان عليه، ما له يأسى على فقد غريبين بالكاد عرفهما، راوده شعور
يوماً بأنهما أخواه اللذان لم تلدهما أمه التي لا يعرفها؛ حور وتحوتي
صاحبان من منف نال منهما الموت بين ذراعيه. وكان لكل منهما
آمال وأحلام، مؤننان يسعيان في الحياة لبلوغ حقول الآرو. ومرة
أخرى سأل نفسه: «هل هناك حياة بعد الموت حقاً؟!».

- كا، هل أنت بخير؟!

جاءه صوت نخ تي ليجذبه من دوامة أفكاره، وتطلع إليها:

- أحاول ذلك.

اقتربت وجلست إلى جواره، وأخذت كفه بين راحتيها، مثقل
بالحزن ومُسود الوجه، وصفائر شعره ذابلة متربة، أحست بانكسار
قلبه، فلم تُرد إفساد حزنه وسكونه، وأبت نفسها إلا أن تزيع عنه بعض
ما ألمَّ به، كلمته بنبرتها الناعمة:

- لا تقسُ على روحك، رفيقك في حقول الآرو، ويومًا ما سنذهب إلى هناك جميعًا بعدل ماعت وصنيع أيدينا.
رد متأفّفًا:

- لا حياة بعد الموت، إنها مجرد أساطير توارثها الناس عبر الزمن، عذر واهٍ لضياح حياتهم هباءً.

- أنكر عليك قولك يا كا، ما وُجب عليك أن تقول هذا.
رد بضيق وانفعال:

- هل عاد أحد من بعد موته ليروي لنا ماذا رأى؟! ولكنني رأيت موتى لا ينهضون وقد أحيطوا بكل تعاويذ إعادة الحياة، ونقشوا أسماءهم على كل شيء ليدوم ذكرهم، وأحاطوا مدافنهم بفخاخ نصبها سحرة متمرسون وكهنة مؤمنون، أحدثك وأنا سارق القبور وقاطع الطريق، نعم هذا أنا. محتال خدعك وتقرب إليك ليستطيع الولوج إلى المعبد الجنائزي. أنا آثم مخرب في أعين آلهتك، ومدنس لقبور من تحنطينهم وتكفينهم، وتجهزينهم لرحلة لا وجود لها. أنا جبان خشي أن يقتل نفسه ذات يوم، وسعى في الحياة باحثًا عن خلاص. على الرغم من هول ما تسمع فإنها قبضت على يده، وقالت متصنعة للجديّة:

- إن كنت تقول هذا للخلاص مني، فاطمئن إنني باقية، وإن كان لضيق بصدرك فقد فرجت عما بقلبك من حزن.
- لا أريد فقدانك.

لفظ جملة القصيرة وساد من بعدها الصمت، خجلت نخ تي ونبض قلبها يزداد قوة، أشاحت بوجهها وهي تفلت يده برقة:

- ما في قلبك من نقاء، يجعله أخف من ألف ريشة لماعت، أعلم أنك طيب القلب وهذا يكفيني ويكفي آلهة قاعة الحساب، إن لم نعش على أمل أن هناك حياة أخرى، لأصبحت حياتنا الأولى بائسة، ولقتل المساكين والضعفاء أنفسهم للخلاص من الظلم الواقع عليهم، وإن كنت تخشى فقداني، فالخوف هو ما يصنع الشجعان من أمثالك، وأمثالي. هأنذا تعافيت مما حاق بي في حصن بوهين، وجدت حياتي من جديد، وعاهدت نفسي أن أفنيها في سبيل ما أو من. عليّ واجب مقدس تجاه الناس ومن يحيطون بي، وأو من أن الآلهة وضعتني حيث أرادت.

رد بنبرة رخيمة حزينة:

- كان عليّ منع تحوتي من دخول القصر وليس دعمه.
- حدث ما كان سيحدث، تلك أقدارنا ولا مفر منها، أنت في حيرة من أمرك يا كا، وتستطيع أن ترى الآلهة وصنيعها في كل شيء من حولك، وكما قال بتاح حتب، من يرشدهم الإله لن يضلوا، ومن يُبعد قاربه لن يستطيع العبور. قد نضل ونسخط على الآلهة لشيء في نفوسنا، ولكننا لا نستطيع إنكارها، رأيت بعينيك اليوم طيور «أبو منجل» المقدسة في السماء، إنها تجلي إله الكلمات المقدسة، جاء ليحفظ روح تحوتي الوفي.

- تتحدثين مثل حور، وجميع المؤمنين.

- وأنت، بماذا تؤمن؟!

- لا شيء، ولا أفضل أحدهم على الآخر. ولم أفكر يوماً أن أصبح خالداً أو إلهاً، كما يطمح الجميع.

- ولكنك ذكرت لي من قبل أنك معجب بست!
- أنا؟ كنت أشرح لك وجهة نظره فيما فعل، وكيف تُعاش الحياة، هذا إن كان ست وإخوته وأقاربه حقيقيين. أخبريني أنتِ ما الجدوى من عبادة آلهة تقوم بأفعال البشر، وانظري فعل كهنة آمون وملكهم الذي يُسمِّي نفسه والد الإله، ألم يقتل الملك ليصبح مكانه؟! انظري إلى هذه التماثيل والمعابد الضخمة لملوك ظنوا يومًا أنهم آلهة، وهم ليسوا سوى بشر، يحكمون بنفوذ وسلطة الكهنة وجيوشهم القوية، وليس بإرادة أيٍّ من الآلهة المزعومة. حتى آمون المتوج ملكًا للآلهة تقول الأسطورة إنه خُلق في رحم نون الشر الخالص، ولولا أحمس وأخوه كاموس ومن قبلهما أبوهما ما كان له وجود، لعقود قدم كهنته الأسرى كقرايين لثالوث طيبة، وكذلك فعل أخناتون تقريبًا لإلهه. أليس هؤلاء الأسرى بشرًا ولهم أهل وأسر وأناس يحزنون عليهم؟! هل حياتهم رخيصة ليُضحى بهم هكذا حتى وإن اختلفوا في العرق والشكل عنا؟! ماذا جنى حور وتحوتي وأمثالهما عبر التاريخ سوى النسيان؟! الأول كان زاهدًا يريد أن يدفن مع والديه، وأن يخلد معهما في حقول القصب الممتدة إلى ما لانهاية، والآخر أضاع حياته من أجل مجد البلاد وعرش ملوث بالدماء لا يرثه إلا القتلة.
- توضحيتهما لم تَضَع هباءً. صدقني الآلهة تسمع وترى.
- لماذا لم تسمعني يوم صرخت والخاباش يحصد رؤوس أهل الأشمونين باسم آتون، وأين كان آمون حين خسر الملك حياته بفعل دنيء؟! أين كانت حين كنتِ في حصن...

قطع كلماته ففاجأته هي بقولها:

- أكمل ما تود قوله، لن أغضب صدقني، مررت بمحن لا تحصى، وأثق بأن صبري وإيماني سيسفعان لي، كافأني الآلهة بك حتى وإن كنت لا تصدق هذا أو تؤمن به، وكذلك قدر لك ملاقة رفيقك لغاية وسبب، وحتى وإن كنت لا تؤمن بأي إله، فالمروءة تحتم عليك أن تنفذ وصية الميت، من افتدى بحياته روحك الحائرة، ومنحك فرصة لتجلس هنا وتحاورني وتتفكر في الكون والآلهة. كلُّ منا لديه دور في هذه الحياة، انظر كيف قاتل تحوتي في سبيل العدالة وسعى إلى تحقيقها، واسأل روحك عما تريد.

- أنا هنا من أجلك فقط، لا أعرف ما القادم ولا شأن لي بما يحدث في طيبة، ولا آبه بالآلهة وصراعاتها، ولا يهمني من سيضع مؤخرته على عرش البلاد. لا أريد كل هذا، ما خلقت لأكون جزءاً من مؤامرات ودسائس السياسة، أو أكون حبيساً في جبل أنتظر ما يُملئ عليّ. أريد الرحيل عن هنا وأنتِ معي. على الرغم أن ما يقوله أثار حفيظتها تجاهه، فإنها نطقت بشفتين مرتجفتين:

- إلى أين؟

- بعيداً عن طيبة وبر مصر العليا.

نال منهما الصمت ولفحتهما نسمة هواء بارد، حل المساء وإن بقي أثر من النهار، وبدأت قصور ومعابد طيبة على الضفة المقابلة توقد مشاعلها. أجابته وهي تنهض:

- نبقى حتى تشيع تحوتي . وبعدها نرى ما نحن بفاعلين .

- ستأتين معي؟!!

- إن أرادت الآلهة هذا .

ألقت ردها المقتضب ورحلت، من دون إجابة واضحة، تركته بين حيرة تؤرقه وخوف يتربص به، لم تره يوماً هكذا؛ ضعيفاً حزيناً إلى هذا الحد. تحبه وتهيم به عشقاً، ويؤسفها ما حاق به من أسي، وتعذره على ما يقول، وتتمنى لو تستطيع إزاحة ما علق بقلبه. كانا سيتزوجان وجاء موت تحوتي ليوقف كل شيء، تأملت حياتها وما أصبحت عليه، ما زالت تخدم الآلهة ويبجلها المدجاي.

* * *

تتجلى الآلهة وقتما تشاء، تهبط إلى الأرض وتتجسد كيفما أرادت، قصصها وحكاياتها موروثه عن الأجداد، وكرامات ومعجزات لا تخطئها عيناً مؤمن، كل هذا جال بخاطر القائد نب خنوم وهو يقف أمام جثمان تحوتي العاري، إلا من قطعة كتان وارت سوءته، غافياً لامع الجسد بفعل زيوت التحنيط، أطال النظر إلى وجهه قبل أن يتمتم: «آه يا تحوتي، رحلت وأخذت معك سر الليلة وما دار بينك وبين الوغد آي، لا أحد يعلم ما حدث في ذلك القصر سواك، ولا أستطيع لومك بعد أن رأيت إشارة الآلهة فوق رؤوسنا، أذكر تلك الليلة التي جئنا فيها بتوابيت أخناتون وعشيرته، وكيف أقنعتني حينها بحجبتك ورجاحة عقلك، أشركتني في مؤامرة لم أكن أحب المشاركة فيها، ولكنك ذكرتني بكل قسم مقدس، وواجبي تجاه الملك والبلاد، ولهذا جئت أخبرك بأن القصاص من قاتلك واجب

عليّ ما حييت، سأحرص على إلقاء المغتصب إلى غياهب النسيان،
لتسعد أنت في حقول الآرو مع من تحبهم ويحبونك، ويشهد آمون
وكل الأرباب على ما أقول، وما أفعل ليس من أجلك فقط، بل من
أجل بلادنا التي لا يجب أن تسقط في هوة الفوضى والضياع، هذه
أرض الآلهة ونحن عبادهما، وذاك عرشها وليجلس عليه من يستحق
بعوننا كما عاون أسلافنا حور بن أوزير».

غادر آمراً رجاله بالبحث عن جدف با وكا سرقت، ولم يطل
انتظاره حتى جاءه الرجال، يقطر الفضول من أعينهما، نقلّ بصره
بينهما وبين نُصب خنوم القريب قبل أن يحدثهما:
- سنذهب إلى طيبة.

عقد جدف با حاجبيه، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها الغضب
متملكاً من قائده الحكيم، لذا حدثه مستغرباً:

- سيدي، كيف تريد دخول دائرة الشك والظنون، ولم يمر سوى
يومين، وكما تعلم لم ينتشر خبر ما حدث في القصر؟!
رد الكهل بنبرته الخشنة:

- ما زلنا لا نعرف شيئاً عن الملكة وما الحالة التي أصبح عليها أي،
وآخر ما وصل إليّ أن القوات ينتشرون في كل شبر من المدينة،
وضيقوا على الناس والتجار، وصارت هناك قوة ثابتة عند الميناء
الجنوبي، حيث وجدوا العربة وبها أثر الدماء، وجواسيس كهنة
آمون ينتشرون في البر الغربي الآن، علينا المبادرة والنزول لرؤية
الأوضاع بأم أعيننا، ستكون زيارة رسمية من قائد المدجاي إلى
ملكه، وأريدكما معي كمساعدَي اللذين أثق بهما.

غمغم كما بضيق:

- لا أظن أنني خيار جيد لهذه المهمة. أخشى أن يتعرف عليّ أحدهم.

رفع الكهل بصره إليه وأجابه:

- بل أنت الخيار الأمثل يا كاسرقت، أثق بأنك تستطيع تدبر الأمور حين تتفاهم، كما أن لك عينين راصدين للتفاصيل وحدثًا لا يخيب، وشئت أم أبيت لقد صرت من المدجاي، أتم الأمر معنا من أجل البسطاء الذين سيعانون إن ظل هذا الطاغية على الكرسي، ومن أجل أرواح مَنْ ضحوا بحياتهم في سبيل البلاد ووحدتها، ومن أجل صاحبك الشجاع والوفي.

ربت جدف با على ظهر كا، وقال بعد أن صمت قائده:

- جميعنا يدرك موقعه من الواجب المقدس، وكا لن يخذلك سيدي، وما زلت أصر على رأيي في التريث وعدم الذهاب إلى طيبة الآن.

هز نب خنوم رأسه موافقًا لقول مساعده وأضاف:

- حسنًا، إن للرجل حرية القدوم أو الرحيل، لا إجبار في هذا، وأوافقك الرأي في التريث، نزولنا إلى طيبة سيكون بعد سبع ليالٍ.

أنهى حديثه المقتضب ورحل عائداً إلى وكره، ومضى جدف با إلى مهامه اليومية، وبقي كاسرقت وحيداً وسط الباحة المقابلة لمدخل الكهف، لا يدري لِمَ قادته قدماه إلى نُصب خنوم ذي رأس الكبش والقرنين العظيمين، ما زال عالقا به بقايا طلاء أحمر وأزرق

من زمن غابر، تساءل عن صانعه وكيف أتوا به إلى هنا في باطن الجبل؟! ليس من صخر المكان، وهناك من تحملوا مشقة نحته ونقله إلى هذا المكان، وتلك المائدة الجرانيتية متآكلة الأطراف تحت قدميه، عجيب أمر هؤلاء المؤمنين يُؤَلِّون كل شيء وفق ما يعتقدون، ويفعلون العجائب لأجل ما يؤمنون! أخذ يتذكر ما تعلمه في الأشمونين، وكل ما قيل عن الآلهة، وما رآه من مقابر القدماء وسرايب وأبنية عجيبة من أزمنة سحيقة، وكل تلك الصروح والمدن والبلدات لم تُبنَ إلا بالإيمان، وتفنن الصنّاع والحرفيون في إرضاء ملوكهم المؤلهين والآلهة، الذين ينكرهم جميعًا ولكنه يرى صنيع الخالق في أشياء كثيرة من حوله.

يدرك أن هناك خالقًا للكون وواهبًا للحياة، ولكنه ليس كمثل أتوم رع وأبنائه وأحفاده. قلبه الخاوي من الإيمان لا يستطيع ملئه بآمون ولا أي أحد من زمرة المقدسة، لا يستسيغ تقديم قربان لجسد من الجلمود لا ينطق ولا يحرك ساكنًا. ظل يحملق إلى وجه خنوم الذي لا يراه إلا كبشًا من صخر! عصفت به أسئلة لا إجابة لها، منذ مات حور صار مرتبك الفكر يخشى القادم، وهو ليس كهؤلاء المدجاي الذين يفنون حياتهم في حماية مقابر الأموات، ويعتقدون بأنهم حراس بوابات العالم الآخر، والآن يريد قائدهم الكهل أن يتدخل في أمور الأحياء، ما الذي يضطره إلى ذلك، وهو سيد البر الغربي؟!!

تذكر نخ تي، وكم أراد المضي قُدُمًا، ولكنه لا يستطيع الابتعاد عنها، يحبها وهي الوحيدة التي تأبه به وتحس بالضيق الذي يغزوه،

هي من خاطر بحياته لأجلها. استعاد كلماتها في آخر حديث بينهما، وما قالته عن أنه مدين لصاحبيه والضعفاء من أهل البلاد، حتى لا يتكرر ما حدث له قديمًا، لا يجب أن يملك الأرضين طاغية قاتل حانث للعهود، ولعلها محقة، وأنه بحاجة إلى أن يفعل شيئًا له قيمة في حياته التي يثق بأن لا حياة بعدها.



سبعة أثواب بدلتها سيدة السماء نوت، وتنسم الوادي بأنفاس شو صافي المزاج، وأزهر ورد وبساتين جب، وربضت تفنوت فوق قلوب الرجال، جُمع فيلق المدجاي وتراصوا تحت عين رع المشرقة، وخرج عليهم قائدهم المبجل نب خنوم يرتدي درعه متقلدًا أسلحته، رافعًا راية سوداء مهترئة الحواف عبث بها الزمان، تحمل نقش صل الكوبرا الحامي، راية الإلهة وادجيت التي لم تُرفع في حرب إلا وانتصرت، عقدها وخط رمزها ابن آمون الملك أحمس المحرر. ألقى التحية على رجاله وتحرك الركب المكون من عشرين فارسًا وعشر عجلات، هبطوا من جبال البر الغربي قاطعين الطريق الرئيسي عبر المعابد والحقول، إلى أن استقر الموكب عند الميناء.

ومن فوق أسوار وأبراج البر الشرقي شوهدت سفن ومعديات المدجاي تبحر إلى مرفأ طيبة، واستقبلوا بريية وقلق تلاشيا فور رؤية الكهل الوقور، حياه العامة والموظفون، وتهاмست النسوة مع العمال والباعة. عبروا طرقات المدينة العتيقة ذات المسلات والصروح العالية، لم تعجبه حال البلدة وما أضحت عليه، يستطيع أن يرى مسحة الحزن والاستجداء في أعين العاطلين، كثر الشحاذون

وتراخى كل ذي واجب عن عمله، ليست هذه مدينة الصولجان
المشرقة التي يعرفها، نال الجذب من أحيائها، وبسط الكدر هيمنته
على ضواحيها، وفرسان آمون وكهنته ينتشرون بكثافة، يخطبون في
جموع الناس عند أنصاب الآلهة والملوك القدامى، وتجمهر الناس
قادمين من كل صوب، أرادوا مشاهدة راية وادجيت الأسطورية.
وبينما الموكب يسير على مهل عند أحد المنعطفات، رأى سيخمي
الجزار وجهين مألوفين، ولكز زوجته قائلاً:

- انظري يا شيري، إنهما من زبائننا أتذكرينهما، ذلك الرجل الذي
مزح معي، وذلك الذي في العربة التي بجواره، هو خفيف الظل
ذو الشعر المصفّر بالخرز، تذكرينه؟! ولكنه يرتدي غطاء رأس
أسود كبقية المدجاي.

كان يشير تجاه عجلات الركب، حيث يقف كما سرقت الذي
حياهما بإيماءة، كانت كافية لتبث في الزوجين السعادة والبهجة،
وراح الجزار الفخور بزبائنه يبحث عن الفارس تحوتي بين الجمع!
قبل بلوغ الدرب المؤدي إلى بوابات القصر، اعترض طريق
المدجاي فرقة من فرسان آمون، شُدت أعنة الخيل وتوقف الصرير،
وما إن انقشعت سحابة الغبار قال أوناس بنبرة متعالية:

- يبدو أنكم ضللتكم الطريق يا قائد المدجاي.

رد نب خنوم بصوته الأجش:

- إننا راضينا بدروب بسطتها لنا الآلهة، والتي بفضلها لا نضل ولا

نتيه، هل هناك ما يستدعي اعتراض طريقنا إلى القصر الملكي؟!

- الملك ليس بالقصر، يمكنك العودة لاحقاً.

- في الحقيقة جئت لمقابلة سيدة الأرضين الملكة عنخ إسن آمون.
بدا الوجمل على وجه أوناس وهو يقول بنبرة أمره:
- عُد من حيث أتيت أيها القائد، لا أحد في القصر يمكنه مقابلتك.
برود قال الكهل:

- أين الوزير معي، والكاهن باواح، وقائد الحرس باسر بن حوي؟!
ولم يكذبني كلماته حتى ظهر الأخير ممطياً جواداً بُنيًا، جذب
باسر لجام مطيته ودار بوجوه المدجاي مبتسمًا، وتوقف عند كابرهة
قبل أن يتوجه إلى نب خنوم قائلاً:
- التحيات يا سيد البر الغربي.

ظهر الضيق على أوناس، والعجوز النوبي يرد بغلظة:
- التحيات يا قائد الحرس الملكي، ابن أبيك أنت يا باسر، جئت
فور ذكرك، ما الذي يحدث هنا، ولم نمنع عن القصر؟!
- سيدي، لا يستطيع أحد منعك، لعل المقدم أوناس أخطأ بقوله
إن الملك والملكة ليسا هنا، هما يحظيان بخلوة روحية في
حضرة آمون، والوزير معي في القصر الشمالي ويمكنك زيارته
إن كان لك حاجة.

لم يرق لنب خنوم نبرة باسر الذي حث جواده على التقدم وهو
يتابع:

- أو يمكنك أن تنزل ورجالك في ضيافة الحرس الملكي بضیعة
تحتمس الرابع، حتى يؤذن لنا بإدخالكم إلى القصر.
توترت الخيل خلال برهة صمت، تبادل نب خنوم النظرات مع
مساعديه قبل أن يهز رأسه إيجاباً:

- شرف عظيم أن نحل ضيوفًا على فرسان مطهرين.

- بل في ضيافة سيد الأرضين الملك آي والد الإله.

نطق بها باسر ولم يهمس أحد بكلمة من بعده، واكتفى الجميع بالمضي خلفه، ونال القلق من قلب كا سرت، شعر كأنهم يُساقون إلى فخ، ولكنه يثق بحكمة العجوز ونظرته العميقة للأمر، ويعرف أن المدجاي قادرون على فعل أي شيء.

* * *

قضوا ما تبقى من النهار في الضيعة الملكية وافرة الأشجار، والتي تحولت ثناياها إلى ثكنة عسكرية. أوصى باسر رجاله برعاية وتقديم الضيافة الوافرة للمدجاي وقائدهم، ورحل عن المكان على وعد بالعودة في المساء والاطمئنان عليهم، أما نب خنوم وأعوانه فاستغلوا وقتهم في تأمين المكان، وانشغلوا بالأحاديث الجانبية والتجول في أرجاء الضيعة، ولم يمسوا طعامًا أو شرابًا قدم إليهم، وراح كا يجوب الأنحاء كصياد حذر يخوض أرضًا جديدة، قلبه ينقبض كلما جاء إلى طيبة، وهو الذي انخرط مع المدجاي في أعمالهم، أحبه الجميع وتفاءلوا به على الرغم من قلة حديثه منذ أن عاد من حصن بوهين، يرافق الفارس جدف با، ولا يكادان يفترقان. حاول المحارب النوبي الصلب أن يثنيه عن فكرة الرحيل، وأن يبقى ويتلو قسم المدجاي ويصير واحدًا حقيقياً منهم، ويتزوج الكاهنة التي يحبها، ويعمران المغارة والجبل. فكر في كلمات الرجل الذي يرى أن زي المدجاي وأسلوب حياتهم باتا يليقان به، ولكنه لا يحب غطاء الرأس الذي يخفي صفائره، ولمن سيتلو قسمه إن كان لا يؤمن بما يؤمنون!

في الجانب الآخر من المدينة وداخل بيته القريب من القصر،
جثا باسر بن حوي مدمى اليدين، أمام ما تبقى من تمثال محطم لأبيه
وأمه، أفرغ جام غضبه عليه مهشماً إياهما، يكرههما ويلومهما على
وهبهما إياه إلى العائلة الملكية في آخت آتون، وحجتهما أنهما أرادا
أن يترعرع في البلاط المقدس، كبر بعيداً عنهما واشتد عوده طارحاً
ثمار البغض لهما. لم ير والده إلا مرات معدودات، وكثيراً ما يسمع
الوزراء والسفراء وروّاد القصر يمدحون سيد كوش ونائب الملك
عليها، ربما لو لم ير سلاه إلى قصر أخناتون لتبدلت الحال التي هو
عليها الآن. ضحياً به إلى الذي لا يُذكر اسمه الآن، بدلاً من أن يتربى
ليكون الأمير الوراثي لأبيه، شب على أن يصبح جندياً قاسياً، فارساً
لم يخرج يوماً في معركة، قتل كل عاطفة بداخله وفعل ما رآه واجباً،
فُرض عليه مصاحبة ولي العهد توت، الأمير الكسيح طيب النفس،
بقي إلى جواره في كل أفراحه ومآسيه، أشفق عليه وبغضه لما رآه
يحظى بكل التبجيل والرعاية والقداسة، كيف يكون نسل الآلهة ضعيفاً
عاجزاً واهن الروح؟! حتى عنخ إسن آمون، الجميلة التي تمنّاها
لنفسه وحلم بها في يقظته ونومه، لم تُقدّر له يوماً، حصل توت على
كل شيء ولم يحظْ هو إلا بالظلال، وفضّل عليه ذلك المنفي تحوتي
جاعلاً منه سميره الوحيد، واختصه بمهمات غامضة وأسرار، كشفتها
له نبت، التي تذكر رأسها المقطوع، لا يدري إن كانت عاهرة وصولية
أم مؤمنة حقيقية! أحبت آمون وأفنت حياتها في سبيله، خدمت الآلهة
بكل الطرق، وكذلك يفعل هو!

كهنة آمون يتخبطون من بعد عزلة سيدهم أي، وعليه أن يحكم طيبة

بيد من حديد، حتى ينتهي كل شيء كما كان مخططاً له منذ البداية. لأيام أخذ يُسير الأعمال في طيبة، اجتمع بالوزراء وكبار الكهنة نيابة عن الملك المحموم، وأمر بزيادة فرق البحث عن الملكة، وكان بحاجة إلى قوات دعم إضافية، لتضييق الخناق على قاتل الخادمة وضارب الملك، يُشاع أنهم من أتباع آتون، تواترت الأخبار عن قطعهم للطريق ونهبهم للصوامع وترويعهم للناس، ولعل تحوتي كان معهم من البداية منذ كان حارساً ملكياً، شعر بالضيق وتكالت عليه الهموم والذكريات.

قبيل المغيب أطلع ثعابينه بفراخ بط وبيض تماسيح لم يفقس، تأملها تبتلعها في قضة واحدة، مرر أصابعه بلطف على حراشفها، وأمسك برأسها بقوة وتحكم، ضغط على الصل السام وقربه إلى عينيه، نظر إلى حُمرتها الملتهبة قبل أن يضع أنيابها على طرف كأس، وبدأ يستخلص السموم منها واحداً تلو واحد، وما إن فرغ دس القنينة بحزامه بعد أن أحكم غلقها، غسل يديه وجففهما بوشاح كتاني، أضاء المشاعل في أرجاء البيت، وأتى بمحبرة وريشة، وأخذ يخط على ورقة بردي:

آن لحوور الذهبي أن يُمسك الصولجان.

وختم على طرفها بخاتمه الذي يحمل اسمه، ولفها ووضعها بجراب جلدي، سلمها إلى أحد رجاله المخلصين، وأوصاه بالحرص وأن تصل الرسالة في أسرع وقت، ومنح الرجل شارته، حتى لا يوقفه أحد، أو يعوقه حائل عن إيصالها.

وفي ثلث الليل الأول زار ثكنة الضيعة، جالس قائد المدجاي

وأفاض إليه بضرورة بقاءه معه، وأخبره عن اختفاء الملكة وما كان من أمر نبت، والحال التي وصل إليها الملك، وأن هناك مؤامرة لاتباع آتون، وأظهر النوبي الأسى والحزن لما يحدث، طأطأ رأسه تأسفاً على ما حاق بالبلاد، وكيف صارت على بُعد خطوة من هوة الفوضى. لم يفصح لباسر عما يعرفه، وقبل بأن يبقى ورجاله لحراسة الكرنك وباحات معبد طيبة الكبير، كانت فرصة مثالية ليحصل على موطن قدم لقواته في المدينة، واستدعاء مزيد من المدجاي، رتبا كل شيء، وأولم الحرس الملكي على شرف المدجاي، وليمة عهد لحفظ البلاد وعرش الآلهة: زوجان من الماعز وعجل جاموس صغير، وسال الدهن المتبل وفاحت روائح شهية، وأخذت الأفواه تلوك اللحم والحديث يدور، ولما سأل نب خنوم الفارس عن أبيه وكيف حاله في كوش، لم يُجب قائد الحرس الملكي وغير مجرى الحديث.



ترقق النيل سارقاً لون مياهه من سماء الصبيحة الصافية، وسفن المدجاي تفرغ ما بجوفها بمرفأ طيبة، عبروا دروب المدينة بنظام أبهر الأعين، وفي الضيعة الملكية تراصوا بدروعهم العتيقة وحرابهم الطويلة، وخرج إليهم قائدهم المبجل، عن يمينه جدف وعن شماله كا، ظل صامتاً يتأملهم قبل أن ينطق بصوته الأجش:

- اليوم نحمي الأحياء من أجل الآلهة والأسلاف، دافعين البلاء عن طيبة والبلاد، وما جئنا إلا لبسط العدل وضبط الأمن قبل أن يفلت الزمام، وما إن ينتهي دورنا هنا، سنعود إلى البر الغربي

مرة أخرى، تلك المدينة هي قدس أقدس سيد الآلهة آمون، فلا تحتكوا بكهنته إلا لطلب البركات، وأظهروا لهم التبجيل، ولا تتشاحنوا مع فرسانه، واجبكُم هو حماية مجمع المعابد، وتأمين الجهة الشمالية من المدينة وضواحيها، لا تشتبكوا مع أحد، واحرصوا على معاونة الضعفاء وعابري السبيل، لا تبطشوا ولا تظلموا ولا يلوثكم زحام طيبة ومخالطة أصحاب الهوى، كونوا حذرين صابرين لأجل ماعت.

انبت المدجاي في أرجاء طيبة بكامل عتادهم وملابسهم السوداء، ونفوس الناس من حولهم يملأها الوجل، حلت الدهشة والريبة على ألسنتهم، تلك المرة الأولى التي يشاهدون فيها المدجاي يجوبون طيبة، حتى قائدهم المُسن نزل إلى السوق رفقة رجاله، اختلط بالعامّة والباعّة، واستمع إلى صغار التجار قبل أكابرهم، جالس أصحاب الحرف وأنصت لشكواهم، طمأنهم وأخبرهم بأنهم هنا لحمايتهم وبسط الأمن في طيبة، ولكن كلمات الرجل تبخرت أمام ما بثه كهنة آمون، يقولون إن الملك والملكة نالهما شيء من توعك، مرض تفشى في القصر لا يعرفون سببه، وسرعان ما أصبح الخبر على كل لسان في المدينة، وأقيمت الصلوات في المعابد وقُدمت القرابين، لتنجي الآلهة سلالتها الملكية، وفي الحانات والأسواق كان خبر آخر ينتشر كالهشيم، أن أتباع آتون حاولوا قتل آي بمساعدة الملكة عنخ إسن آمون.

ووسط صخب الشائعات والأقاويل التي لا يُعرف مصدرها، حرص نب خنوم على أن يبقى رجاله صامتين. قضوا أيامًا يتبادلون

الدوريات وما كلف إليهم من أمور، وفي آخر ليالي القمر بالسماء، أقام المدجاي طقسًا فريدًا لم يقيموه يومًا على أرض البر الشرقي. داخل الضيعة العتيقة، تحلّق الرجال حول قائدهم الذي أخذ يرتل بصوته الأجش: «يا أولاد حور، أمستي وحابي وداو موت، وقبح سنو... احموا المبرأ وصدوا عنه كل سوء ليحيا بمجده بين الآلهة، لتشرق روحه مثل رع في الأفق، وليخسأ قاتله كما خُزي ست أمام حور».

ودخل إلى الدائرة أربعة رجال يرتدون قلائد أبناء حور الأربعة، ويحملون أواني من فخار ممتلئة بالبخور، وضعوها على الأرض حول القائد الذي رفع يديه إلى السماء قائلاً: «يا خادم آمون نحن في الشرق وجسدك وروحك في الغرب بمعية أوزير، يا آلهة قاعة الحساب الشهود، اذكروا قَسْمه وتفانيه في حمل ميزان ماعت».

ومع آخر حروفه جاء جدف حاملاً جرة كبيرة تفيض باللبن، وأخذ يُريق ما فيها في أواني البخور الذي بعث دخانًا كثيفًا، ورفع المدجاي جميعًا مشاعل من القماش الأحمر المغموس في زيت سيوة المقدس، وأُشعلت النيران والكهل يردد: «من أجلك أوقدت المشاعل لتدلف بوابات الموتى من دون صعاب، يا من حاربت من أجل ماعت لتخلد مع الأرواح البررة إلى الأبد، وليبتلع عمعم قلوب القتلة الفاسدين».

لامست الكلمات قلب باسر الواقف خلف الصفوف، نالت منه قشعريرة بينما يتابع ما يحدث. انتهت الطقوس وتقدم متجاوزًا الأجساد إلى أن وصل إلى قادة المدجاي:

- أرجو أن ينال ميتكم الخلاص، ويحظى برحلة هائلة إلى الحياة الآخرة.

ربت جدف على ظهره شاكرًا إياه، وكا يقف جامدًا على مقربة منهما، وجاء نب خنوم بوجه باسم محدثًا باسر:

- بُوركت طقوسنا بحضورك، يبدو أننا محظوظون بزيارتك كل ليلة.

- بل المحظوظ هو من أشعلتم من أجله المشاعل، من الرائع أن يحظى المرء برفاق في مثل نُبلكم، هل هو أحد رجالك؟
رد العجوز بأسى:

- نعم هو أحد رجالي المخلصين للآلهة، كان صالحًا أفنى حياته في سبيل ماعت والحق، وفي لم يخُن ولم يحنث بوعده أو قسم، لم يتسنَّ لنا حضور طقوس تحنيطه، لذا قررنا أن نقيم له صلاة خاصة في البر الشرقي.

- تكفيه شهادتك في حقه ليعبر إلى حقول الآرو. كيف هي أيامكم هنا؟

- لم يعتدنا الناس بعد، وأرجو ألا يطول وجودنا في طيبة.

قال باسر ببرود وهو ينظر إلى عينيَّ كما الواقف خلف القائد:

- سينتهي كل شيء قريبًا، وتعودون إلى مهامكم المحببة.

بخفوت سأله نب خنوم:

- هل من أثر للملكة؟! سمعنا كثيرًا من الشائعات التي لا نعلم مصدرها.

- ها أنت ذا قلت، شائعات، لا شيء أكيد في هذه المدينة. سيدي،

هل لي بسؤالك عن شيء؟! ويفضل أن نكون وحدنا.

تأمله الرجل بصمت قبل أن يشير إلى كا وجدف لينصرفا، واختلى
بقائد الحرس الذي قال فور انصراف الرجلين:
- أيها القائد نب خنوم، أين يكمن ولاؤك؟!
تجهم ذو الحاجبين الأشيبين وقال بخشونة:
- للآلهة، وللملوك المختارين من قبلهم.
- أعلم أن محاربًا مخضرمًا مثلك لا يأبى إلا الخير، ولا يرتضي
هوان المملكة وسقوطها في هوة الفوضى والصراع. وإنما
كجند ملزمون بالوقوف إلى جانب الحق والعدل، وما حدث
في الأشهر والأيام الماضية شيء عجيب لم تر البلاد مثله. إن
أي ضعيف للغاية ولا يقوي شوكته إلا كهنة آمون المتحلقون
حوله، ورأيت ما يحدث حين يتبع النساك شهواتهم الدنيوية.
أخذ باسر يسرد مخاوفه وتطلعاته، يقسم بين الحين والحين إنه لا
يخدم إلا الآلهة، وهي ما تحركه لينقذ الأمور، أجزم بأن الملكة هربت
رفقة أتباع آمون وحارسها السابق تحوتي. بدا باسر متوترًا قلقًا يخفي
شيئًا، يجزم بشيء ويعود لينفيه بطريقة أخرى، طلب دعمه ومساندته،
ودام الحوار بينهما ساعات حتى رحل باسر، وعاد نب خنوم إلى
مضجعه مثقلًا بالفكر، فرك صلعته الجعداء وجال ببصره في أرجاء
المكان من حوله، ثم رفع رأسه إلى السماء، ظل واقفًا يتأمل النجوم
ومواضعها قبل أن يسير إلى خارج الضيعة. وحيدًا مشى في دروب
طيبة، عند بوابة الكرنك استقبله الكهنة بحفاوة، وعلى وهج المشاعل
الشحيحة وقف أمام سيد الآلهة، ظل جامدًا برهة قبل أن يجبر نفسه
ويخر رакعًا: «آمون رع، نتر الكرنك العظيم، أيها الخفي الذي قاد

الآلهة والبشر إلى النصر يوم أواريس، وكرة أخرى يوم أنكر الذي لا يُذكر اسمه وجودكم، تحت ريشتي تاجك اجتمع الحق والعدل، أنت من رفعت الآلهة مرة أخرى بحكمتك وبسالتك، تعلم أنني لم أنزل إلى طيبة لمُلك أو جاه، بل من أجل البلاد وألا نضيع أو نُنسى، ولأجل أرواح المؤمنين الذين حاربوا بنبل وقُتلوا غيلة وغدرًا، أطمع أن تقف إلى جوارنا هذه المرة أيضًا، وأن تدفع المهالك بعيدًا عن البلاد والبسطاء الذين لا دخل لهم في الصراع، وما دام ذلك الغاصب الملوث بالشروع على العرش ستسوء الأمور أكثر، إنه وكهنته الذين يتحدثون باسمك يرتكبون إثماً عظيمًا، يقدسون ست الذي أسقامهم من دمه، يدعون محبتك والقرب منك ويكررون فعل أتباع آتون، أرجو أن تجنبنا الذلل وأن ترشدنا إلى الخير دومًا. وإن كان قد قُدر لعائلة مقدسة أن تفنى، نشق بأنك والآلهة ستجتبون نسلًا طاهرًا ليحكم هذه الأرض بالعدل، كما تفعلون كل مرة».

كان يعلم أن باسر ينوي فعل شيء ما، وخشي أن تكون العواقب وخيمة، لذا جاء إلى حضرة الآلهة ليتبرأ من أي دم أو إثم قد يلحق به، غايته الوحيدة هي درء الفوضى وتغليب مصلحة البلاد وثبات قواعدها، لم يخبر قائد الحرس الملكي بأي شيء عن تحوتي، أو اتفاقه مع حور محب الغائب عن المشهد، وكان أكثر ما يقلقه هو مصير عنخ إسن آمون، التي تحدثه نفسه بأن شرًا أصابها.

* * *

أفل رع غاربًا، مال ومس قرصه النحاسي قمم جبال الغرب، خرج باسر متقلدًا سيفه وكامل عتاده: زيه الشرفي، والصيديرية ذات

الحراشف البرونزية، وعباءة كتفه وأساور فخره، واعتمر غطاءً أبيض مخططاً بزرقة سماء صافية. أشعل جذوة لهب لتنير الآلهة دربه، وأوقد صحن البخور على مذبح ندور آمون، وبخطوات واثقة ورأس مرفوع ارتقى درج القصر الملكي، والسماء تنزف حُمرة وقد أذف المغيب، وتماثيل آمون العملاقة على الواجهة ترقبه، فتحت له الأبواب وعبر الأروقة يرافقه الثرثار أوناس، الذي أخذ يتحدث عن المدجاي وجدوى وجودهم في طيبة، ولم يجبه باسر.

تخلص منه متعللاً العمل على بعض الأمور، وأخذ يجوب القصر وحده، طاف برجاله وتأكد من اتخاذهم أماكنهم، دلف إلى المطابخ وتسامر مرحاً مع كبير الطهارة، وتفحص جرار العسل والخمر، وتذوق مما يُطبخ للملك المتوَعك، وغادر بعدها إلى الجناح الملكي. لا أحد يعلم ما كان يفكر فيه باسر، إلا باسر. طلب الإذن بالدخول على الملك، وسُمح له.

عقب دخان البخور الردهة، وتناثرت كاهنات آمون الحسان في الأرجاء، إحداهن تعزف والثانية تحمل مبخرة وتطوف في الزوايا، وتترنم أخرى بعذوبة، وكبيرتهن إيباز ذات النظرات الغريبة تقف قريبة من الملك، الذي يجلس مسترخياً في عباءة كتانية مفتوحة الصدر، حليق الرأس مكتحل العينين، بدا أنه استعاد عافيته، قال أمراً إحداهن: - قربي كرسيّاً لقائد الحرس الملكي.

جاء باسر من ورائه محني الظهر حتى جلس، والملك يتابع بنبرته الرخيمة:

- باسر، كيف تسير الأمور في الخارج؟!

- على خير حال جلالتك، ولكنني أريد سؤالك عن بعض الأشياء التي قد تساعدنا في بحثنا عن الملكة.

بدا التوتر على وجه آي، ارتجفت يده رغماً عنه، وإيبار تتدخل وبين يديها صحنان أحدهما مليء بقطع من شمع العسل، والآخر بخليط لزج أخضر اللون، وضعتهما أمام الملك الذي شكرها بإيماءة، قبل أن يلتفت إلى باسر قائلاً ببرود:

- هذا الطعام إحدى هبات الآلهة، له مفعول سحري.

غمز بعينه وأخذ قطعة وغمسها في العسل، وألقى بها في فمه بسرعة، أخذ يلوكها بتلذذ والعسل يسيل من طرف شفته، قال ماضغاً الكلمات مع الشمع:

- وببركات ووصفات الكاهنة إيبار يمنحني هذا الخليط قوة حقيقية للشفاء والتجدد، وهذا ما أحتاج إليه الآن للتعافي.

تعجب باسر من فعل الملك وقوله، وسأله مرة أخرى متعجباً:

- سيدي، لم نجد الملكة في أي مكان؟

جمد وجه آي وحملق إلى وجه قائد حرسه لبرهة قبل أن يقول بخفوت لا يليق به:

- إنها خائنة من أتباع آتون، أتت بمرترقتها إلى مخدعي لقتلي.
أنا؟!

واسترسل في حكايته الواهية، وعن المخطط الذي كشفته الخادمة نبت، ضحية الغدر التي دفعت روحها في سبيل الآلهة والحق، أنقذته ببسالتها، تلك الرواية التي تتردد في جنبات طيبة، وهي ما يميل باسر إلى تصديقها، ولكنه قطع حديث ملكه سائلاً:

- هل كان الفارس تحوتي حقًا من هاجم جلالتك؟

بدا مهمومًا، وألقى ببصره ناحية الوادي:

- نعم هو، لم أكن لأخطئه، ذلك اللعين الذي اتهمني زورًا وبهتانًا بقتل الملك توت عنخ آمون. إنها كذبة خسيصة للنيل مني، وأنا الذي اتخذت جميل الولادة ولدًا لي وقد حُرمت من الذرية، لم أسعَ يومًا لأن أكون ملكًا، ولكنها مشيئة الآلهة، لقد رأيت آمون في منامي في أثناء خلوتي بقدس الأقداس، وبما أهداني إليه لم أكن لأسمح لأحد بأن يجلس على العرش. أنا تجسيد آمون على الأرض، وهذا حقي وما قدرته الآلهة لي، أنا مَنْ تحمّلت في سبيل هذه العائلة الكثير، وفي النهاية أجد نفسي وسط جُب ثعابين خائنة، لن يهدأ لي بال حتى أقتل الخونة بيدي وأحفظ البلاد من السقوط في الفوضى، أو أن يعود أتباع آتون إلى الحكم مرة أخرى.

- وإلى أين تظن أن عنخ إسن آمون ذهبت؟!

جاء سؤال باسر مباغتًا، لم يرد أي ولكن إيبار فعلت، قالت باقتضاب:

- هربت مع أتباعها.

ظنها خرساء، دام الصمت بعد جملةتها برهة، وقبل أن يهم بسؤالها، قاطعه أي:

- عليك أن تجرب هذا، سيجعلك تضاجع مائة امرأة في آن واحد. لم تُضحك كلماته باسر، فضل الصمت ومراقبة إيبار، بينما أخذ الملك بكل برود قطعة من شمع العسل وغمسها في خليط الكاهنات،

وألقي بها في فمه وبعدها فاض لسانه كما لم يرو من قبل، عن طفولته في أخميم مستقر الإله مين، إله الخصوبة والفحولة، وعرج سريعاً على شبابه وتدرجه في المناصب، وخروجه للحرب زمن أمنحتب الثالث، تباهى بمعرفته نساء توقف عن إحصائهن من زمن بعيد، وكيف أن زوجته الأولى كانت مرضعة نفرتيتي وأختها موت نجمت التي أصبحت كاهنة الكرنك المقدسة. بدا حزيناً عند ذكره لامراته، أدخلته إلى القصر ودهاليز السياسة، وانفعل زهواً مع توليه منصب قائد فرسان آمون. تكلم بروية كأنه أعدل الناس وأحكمهم، أفنى عمره لخدمة البلاد والرعية، وأقسم بآمون إنه أحب توت ولم يتوقع موته، وبدا صادقاً في قوله، ولم يذكر شيئاً عن كهانته لآتون وفترة عيشه في آخت آتون، قال إنه يصون ذكريات لأفراد العائلة، وصرح ببغضه لسنخ كارع وميريت آمون وأختها عنخ إسن آمون، التي ما إن ذكر اسمها تنحنحت الكاهنة إيبار، تبادل النظرات معها قبل أن يغير مجرى الحديث، ليقص على مسامع باسر كيف اصطاد فرس نهر وحده، وكان كاذباً في هذا، الجميع يعرف أن الصيد الوحيد الذي برع فيه هو صيد النساء. صمت لبرهة قبل أن يعاود حديثه عن الآلهة التي صار واحداً منهم. أجزل في الشناء على نفسه، وعرض رسوماً على برديات لتمثال ضخّم له في هيئة آمون، وينوي بناءه في باحة معبد طيبة، ومسلة في أون ليذكره القاصي والداني. كان لديه مبرر لكل فعل اقترفه، مغروراً معتدّاً بنفسه، اختار ما أراد من حياته الطويلة ليقصه، وأفصح عن كثير من أمنياته التي ينوي تحقيقها. تسامرا وتضاحكا حتى جاء موعد العشاء، واستأذن باسر بن حوي في

الرحيل، تاركًا ملكه سعيدًا منشرح الصدر، متورد الوجه لا يكف عن الضحك. وقبل الفجر حط الضباب على الوادي، وبُث في الطرقات برد، استشعره رجال المدجاي الساهرون، وطيبة تغط في نوم عميق، تراخى الحرس وركنوا إلى الراحة، وسكان القصر نيام، والملك ملقى على فراشه مفتوح العينين جاحظهما، وجسده مغطى بأفخاذ وسيقان وأذرع كاهنات آمون؛ إيبار وخمس أخريات، جميعهن عاريات، وجميعهن موتى، وكذلك هو.

اكتشف الخدم الأمر، وحتى الظهيرة لم يُشع خبر موت الملك، فُرض طوق حراسة شديد التعقيد، ومُنع دخول وخروج أي شخص إلى محيط القصر، حتى أوناس مقدم فرسان آمون تم منعه وتوقيفه حتى يأذن قائد الحرس الملكي، الذي أرسل في طلب المدجاي وكبار كهنة معبد الثالوث، ولما اكتمل نصاب القوم أعلن باسر بن حوي أمامهم أن الملك آي مات، نال منه أتباع آتون، والبلاد على المحك، وأنه أرسل إلى الوصي على العرش وقائد الجيوش حور محب ليحضر. ثار الكهنة واضطرب قادة فرسان آمون، وبقي المدجاي الكهل صامتًا، كان يعلم أن شيئًا مريبًا حدث، وعلى الرغم من شكوكه فإنه لم يستطع تخيل أن يقتل قائد الحرس الملكي سيده الذي أقسم على حمايته.

حامي الضعفاء

«يقول رع: آه يا جحوتي، ما هذا الذي يحدث من أولاد نوت؟
 يقتتلون ويتصارعون ويظلم بعضهم بعضًا.
 ما فعلته لأجل أوزير لا يعرفه البشر ولم تره الآلهة،
 أعطيته السيادة على صحراء الغرب
 وأورثت ابنه حور عرشه، وأعطيته مكانًا في قارب الأبدية
 ليكون ملكًا على السماء والأرض.
 وقلت لابن أوزير: احفظ نفسك، وارفع نجمك عاليًا
 عظيمة هي مهابتك، عظيم هو سلطانك يا حور».

جُعرانان يتعاركان على كرة روث، وصلت كوبرا سوداء ترقبهما
 مستترة بالعشب، وشمس الزوال تميل إلى مستقرها، وأهل طيبة
 في سراديب الظنون تائهين. انقضت أسابيع منذ إعلان وفاة الملك
 واختفاء عنخ إسن آمون، وجثم على المدينة خوف وهم وكدر. عرش
 خاو ومملكة تنهاوى، تطيروا وفقدت الأرواح أمنها على الرغم من
 كثرة الجند، وبقبضة غليظة أحكم قائد الحرس الملكي سطوته على

القصر والبلدة ومحيطهما، أطاعه الجميع، حتى أوناس الذي كان في غمرة حسرته وتيهه بعد موت سيده، ولا يكف عن القسم بأن يطارد أتباع آتون والملكة الخائنة. حرس ورجاله غرفة ملكهم حيث يُحنط ويجهز لطقوس الدفن، وبدأ الوزير معي في إحصاء كنوز وأملاك ملكه الميت غدرًا.

أقيمت المتاريس والحواجز على الطرقات، وعززت قوات المدجاي وجودها في باحات المدينة، فرضوا حظر تجوال مشددًا، بينما يجلس قائدهم نب خنوم في قاعة المُلك بين المستشارين وكبار القصر والوزراء، يثق بأن باسر بن حوي هو قاتل الملك، ويعلم أن الآلهة وهبت البشر إرادة حرة، ولكل منا ما يريد ويطمح، وتتعارض أهواء البشر وإن تشابكت مصائيرهم. لا يستطيع لوم الشاب على فعله أو اتهامه، ولعله اختار ما قدرته الآلهة سلفًا، كان آي سيموت في نهاية المطاف، ولا أحد يملك الصواب المطلق ليحكم على فعل باسر، ولعله جنب البلاد شرور الوقوع في الفوضى، أو أنه بالفعل بدأها.

انشغل كما سرقت بعمله الجديد، قبض على مجموعة لصوص حاولوا سرقة صوامع الحبوب، وأحمد هو وجدف شرارات الفوضى والشغب في الأسواق والكرنك، حيث بث بعض الكهنة من أتباع آي في الناس روح الانتقام وطلب الثأر، تجمهروا ينددون بقتل الملك! ولم ينفضوا إلا بعد أن تفشى فيهم خبر هجوم وشيك لأتباع آتون على طيبة. أقاويل تزداد بقدر الألسنة الناقلة والأذان المنصتة. تمنى لو كان هو من فعلها، وقتل آي قربانًا لروح صاحبيه، ونبت في نفسه

بُرعم فضول لمعرفة القاتل، فكر وراقب كل شاردة وواردة قرب القصر، وما يظنه ليس سوى تكهنات لا دليل عليها، إلا حديثه مع جدف الذي سأله:

- مَنْ الفاعل؟! قاتل الملك؟!

شرد كما متأملًا تفاصيل التماثيل الكبيرة على واجهة الكرنك، وأجاب باقتضاب:

- آمون.

- هل جُننت؟!

- باسمه ولأجله يقتل الناس بعضهم بعضًا، لينتقلوا من كونهم بشرًا إلى آلهة مقدسين يعتمرون تيجانًا تمنحهم نفوذًا وسلطة. إن قاتل توت وأي شخص واحد، متعصب لآمون.

- إن تحوتي والقائد نب خنوم أكدا أن أي هو قاتل الملك توت.

- لم يؤكد تحوتي أي شيء، كان يتبع ظنونه مثل الجميع، وربما يكون أي هو من تخلص من الملكة ولكنه لم يقتل سلفه، هناك لاعب ظل آخر.

- لم أعد أفهمك يا كا سرقت!

- ما الذي يُستعصى عليك فهمه، الفاعل قام بهذا من أجل آمون أو أحد من الآلهة، وأكثر ما ييهجني في كل هذا، أن الأمر انتهى، وقریبًا سنعود إلى البر الغربي.

- ألم تسمع ما قاله القائد نب خنوم، سيبقى المدجاي في طيبة حتى تنصيب الملك الجديد، ما زال الناس يسألون من سيكون.

رد كا سرقت بوجه قاسٍ خالٍ من التعبير:

- قاتل جديد، لا أعرف، ربما عليك أن تذهب وتسأل آمون،
هذا إن أجابك!

ألقى سخريته اللاذعة، ودلف إلى باحة الكرنك تتبعه نظرات جدف
الذاهل، ما زال الشاب قادرًا على إدهاشه بعجيب أفكاره وتفسيره
للأمور، لم ينسَ الحوار بينهما في طريق العودة من بوهين، مهشم
القلب بفقدان صاحبه، قليل الحديث بأئس لا يعرف ما يريد من
الحياة ولمْ خُلق، وبداخله سواد وعمة يليقان بالحزن على مظهره،
لولا حبه للكهنة لقال عليه إنه خاوي من الروح، مجرد جسد فارغ،
وقلب واهن لا ينبض، يشفق عليه ويدعو بأن تهديه الآلهة إلى الرشاد.
داخل معبد آمون بالكرنك، تجول كا بين قاعاته ورداته، أوكل
إليه نب خنوم تأمين موكب كهنة آمون الذاهبين إلى القصر الملكي،
رآهم يجهزون هداياهم والقرايين التي سيقدمونها إلى ملكهم الميت،
ويحمل الخدم جرارًا ملئت بمياه البحيرة المقدسة. ذكره هذا بأيام
تجواله في المعبد الجنائزي لتوت، حينها كان يرتدي قناع أنوبيس
متخفيًا، واليوم يسير مرتديًا درع المدجاي، ومن حوله يتناثر اللاهون
بالصلاة والتضرع، تأملهم وهو يدور في أرجاء البهو، وجوه الكهنة
والسدنة شاحبة، مات من كانوا يرجون له عمرًا مديدًا وذرية تحكم
باسم آمون من بعده، وفي طيبة لا أحد يعلم القادم، حتى صاحب
هذا المكان.

ما كاد يطأ بنعليه الجلديتين الخفيفتين عتبة الردهة المؤدية إلى
قدس الأقداس، حتى عقد حاجبيه وهو ينظر إلى أربعة حراس ملكيين
في غير موضعهم، بدروعهم البراقة التي لا تناسب الكآبة التي حلت

على الكرنيك، تلفت باحثًا عن مزيد منهم قبل أن يتقدم نحوهم، كانوا في غمرة نقاشهم حين قاطعهم بحضوره، وما لبث أن ابتسم وحدثهم:

- التحيات، أيها الفرسان.

رد أحدهم باقتضاب:

- التحيات لآمون. هل هناك شيء أيها المدجاي؟!

- كما تعلمون أننا مكلفون بحراسة الكرنيك وباحاته، وكذلك تأمين موكب الكهنة إلى القصر. وتساءلت عما قد يفعله أربعة من الحرس الملكي هنا؟!

كاد أحدهم يرد منفعلًا، ولكن الأول اعترض طريقه ولسانه قائلاً:

- عفواً أيها المدجاي، نعلم بأمر مهامكم، وأثمن سؤالك فهو ينبئ عن رجل حراسة صارم ينفذ الأوامر وما كُلف به. وعلى كل حال، نحن هنا رفقة السمير الوحيد باسر بن حوي قائد الحرس الملكي.

أوماً كما سرقت برأسه متفهماً وقال:

- عذراً أيها السادة، ولكن كما تعلمون أن الأمور مضطربة هذه الأيام.

رد الفارس منتفخ الأوداج:

- نقدر ما تقدمونه من عون، ونلتمس لكم الأعذار بالتأكيد، لا تقلق أيها المدجاي، إن الآلهة تحمي هذه البلاد وترعاها.

- بالتأكيد، هل القائد في قدس الأقداس؟

رد أحدهم بتسرع:

- إنه في حضرة آمون رفقة الكاهنة موت نجمت.

هكذا الأمر إذن، رد ساخرًا وإن بدت كلماته جادة:

- باركتهما الآلهة.

أخذ منهم ما أراد معرفته ومضى إلى الظلال متظاهراً بتأدية عمله، حث الكهنة على الإسراع وساعد بعض السدنة في حمل أحد الصناديق الثقيلة، بدا منهمكًا فيما يفعل ولكنه كان يراقبهم من حيث لا يرونه، تسلل إلى أحد الأركان المؤدية إلى الدرج العلوي، وبخفة وسرعة أصبح على سطح المعبد، حاول أن يبحث من الأعلى عن باسر ويحدد مكان وجوده، ولم يفلح في ذلك، لقدس الأقداس مدخل واحد هو ذاته المخرج، لم يستطع مقاومة الفضول الذي أخذ ينمو بداخله، وربض في إحدى الزوايا حتى رأى قائد الحرس الملكي يخرج إلى رجاله الأربعة، ومن ورائه كاهنة معبد موت الكبرى، والتي يدعونها «ابنة آمون».

* * *

تسري بين العوام أسطورة قديمة عن آمون صاحب الخفاء وحامي الضعفاء، أنه مَنْ تكفل بحماية ورعاية ابن ست الذي أنجبه من نيت إلهة الصيد، أخفى سيد الكرنك الصبي عن أعين أتباع حور، جابوا الأرض بحثًا عن المولود سوبيك ذي الحراشف ووجه التمساح، ولما علمت الآلهة بأمر الرضيع، هبطوا إلى طيبة وألقوا اللوم على آمون الذي أصر قائلاً: «لا تُحملوا الابن إثم أبيه».

وعفا حور الذهبي سيد الأفق عن المولود، وكبر سوبيك مُنكرًا فعل أبيه، وحظي بمكانة ومهابة بين أقرانه وأقاربه في قاعة الحساب وعلى مركب الشمس، والبشر ليسوا كما الآلهة، وحُمِل توت عنخ آمون إثم

أبيه، ودنس بفعله وادي الملوك، حين استقدم جثمان الذي لا يُذكر اسمه، وتلك كانت خطيئته التي استوجبت تقديمه قرباناً للآلهة، وتُقبل صنيع المتقرب. هكذا أخبرته ابنة آمون في قدس الأقداس. خرج باسر من المعبد مرفوع الرأس، منفوخ الصدر يتبعه رجاله، كملك جديد شد قامته الطويلة وخطا بتأن. فُتحت أمامه المتاريس ودوت الأبواق لتعلن خروج قائد الحرس الملكي.

ومن مكمنه راقبه كايبتعد إلى قلب طيبة، تمنى لو كان روحاً هائمة حقاً، ليحلق ويذهب وراءه، أراد أن يهتك خبايا نبيل المولد المتعالي، المتفاخر بكونه صاحب عُمر توت وسميره الوحيد، فارس بالوراثة عن أبيه سيد إلفتين ذلك العجوز الماكر المُهادن لكل الملوك، المحتفظ بمُلك كوش من دون أن يُبدل. وربما ابنه انتهازي مثله أيضاً، هيئته ونظراته والثقة التي تملأه توحى بأنه يخفي شيئاً، لم التقى الكاهنة المطهرة، التي يؤكد الجميع أنها قد نذرت صوماً عن الكلام عقوداً؟!!

صادفها كما وهو يتجول في المعبد، تتجه إلى صومعتها بمعبد إلهة الصرح التي سُميت تيمناً بها، متناسقة الجسد طويلة الرقبة مرفوعة الأنف، تعتمر شعراً مستعاراً مضفراً طويلاً، رقيقة المظهر نضرة على الرغم من تقدُّم عمرها، بهية الطلة ترفل في ثوب أسود مُطرز بتعاويد ونقوش مذهبة، يحني الرجال رؤوسهم في حضورها، ويقدسها جُل سكان الكرنك. سمع الكثير من الهمسات بأنها آخر أفراد العائلة المقدسة، لملم خيوط أفكاره وأتم مهمته وقاد موكب الكهنة إلى القصر. لم يطق صبراً على وجوده فيه، ما زال يذكر الليلة

التي قضى فيها تحوتي نحبه، وما حدث في الأيام قبلها، حين رأى الخادمة نبت تفتح ساقها للملك، وظن أنها الملكة، عنخ إسن آمون التي اختفت، ولم يتبقَّ من ريحها سوى بضعة تماثيل وصور على الحائط، وخاتم ما زال يحتفظ به. غادر عائداً إلى معسكر المدجاي، وفي المساء ذهب إلى القائد نب خنوم، وأفضى إليه بشكوكه وما رآه في الكرنك، ولكن الكهل النوبي طمأنه، وأخبره بأنه يثق بباسر بن حوي، الذي يحمل على عاتقه هم البلاد والعرش، واستفاض في عد مناقب قائد الحرس الملكي مادحاً فطنته وحكمته، وأنه قدم الكثير من أجل آمون، حتى ظن من حديث الرجل أن باسر سيصير الملك القادم.



جاءت نخ تي كصباح رائق، مشرقة الوجه مكتحلة العينين، ترفل في رداء كتاني أزرق جعلها فاتنة، وشعرها القصير المستعار ضُفرت فيه التمام وحبّات الخرز الملون، انفرج ثغره بابتسامة عريضة ما لبثت أن صارت ضحكة مجلجلة، ركض نحوها واحتضنها غير آبه بالأعين من حوله. طيبة في حداد، وكا أسعد رجال الدنيا، يدور بجسد محبوبته على حافة الميناء، تملصت منه خجلة وأجبرته على استعادة وقاره، حتى لا تُكسر صورة المدجاي في أعين الناس، مشياً معاً عبر دروب طيبة يتسامران، أخبرها عن مخاوفه وشكوكه، وطمأنته بأن قبضت على يُمناه ولسانها يقطر بعذوبة:

- انس كل هذا ولا تفكر في شيء، أنا إلى جوارك. أتعرف يا كا، حين أرسل القائد نب خنوم في طلبي، كل ما فكرت فيه حينها

هو أنت، اشتقت إليك، ولا أريد أن أسمع شيئاً عن أمور السياسة والحكم وتلك الألاعيب التي تدار بها حياة الملوك، لا أريد أن نخوض كل هذا، حالما يُنصب الملك الجديد ويستقر ميزان ماعت على الأرض سنرحل عن طيبة.

وقف بمنتصف الطريق وأخذ يتطلع إليها، تنحنحت وحثته على المضي، جذبها إلى طريق آخر قائلاً:

- سأجعلك تتذوقين ألد طعام في حياتك.

- أيها الكاذب، ألم تقسم إنك لم تذق أشهى من أكلي يوماً؟! عقدت حاجبيها وضحك. تركته يقودها عبر شوارع وأحياء طيبة، وانشرح صدره حين رأى وجه سيخمي الذي تهللت أساريره، نادى امرأته واستقبلاهما بترحاب بالغ وحفاوة، عرّفها بأنها زوجته، كاهنة إنبو المبجلة، شهقت امرأة الجزار وخفض زوجها رأسه تبجلاً، وبُهِتت هي بقدرته على التحول إلى شخص آخر في لحظات. وجه جديد لكا سرقت لم تره من قبل، نبيل راقٍ يختار كلماته بعناية، طاغي الحضور يشرح لسيخمي عن تحدٍّ مع زوجته، حول ألد وأشهى الأطباق، وانتفخت أوداج الجزار وأقسم بآمون إنه سيقدم لهما فخر مطبخه.

انشغل وزوجته بالطهو، بينما قصّ كا عليها سبب معرفته لهذا المكان. وما لبث أن جيء لهما بالأطباق، لحم طرائد مفروم مطهو بالدهن مع البصل والكراث، وأرغفة عيش شمسي محمص بالزيت والثوم، تفنن الرجل في إضافة التوابل السرية كما أسماها، وقدم لهما خلطة عجيبة من الفلفل الأخضر المطحون مع التوابل وزيت

الزيتون، ليغمسا فيها ريش الضأن السمين المشوي على مهل، وأضاف في النهاية طبق عسل أسود تفاخر بجلبه من إلفتين. أكلًا وتسامرا وضحكا وتبادلا الحكايات مع الزوجين المرحين، وأثنيا على الطعام الدسم اللذيذ، وأجزل العطاء لأجل صاحبيه اللذين أحبا طعامه يومًا، وقبل أن يرحلا سأله سيخمي عن الفارس تحوتي، فلم يجد كلمات يرد بها، وأسرعت نخ تي قائلة:

- رفقة الآلهة وأنقياء القلوب.

نهار كامل قضياه معًا، أفضى إليها بمكنون صدره، ما يؤلمه ويؤرقه، وأنه يريد تعجيل الزواج بها، لتصبح امرأته أمام الناس جميعًا، سيبقى مع المدجاي ليكون واحدًا منهم، يعجبه المكوث بالجبل ليحيا معها ما بقي من عمره، هذا كل ما يريده من الحياة. قبيل المغيب أوصلها إلى ضيعة الملوك، مستقر المدجاي ومركز قيادتهم، استقبلت بترحاب بالغ، وهمس أحدهم في أذن كا سرقت بأن فرسان آمون سيعجلون بدفن آي.

* * *

ليلة لم تكن كأى ليلة، شُددت الحراسة حول ثكنات ومقرات الجند، وفي الصباح أقيمت مراسم خروج الملك آي إلى النهار، شُيع محاطًا بكهنته وفرسانه وقلة من خدمه المخلصين. كان الأمر عجيبًا على أهل طيبة الذين مُنعوا من حضور الجنازة، فُرض عليهم حظر التجوال، وفضول الناس لا يُغلب، اعتلوا أسطح المنازل ليشاهدوا الجنازة المارة بصمت، لم يكن للنائحات وجود ولا أثر للنبلاء، فقط فرسان آمون يحاوطون العربة التي تحمل تابوت الملك المذهب

على هيئته، ومن ورائه عربات تحمل تواييت كاهناته، سيُدفن معه ليرافقنه إلى قاعة الحساب والحياة الآخرة، وأبحرت السفن صوب البر الغربي تتبعها الأعين وفيض من تساؤلات لا إجابة لها، وحده باسر كان يعلم سر التعجيل.

وقف في شرفة القصر يتابع رحلة آي الأخيرة، وفي الأفق ارتسمت له كل ذكرياته مع الرجل، منذ رآه أول مرة في آخت آتون، وحتى الليلة الأخيرة التي جالسه فيها. استند إلى إفريز الشرفة وعلى شفثيه ابتسامة رضا، قام بكل ما أوكل إليه بكمال وسرية، استطاع أن يقنع أوناس وكهنة آمون بضرورة التعجيل بنقل الملك إلى مقبرته، خوفاً من هجوم وشيك لأتباع آتون. تلك الفزاعة التي اختلقها آي، وها هي ذي تفلح في إبعاد أتباعه إلى البر الغربي، يتخبطون من بعد موته، وقائدهم أوناس ليس سوى ظل لرجل ميت.

غادر باسر إلى بهو القصر، للاجتماع بقيادة المدينة ونبلاء جاءوا تلبية لدعوته، قطع الأروقة إلى وجهته وقبل أن يعبر الباب، ثُبَّت لبرهة ورمى ببصره ناحية تمثال عنخ إسن آمون المستقر قرب ردهتها، وأكمل طريقه إلى حيث ينتظره أمراء وكهنة وكُتَّاب ونبلاء وتجار، يتقدمهم الوزير معي وقائد المدجاي نب خنوم وثلة من رجاله المقربين، مر بهم وحياهم ملوحاً بكبير يليق بمقامه، يحكم طيبة ولن يمانع أحدهم إن ارتقى الدرجات إلى ذلك العرش الخاوي، لكنه لم يفعل، استقر على يمين الكرسي ونطق برزانة وهدوء:

- أيها السادة، مررنا بأيام وقعها ثقیل على النفس، فُجِعنا في ملكنا وبلادنا، الآلهة تمتحننا وليس لنا سوى ما أقرته الأقدار، وأن

نسعى بقوتنا لحماية ناموس الحُكم الذي وضعه حامي الضعفاء
آمون رع، ومن أجله نموت ونحيا.

آن لأعوام الحزن أن تنقضي وترحل من دون رجعة، لن نتحدث
عما صار في الآونة الأخيرة، ولن نسمح بأن يخوض أحد فيما
كان، ولن نأتي على ذكر الملكة، والطريقة التي مات بها الملك
وكاهناته، دعونا نمضي إلى الأمام من أجل الآلهة والبلاد والناس.
ستبقى قواتنا متأهبة وسنزيد من دورياتنا، ونكثر من الحواجز
في محيط طيبة، الوزير معي وفر كل ما ينقص البلدة من حبوب
وسلع للأسواق، وسيبقى فرسان آمون في البر الغربي لتشييع
الملك والتأكد من سلامة رحلته إلى بيت الأبدية، واعلموا أنني
استشرت الثالث الأعظم في محنتنا، وتقربت بقربان عظيم،
وأفضيت بمخاوفي إلى ابنة آمون الكاهنة المطهرة، موت
نجمت، وأخبرتني بحُسن طالع البلاد، وأن الضباب سينقشع،
وأن ملك الآلهة حور الذهبي سيرسل ابنه إلى الكرنك لينال
رضا آمون، ويتزوج ابنته.

أحاط بهم الصمت، ولمعت عينا كاسرت الواقف خلف المدجاي
العجوز، وما كادت الهمهمات تسري إلا واستطرد باسر بنبرة قوية:
- وبلغني في الليلة الماضية أن القائد الأعلى وفم الناس، نزل
إلى المقاطعة الثامنة عشرة من مصر العليا، قُدس أقداس حور
الذهبي، وليس مصادفة أن الرجل قد وُلد هناك، ولعلها إشارة.
نحن بحاجة إلى ثور قوي يقود المملكة ويحكم بالقوة والعدل.
وإن صدقت النبوءة فهذا الرجل هو، حور محب.

ما إن ذكر اسمه ضج البهو بعبارات التأييد، تلفت كا ناظرًا في الوجوه المنفعلة إيجابًا، حتى القائد نب خنوم كان يحرك رأسه مستطياً الأمر، وما لبث أن ثبت عينيه على باسر بن حوي البارز فوق الجميع؛ بدا منشرحاً ومن حوله مؤيدوه، هكذا هو الأمر إذن. ما قاله قائد الحرس الملكي يشي بفحوى لقائه مع موت نجمت، وما قيل ليس سوى شذر مما أخفي عن هؤلاء الحمقى الفرحين، حاول أن يُبعد ظلال الشكوك عن روحه، وتذكر كلمات صاحبه حور عن مكائد ودسائس القصر التي خشي على تحوتي منها، تلك الدوامة الأبدية من الذنوب والآثام المباحة تحت ذريعة مشيئة الآلهة. غادر المكان مع رفاقه من المدجاي من دون أن ينطق كلمة، أقنع نفسه أنه لا يأبه بمن يعتلي العرش، سواء أكان حور محب أم غيره، لم يعد يعنيه إن كان الملك القادم صالحاً أو طالحاً، اكتفى بالإنصات للقائد نب خنوم، الذي حدث رجاله بينما يسرون في طرقات المدينة:

- إن صحت النبوءة التي ذكرها قائد الحرس، فإننا سنشهد مجداً عظيماً، ليس هناك أفضل من حور محب ليعتمر التاجين. هو مدير بيت الملك لسنوات، والوصي على العرش، وفوق كل هذا مقاتل عتيد خاض عدة معارك لم يُهزم فيها قطُّ، أخضع الأقواس التسعة ورفع اسم آمون في التخوم البعيدة، في كوش وكنعان وما وراءهما من أراضٍ وبلدات وملوك.

رد جدف بنبرة يشوبها سخرية:

- يبدو أن باسر هذا يعلم الكثير، ولا يفصح إلا بما يريد ترسيخه في نفوس الناس. أليس من الغريب أن تتحدث الصائمة عن

الكلام بعد كل تلك السنوات، وبعد أن مات أهلها وذرية أختها، تقول إن ابن حور الذهبي سيأتي ليتزوج ابنة آمون، ثم يخبرنا بأسر بأن القائد حور محب في طريقه إلى طيبة؟!!

توقف الرهط عن المسير فور تيبس قدمي نب خنوم، رمى مساعده بنظرة جافة لائمة قبل أن يدور في وجوه بقية رجاله وعلى رأسهم كا: - منذ ما يقرب العامين، خرجنا لإنقاذ بضعة رجال أسرى، سمعنا أنهم مظلومون، ولم نكن لنفعل هذا إلا بمساعدة القائد حور محب، صدقنا ومنحنا ثقته، جميعنا يعلم أن أي كان مغتصبًا للعرش، وأنه قاتل الملك توت، وهو من ظلم تحوتي والكاهنة نخ تي والناسك نب وع، وهناك من لا نعرف عنهم شيئًا، هو السبب في موت حور حتب، كما تخلص من سنخ كارع الذي أعاد عبادة الآلهة من جديد، لم يفعل أي شيئًا في حياته إلا لصالح نفسه، كان مرتدًا خائنًا لا يتورع عن الظلم والقتل في سبيل غايته. تلك الحقيقة التي يجب أن تعيها عقولكم، وهذا ما يفرق حور محب عنه، إننا ما تحركنا يومًا لنصرة شخص ذي طموح، وإنما سلطنا درب الآلهة في حماية أرضها ومؤمنينا، نحن المدجاي حماة العقيدة، أتباع آمون، ولسنا براغبين في نفوذ أو سلطة أو دعم قاتل مغتصب، وإننا لمحظوظون إن كان حور محب هو الملك القادم، دعونا نُنهِ كل هذا ونُعُد إلى جبال البر الغربي، بعد التأكد أن ميزان ماعت مستوي الكفتين، وأن أمر الناس في يد أمينة، ثقوا بإرادة الآلهة ومشيتها.

ختم المدجاي المسن حديثه وهو ينظر إلى عيني كا، منتظرًا منه أن

يقاطعه أو يعقب كما العادة، ولكن الأخير لم يفعل، يوقن أن ما خُطط له واقع لا محالة، وأن قائد المدجاي يميل إلى حور محب ويثق به، أما هو فليس له من الأمر شيء ليعترض أو يقول شيئاً، كل ما تمناه أن ينقضي الأمر، إن كان آي قاتلاً ومغتصباً فقد نال نتيجة أفعاله، ولعل حور وتحوتي يحظيان الآن بالراحة، وأن له أن يخلع عباءة الغامض الباحث وراء الظنون والمتعة، ويتقبل كونه من المدجاي حتى لو لم يكن مؤمناً بالآلهة وممثليها على الأرض.

* * *

كل شيء يمر، وما الكدر والغم إلا كمثل هبة ريح مغبرة، تعكرنا برهة ومن بعدها نصفو كتلك الصباحات الندية بصحبتها وحضورها البهي. يزداد عشقاً وولعاً بها، وجد الرضا مستقرّاً بقلبه من بعد تشتت وضياح، في وجودها لا يحتاج إلى شيء آخر، تكفيه صحبتها ومجالستها بعد قضاء مهامه، يستيقظ مع الشروق مشرفاً على تجهيزات الجند، وإعداد طوابير الدوريات، بات ذا مكانة ليُملي عليهم واجباتهم اليومية، ويخرج على رأس قوة إلى باحة الكرنك، يجوب الأنحاء ويتأكد من فرض النظام، ومع الظهيرة يعود إلى الضيعة، حيث كاهنته الجميلة التي تُعد له أشهى الطعام، كان أوفر حظاً من رفاقه المدجاي الذين يأكلون حصصاً جاهزة من حساء العدس وقطع من لحوم الذبائح التي أخرجها النبلاء طمعاً وتقرباً لباسر بن حوي.

صاروا يلقبونه بحامي العرش، لقب كافٍ لينفرج ثغره بسخرية كلما سمعه، بات على يقين أن قائد الحرس الملكي أحد مدبري موت

آي، وكذلك الكاهنة موت نجمت، ومن غيرهما أشاع نبأ قدوم حور محب وأمر النبوءة، لا سر يُدفن في العاصمة. رُفع حظر التجوال عن مدينة الصولجان ومحيطها، وعُمر الكرنك بالزائرين الطامعين في كرم ورضا الثالوث، قُدمت القرابين بغية الأمن والاستقرار، ورفعت الأكف تنادي الآلهة تضرعًا بأن تجنب البلاد الفوضى.

ارتضى كا بحياته الجديدة، ومكانته النبيلة بين الناس، مَنْ يصدق أن لص القبور أضحى مدجياً، مقدم إحدى السرايا القائمة بحراسة الكرنك، يقف في حرم آمون ملك الآلهة والبشر كل ليلة، يؤمن رعاياه ومؤمنيه؟!

لا يفعل هذا بفعل إيمان طرق قلبه فجأة، بل من أجلها، يُذكر نفسه بين الحين والحين، أنه لولاها ما بقي هنا. في الليلة الماضية أخبرته بأنها تريد العيش في بيت أبيها بعد زواجهما، وقد بُرئت من التُّهم التي التصقت بها. مات آي وتجلت براءتها ولم يعد هناك داعٍ لأن تبقى بالجبل، وكذلك أعيد الكاهن نب وع إلى معبد موت وسط ترحيب رفاقه القدامى، واستعاد الجميع حيواتهم القديمة، إلا هو.

أسابيع مضت وطيبة تنتظر، وقد بلغ أهلها خبر عجيب، معجزة حلت ببلدة حت نسوت، يقولون إن حور الذهبي ابن أوزير، تجلى منذ أيام إلى معبده هناك، ليبارك ابنه الذي من صلبه، طهره وأغدق عليه بالهبات الإلهية، وفي تلك الليلة أيضًا أبصر أهل المدينة وهجًا وضياءً ذهبيًا يغمر سماءهم، وفي الصباح حملت ألسنة المسافرين الخبر إلى ربوع الأرضين، وانبث الكهنة في الباحات والطرق يقولون: «لم تتركنا الآلهة ولم تُضيع رجاءنا، إن حور بن أوزير سيد

الأفق قادم إلى طيبة مدينة إله الأبدية في ابتهاج، ومعه ابنه في أحضانه إلى الكرنك ليقدمه أمام آمون، ليقبله وظيفة الملك، وليقضي حياته ملكًا».

سخر كما سرقت في نفسه وإن لم يُبدَّ تعجبًا، جعلوا من رجل عادي ابنًا للإله، وأشاعوا حكايات غريبة عن نسبه المزعوم إلى الآلهة، ترددت في جلسات القادة والنبلاء مع باسر بن حوي، والذي لم يعد يحضرها مكتفيًا بالبقاء إلى جوار نخ تي الفرحة بما يحدث في طيبة، تصدق حقًا أن حور محب هو ابن حور الذهبي، وإن لم يكن كذلك فيكفي الرجل شرفًا وبطولة أنه أرسل المدجاي لتحريرها ذات يوم، وأمل أن يكون حور محب حاكمًا عادلاً كما ترجو هي وكل أهل البلاد.

* * *

ابتهجت الآلهة في عليائها، وأطل رع من فوق مركبه مشرقًا، باسطًا نوره على الأرض المقدسة، ولطف شو وتفنوت الأجواء بنسيم وعبير، وتجملت نوت بثوب لبني صافٍ، وأزهر اللوتس والبردي والياسمين في جسد جب، فرحت إيست وأختها كأن أوزير بُعث من جديد، وبثت الجميلة حتحور السعادة والغبطة في نفوس الخلائق، واحتشد الناس على جانبي الطريق المؤدي إلى طيبة ليروا الموكب العظيم، تتقدمه حملة الساريات المقدسة والمزينة بهيئات حيوانية الآلهة، ورمز الملكية قرص الشمس المجنح، رايات يقال إنها بقدم الزمان، تلك التي ورثها الملوك القدماء لمن وراءهم، ومحفة سيد الأفق محمولة تتهادى على الدرب، يحملها عشرون عبدًا غليظًا من

أسرى كوش، كبيرة كفاية ومتينة لينتصب فوقها حور الذهبي ملك الآلهة والبشر، صقر من الذهب عظيم الجناحين، ريشهما عقيق وزجاج مُلون، وبين قدميه يجلس ابنه؛ حور محب.

في سواد حدقيته انعكست طيبة وأسوارها وعمائرُها، يعود إليها وهذه المرة ليست كمثيلاتِها، مباركًا مقدسًا متوجًا كابن لسيد السماء، محمولًا على الأعناق، يختر الناس من حوله سُجْدًا، رافعين أَكْفَ المديح والدعاء إلى عنان السماء، وهو ساكن على كرسيه باسطًا كفيه على فخذه، تغمره نشوة نصر، كأن روحه القديمة تتبدل كلما تقدم موكبه، جاء إلى تلك المدينة أول مرة جنديًا ملحقًا بقصر أمانحتب الثالث، وحين غادرها إلى آخت آتون مبدلًا اسمه ودينه، فقد حبيبته ورحل بعيدًا إلى منف، وجاءها ذات يوم وصيًا على الملك الصغير وقائدًا للجيش، وأقسم من قبل ألا يعود إليها وآي ملك، والآن يتقدم رفقة أبيه حور الذهبي ليرث عرش الآلهة، مفعمًا بالسرور والرضا، يسمو بحضوره فوق هامات الناس، نجح أخيرًا في سعيه الدؤوب ليحظى بخلود أبدي رفقة الملوك القدامى، هناك مع النجوم بجانب الآلهة.

بهيًا، يعتمر نمسًا ورديًا مذهب الخطوط، وعلى جبهته وادجيت ونخبيت، الإلهتان الحاميتان للأرضين، ويحيط فكيه رباط مخملي يثبت لحية المتممين إلى الفجر الأول، صُنعت في زمن سحيق من الذهب والبرونز المصفور بالفضة، يتناسب رسمها مع الصديرية المزينة بالأحجار الكريمة على هيئة الإله حور، ويحيط خصره حزام من الكتان الملون والمنسوج فوق شنديت أبيض، مهيب الطلة

رصين الملامح، والناس كما عهدهم لمن غلب يؤيدون، ويسجدون صاغرين لمن حكم، مساكين يتبغون هناء العيش، يعرف ما يخيفهم وما يبهجهم، وموكبه هذا هو ما تحتاج إليه النفوس، ستتذكر مهابته الأعين وتتحدث عن فخامته الألسنة.

خلف المحفة كان مساعده رعمسيس يتقدم فيالق الجند المنضبط في صفوف، تلك أقدامهم الأرض بقوة، ووراءهم مئات العجلات الحربية والمشاة وحملة الرماح، أسرى شُعث الرؤوس واللحي مكبلين يسوقهم حراس غلاظ، ووراءهم عربات تجرها الثيران الكبيرة ذات القرون الضخمة، محملة بصنوف شتى من الغنائم والعطايا التي يُلقى على جانبي الطريق نزر يسير منها، لينطلق العامة الجائعون المتهافتون على ما يجود به كهنة الإله حور الذهبي، تخفق الأعلام ويزداد الركب عددًا كلما تقدم إلى بوابات طيبة، حيث علقت الزينة ونثر الورد، واحتشد أهل مدينة الصولجان ليروا سيد الأفق وابنه الذي أتى ليُتوج عليهم ملكًا.

تزاحمت الأجساد على جانبي الطريق، وفوق أسطح المنازل والبنيات، تسلق البعض الأشجار وبقايا التماثيل، واغروقت أعينهم وضجت قلوبهم فرحًا، وهم يشاهدون الإله حور الذهبي يعبر بوابة المدينة وبين يديه ابنه، كانوا يُسمّونه «فم الناس»، ولطالما أحبوه، والآن باتوا يعتقدون ويؤمنون بأنه من دم مقدس، كيف لا وهو ابن سيد السماء، لم يُنصب ملكًا بعد ولكنهم خروا إلى الأذقان أمامه، يغمرهم ضياء رع الذي بارك الصقر المتوهج عظيم الجناحين، ومن فوق كرسيه تطلع إلى وجوه تماثيل الملوك القدامى وأعناقهم المشربّة

لرؤيته، أحصاهم من الجد الأكبر أحمس، وحتى أمنتب الثالث العظيم، صاحب أضخم التماثيل في المدينة.

وفي باحة الكرنك الكبرى وقف جمع من كهنة وأمراء ووجهاء المدينة، يتقدمهم باسر بن حوي والوزير معي وقائد المدجاي نب خنوم، كانوا ينتظرون حضور الموكب القادم على مهل، وتناهى إلى مسامعهم دق الطبول ودوي الأبواق، وبرز حور الذهبي من بين الشجر والنخيل. كان من العجيب أن يخرج ذلك التمثال من قدس أقداس معبد حت نسوت، ولعلها المرة الأولى التي يزور فيها سيد الأفق بيت إله الخالدين آمون، الذي بين يدي تمثاله الكبير استقرت المحفة، وُضعت أرضاً وانحنى حملتها. بسط السكون هيمنته على الساحة حتى تقدم الكاهن نب وع، الذي كان يرتدي جلد الفهد الصياد، ورفع يده بصولجان الجد الذي يُمثل العمود الفقري لأوزير، قائلاً: «انظر يا آمون رع يا حامي الضعفاء، هذا الإله حور الذهبي ومعه ابنه الثور القوي، يُقدمه لك في يوم عيد طيبة الجميل، وإن الآلهة نخبيت ووادجيت ونيث وإيست ونفتيس وست وكل تاسوع الآلهة يُباركون اسمه، حور محب، هو الذي سيرضي قلبك في وسط الكرنك، وكذلك في أون ومنف، وهو الذي سيجعل الأرض في بهاء، ويعيد إليها الأمجاد».

نهض حور محب متوهجاً كإله حقيقي، ونزل عن محفته بخطى ثابتة موزونة، خُفضت له الرؤوس تبجيلاً وإجلالاً، لم يُتوج بعد، ولم يحظَ ببركات آمون، ولا يفصله عن ذلك إلا بضعة خطوات، وها هو ذا يرى رجاله وأتباعه المخلصين، باسر بن حوي ونب خنوم، وكثيرين

غيرهما. دلف إلى المعبد محاطًا بكهنة يؤرجحون مباخرهم، وآخرون ينثرون الماء المقدس والورد في طريقه، وترتل الكاهنات المطهّرات: «أحضر لنا آمون حامينا، نرى جميل الهيئة والبهجة تعترينا».

بدا من صوتهن أن آمون راضٍ مفعم بالسُرور. انحنى الكهنة حليقو الرؤوس أمام الرجل الذي وقف برهة أمام قدس أقداس المعبد، وولج إلى ظلمة المحراب، ركع أمام سيد الكرنك ملك الآلهة والبشر متممًا: «جئت إليك مطهّرًا ممرحًا بالزيوت المقدسة مصحوبًا ببركات أبي حور الذهبي الذي في السماء، قدمت ومعى غنائم الأقواس التسعة، مقدمًا رُوحى وجسدى قربانًا إليك يا سيد عروش الأرضين، إن جميع الآلهة أشهاد على ما أقول، لن أتوانى يومًا عن دحض الكذب والآثام، وإقامة ميزان ماعت بين الخلائق بالعدل، أنت حقيق الرحمة، وأنا عبد مطيع لا أبتغي سوى رضاك، مُنَّ عليّ بالقوة واكفني أعدائي وأعداءك ما حييت، وأن أمحو الظلم والعسف عن عبادكم المؤمنين، كل ما فعلته كان من أجلك ووفق مشيئتكَ». أنهى صلواته وقبّل قدمي آمون، نهض خافضًا رأسه محني الظهر، يخطو إلى الخلف راجيًا أن تتقبل صلواته وقرابينه، وما لبث أن خرج إلى الجمع من بين الدخان والظلال، شامخًا مهيبًا ممتلئًا بالحبور، حيًّا الواقفين فانحنت جذوعهم له، ومشى بينهم قاصدًا محراب ابنة آمون، التي كانت تنتظره منذ زمن بعيد.

في صباح هذا اليوم تطهرت موت نجمت، وتجملت بما يليق بابنة آمون، وكامرأة ستلتقي حبيبها من بعد هجر طويل، عروس تداهمها الذكرى كما لم تفعل من قبل، مر بها شخوص ومواقف وأماكن،

ظنت أنها نسيتهـا خلال سنوات اعتزالها بمعبد الإلهة موت، منذ البداية لم يرق لها ما فعله الذي لا يُذكر اسمه، وبينما كانت أختها الملكة نفرتيتي غارقة في الترف وعبادة إلهها الزائف آتون، هربت هي من المدينة البائسة، عادت إلى طيبة حزينة خائفة، ولم يتلقفها إلا آمون حامي الضعفاء، عبده وقدمته وتقربت إليه بجسدها وروحها، ولسنين طوال لم تطأ قدماها خارج أرض المعبد، واستُجيب صلواتها وابتهاالاتها. شُرد أخناتون وعائلته ومسه وإلهه النسيان، عُوقب حيًّا وميتًا بقطع نسله، وكان لها النصيب الأبرز في تقديم المدنسين قربانًا لسيد عروش الأرض والسماء آمون رع، من أجل حببها حور محب.

* * *

رُئيت قاعات وباحات معبد الإلهة موت، وفُرشت أرضياته ببتلات ورد مختلفة الألوان، فاح شذى عبيرها وملأ الأنفاس، وفي الزوايا الظليلة أوقدت المباخر، اصطف السدنة في صفوف متوازية، وتكدس المقربون من الأمراء والقادة وكهنة جميع الآلهة، وكحاجز متين تجاوز رجال الحرس الملكي والمدجاي على جانبي البهو، ووجد كا ونخ تي الفرحة مكانًا لهما بين الحشود عند قاعدة أحد الأعمدة، كانا محظوظين بوجودهما في هذا الحدث، تهامسا ومن حولهما همهمات لا تتوقف، ينتظرون أن تبدأ طقوس العرس الملكي السماوي، تحققت النبوءة وجاء ابن الإله حور الذهبي، دخل عظيم الشأن يمشي بفخر، منتصرًا متبخرًا إلى مذبح سيدة الكرناك، الإلهة موت زوجة النتر الأعظم آمون. خُفضت الرؤوس إجلالًا وتقديرًا، ووقف أمام تماثيلها الكبير متطلعًا إليها في تبجيل. ساد الصمت

بحضوره إلى أن صم الأذان دوي أبواق الساحة، تعلن عن قدوم ابنة آمون، تقدم موكبها كاهنات يترنمن بأنشودة شكر لآمون رع، الذي على محفته المقدسة ذات الهودج الذهبي والستائر الكتانية البيضاء حُمِلت العروس.

مرت المحفة بين الحشود، إلى أن وضعها الخدم وما لبثت أن أزاحت أنامل رقيقة الستائر، وبرقة ولطف خطت العروس حافية فوق بتلات الزهور، تهادت مستعلية رأسها بعزة ودلال، ترفل في ثوب أبيض ضيق على جسد منحوت بدقة بالغة، يتمايس قدها كغصن غض يحركه النسيم، وأحاط خصرها حزام تمازجت فيه زرقة الفيروز وبريق الذهب، وتدلّت على نهديها النافرين قلادة عريضة لجُعران مجنح، صبوحة الوجه باسمه اختلست وجنتيها حُمرّة ما تطأ من زهور، ويحد عينيها السوداوين كحل كقوس يرمي سهامًا تفتك بالقلوب، وشعرها المستعار المضفر بالخرز زاد طلتها بهاءً، حلت أمامه بسمو وانفرجت شفتاها الحمر اوان كالعنب بابتسامة رقيقة. يقفان معًا أمام أعين الأَشهاد، لا ظلال تحجبهما ولا خوف يعتريهما، التقت أعينهما وعاد بهما الزمان والمكان إلى آخت آتون، حيث كانا يتقابلان خلصة، حتى وشت بهما تلك اللعينة عنخ إسن آمون، واليوم لم يعد للمغبونة وأبيها ذكر، وحدهما يملكان كل شيء، هما ابنا الآلهة وحيبهاها، وبينهما الكاهن نب وع محدثًا إياهما والحضور من ورائهما:

- خلقتنا الآلهة على صورتها ومنحتنا هبات عظيمة، أجلُّها هو القلب الذي به نحيا وبه نُبعث من جديد، ونحن هنا في حضرة الثالث، لنجمع قلوبين ونوحد أنجباء الآلهة وأبناءها، وكما بارك

آتوم رع حفيديه نوت وجب، وربطهما بوثاق الزواج المقدس،
ها هو ذا الأمير الوراثي، سليل التاسوع صاحب الدم النقي،
جاء إلى بيت سيد العروش، ليتزوج بابنة آمون المباركة، وبهذه
الزيجة ينعقد رباط العقيدة ومذاهبها من جديد، ولقد اجتمعنا
لأجل أن نمكن له في الأرض بما هو حق له ولأبيه الإله حور
الذهبي، خدم الآلهة والبلاد قائدًا للجيوش ووصيًا على العرش،
ولم يتخلَّ عن واجباته يومًا، وقاتل في سبيل آمون رافعًا راية
ماعت، قاوم الشرور وتصدى للهرطقة، وحاول أن يحافظ على
السلالة المقدسة، التي لم يتبقَّ منها سوى الكاهنة الكبرى ابنة
آمون رع، نقية الدم موت نجمت.

فور سكوت نب وع، بدأت الكاهنات ينشدن بعدوبة، أنشودة
حب عن نوت وجب، دغدغت ترنيمتهن قلوب الحضور، وقبضت
نخ تي على يد كا بقوة. يقفان في زاوية لا يظهر لهما منها إلا وجه
موت نجمت المشرق، بينما يوليهما قائد الجيوش ظهره. انتشت
الأرواح وهم يرون حور محب يتقدم خطوة إلى الأمام، باسطًا كفه
وما لبثت أن وضعت الكاهنة راحتها على يده، توردت وجنتاها
وكادت تبكي وهي تشعر بالخاتم بين كفيهما، اليوم أيقنت أنها ابنة
آمون حقًا، وتحققت كل أمانيتها على الرغم من مرور سنين طويلة.
لم يبدل الزمن كثيرًا من هيئتيهما، ورواحهما تتحدان الآن. التفتا معًا
ناحية تمثال موت وهما يُمسكان بيدي بعضهما، وأعين الأشهاد تتملى
من روعة المشهد، ووجم كا، وحور محب يقول بصوت جهوري:
«أيتها الأم العظيمة، أنا حور محب ابن حور الذهبي، حامي الضعفاء

أشهدك أنني اتخذت ابتتك موت نجمت، زوجة ملكية عظيمة، وإنني لأمين عليها، ولها كل ما أملك وما سأحصل عليه، سأعطيها الحب والنبذ والفضة والذهب...».

وأخذ يتلو نذوره، وعينا كما لا تفارقانه، يعرف ذلك الوجه، رآه قبل اليوم لا يدري أين! ولا يذكر أنه قابل قائد الجيوش هذا، قَطُّ لم يفعل. مرة أخرى استدار حور محب ليووجه امرأته التي كانت في نشوة فرحها، وهو يربت بمحبة وحنان على يديها، ثم وضع خاتمًا من العاج المطعم بالذهب في إصبعها بلين ورفق، متممًا:
- أنت لي.

همست وسمع الحضور ما قالته من حركة شفيتها:
- وأنت لي، إلى الأبد.

قالتها وقلبها ينتفض فرحًا، وتفاخرت روحها بما فعلته من أجل هذه اللحظة، هي من قلبت نفسِي سنخ كارع وميريت آمون على آي، وهي التي حثت باسر على تخريب عربة ابن أختها الملك توت، وكم فرحت لموت الخادمة اللعينة نبت التي لعبت على جميع الأوتار، ومن محرابها خرجت رسالة كتبتها إلى ملك الحيثيين على أنها عنخ إسن آمون التي لا يعرف أحد مصيرها، ومن وحيها بُثت الشائعات في المدينة، وتخلصت من آي وزمرته من الكاهنات الماجنات بكل يسر. وحدها من استطاعت هزيمة آتون وأتباعه المرتدين. كل هذا بإيعاز من حبيبها المخلص، فعلت كل شيء لأجله والآن ظفرت به، مُلئت نفسها بهجة وهي تتأمله واقفًا بين يديها سعيدًا يُحيي الحضور. هاجت الجموع فرحًا، ونثر الملح والورد في الهواء، وانفرجت

الشغور ضحكًا بما ملأ القلوب من غبطة، تهللت أسارير نخ تي وأخذت تردد الأنشودة التي استأنفت الكاهنات ترنيمها، وإلى جوارها كما ممتقع الوجه كأنه رأى الموت، في اللحظة التي التفت فيها حور محب ليُحيي المدعوين المردددين: «المجد لآمون».

سمعها كا، «المجد لآتون»، تردد صداها في أذنه، ورأى شفتي حور محب تتحركان بها. نعم هو! قائد الجند الذي هجم على معبد الثامون في الأشمونين، أقشعر بدنه وتحسس موضع الخنجر الذي سلبه منه ذات يوم، ولكن جميع من في القاعة لا يحملون سلاحًا، إلا قوات الحرس الملكي، رجال باسر بن حوي! الواقف قريبًا من سيده الجديد سعيدًا. الآن فقط تجلت الذكريات واكتملت أركان الصورة أمامه، لو استطاع قتله في ذلك اليوم، ما كان ليصبح ملكًا إلهًا كما يدعي الآن، وينسب نفسه إلى آمون وحور وهو الذي سفك دماء الأبرياء باسم آتون!

صور عدة عصفت بروحه، وخُيل إليه أنه يرى تحوتي بين الجموع، وكذلك حور، صامتين لا يعجبهما ما يحدث، ومراسم تتويج القاتل جارية. جاء كاهن يرتدي قناع آمون بوجهه الأزرق وقرص الشمس ذي الريشتين على رأسه، أخذ يرتل بعض الصلوات قبل أن يضع التاجين فوق رأس حور محب، قائلًا: «باسم الإله الطيب آمون وقرار الآلهة أجمعين، يحيا حور الذهبي، الثور القوي، فم الناس، حاضر الخطط، محبوب الإلهتين، عظيم المعجزات في الكرنك، الراضي بالصدق، وخالق الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، ابن رع، محبوب آمون، حور محب، معطي الحياة، المخلد أبدًا».

الذي جاء إلى سيد العروش العظيمة، فضم جلالته ومنحه ابنته وتوجه
بتأجبي الملك ليسلطه على الأقواس التسعة الساجدة تحت قدميه». .
وبينما الناس يرددون هتافاتهم لحور محب، شعر كما سرقت بغصة
وآلم يغزو صدره، أراد أن يبكي أو أن ينقض لئنهي ما بدأه، اغرورقت
عيناه بدمع الغيظ الذي كظمه، ونخ تي تسأله:

- كا، ما بك؟! السماء في عيد، والأرض في فرح، وقلوب تأسوع
آلهة مصر سعيدة، وأنت عابس الوجه؟!

لم يُجبها، كان شاردًا لا يرفع عينيه عن الرجل الذي سيقضي حياته
ملكًا إلهًا، ليُخلد ببطولات زائفة وقصص أسطورية هو من سيفر ضها
بمعية كهنته، لكزته متابعة وهي تنظر إلى وجهه المتعرق. التفت إليها
ونظر إلى وجهها قائلاً باقتضاب:

- علينا الرحيل.

- ماذا تقول؟!

- نخ تي، إن كنت تثقين بي اخرجي معي الآن.

على الرغم من غرابته التي أقلقته، فإنها رحلت معه وقلبها يتصدع
خوفًا. غادرا الكرنك بينما يحاول كثيرون الدخول، طيبة كلها محتشدة
في الباحة الكبرى، ينتظرون خروج ملكهم، وكما سرقت يسحب نخ تي
إلى خارج الزحام إلى الشوارع الخاوية، وفي الطريق إلى الميناء
أخبرها بحقيقة ما كان، وصدقته.

خلود يليق

صحراء سقارة

بعد سبعة وعشرين عامًا...

بخطى ثقيلة مشى مُسن يتوكأ على عصا طويلة، يحفظ دربًا قطعه
 ذهابًا وإيابًا لسنين، وحيدًا ينتظر موتًا لا يأتي، وطأ الرمل والحصي
 بنعليه الجلديتين الخفيفتين، وتبع الشمس إلى مغيبها كجُعران يبحث
 عن جُحره، وبدلًا من دفع كرة روث أمامه، جر وراءه الذكريات. ارتقى
 تلالًا ونزل سفوحًا على الرغم من الألم المبرح بفخذه وظهره،
 يتلفت بين الحين والحين ناظرًا إن كان أحد يتبعه، ولا شيء حيًّا في
 الأفق سواه، صحراء قاحلة وسماء أرجوانية بشفق المغيب. هبط إلى
 جرف صخري يعلوه كثيب هائل من رمال ناعمة، وفي الصخر شق
 عريض يتسع لعبور جوادين متجاورين. بحذر تقدم فوق الممشى
 الوعر المسنن، تحسس مواضع علاماته السابقة، وتأكد من سلامة
 أشجار صبار تحجب الدرج الهابط إلى عمق الأرض.

وعلى قبس ما تبقى من ضوء النهار الشحيح، نزل سبع عشرة درجة

وتوقف ليلتقط حجراً صغيراً ضرب به نصل خنجره ليوقد مشعلاً معلقاً، وهبط بضع درجات أخرى ليقف أمام جدار حجري ضخّم توهج بضّي النيران، وعلى جانبه انتصب حارسان من الديوريت الأسود المصقل، بديعا النحت يُمثّلان جحوتي بجسده البشري ورأس طائر «أبو منجل»، وحوّر ذا وجه الصقر حاد البصر معقوف المنقار، ويمسك كلاهما بحربة من البرونز الصافي، وعلى الباب نُقش وجه إنبو في هيئة عجيبة مرعبة. تذكر المرة الأولى التي زار فيها هذا الكهف، كان حينها شاباً غاضباً ناقماً على الحياة يبحث عن الإله ست، ليعيد إليه خنجره، كان غرّاً ساذجاً مجنوناً يسعى خلف المتعة والإثارة، أما المرة الثانية التي قدم فيها إلى هنا فكانت معه زوجته الكاهنة النقية نخ تي، وتكررت زيارتهما على مدى سنين. أعدا المكان ليكون مقبرة ملكية الطابع، وأتى له المدجاي بأفضل الحجارين في البلاد، كان يُغمي أعينهم في طريق الذهاب والعودة، يهبطون إلى جوف الكهف حيث وفر لهم ما يحتاجون إليه لإنهاء تبطين الجدران وتسويتها، وأجزل لهم العطاء وحرص على أن يصمتوا.

والمال يصنع كل شيء، نبيل من طيبة، فارس مدجاي متقاعد، يعيش مع زوجته الكاهنة الجليلة في منزل راقٍ بأجمل أحياء منف، احتوته المدينة الكبيرة العامرة وامراته، وصارت له تجارة مع عحا النسّاج الذي كان يزهو ويفخر بابنه تحوتي، الذي مات في سبيل الآلهة مفقدياً البلاد بروحه، أفلحت تجارته وتنامت وجاء بحتب الصياد ليكون رئيساً للعمال على سفنه، لم يستطع إخباره بموت ابنه،

واكتفى بإخباره أن حور صار نحاً ورسماً مشهوراً في البر الغربي، وبينما كانت أعماله تنمو، قرر سرد حكايته على هذه الأرض وحفظها، لعل بعد زمن يأتي سارق قبور آخر فيقرأ ما كان من أمره وأصحابه. أخرج خنجر ست ودسه في تجويف أحد النقوش بالحائط وأداره، وبدأ الحائط يهتز وانفجر رويداً كباب حجري، كاشفاً عن ظلمة عميقة دلف متكئاً على عصاه شاهراً خنجره، تحسس خطاه باحثاً عن حوامل المشاعل، وما لبث أن أوقدها وأنار المكان، ثم أغلق الباب ووقف في منتصف غرفة شاسعة، مُزينة الجدران برسوم ملونة على خلفية رمادية، صور لمشاهد من حياته الطويلة، وقصص أناس عرفهم وأحبهم، كُتبت أسماؤهم بوضوح كأنهم ملوك، ونُقشت صورهم في هيئات الآلهة، وكان قد أتى بأشهر رسامي البر الغربي سن نجم إلى سقارة، استضافه وزوجته موفرين له كل ما أراد، وجلس مع الرجل وحدهما في المقبرة لأشهر، يسرد هو القصة، ويكتب سن نجم ويرسم المشاهد، وتأتي الزوجة طيبة المحيا والسريرة لهما بالزاد والمؤن، وكلما جاءت كانت ترى جزءاً من حكاية عاشت تفاصيلها، لأناس عاديين كانوا أنبل وأحكم وأعدل من الملوك، وفي نظر زوجها هم أنقى من الكهنة والآلهة، أفنوا حياتهم في سبيل ما يؤمنون. سجل قصة حور حتب الرسام، وصاحبه تحوتي بن عحا حارس الملك، الذي قُتل على يد الطامعين المشتتهين للسلطة، لم يذكر أسماء وألقاب الأوغاد الأشرار، وكان هذا رأي نخ تي التي أرادت لهم النسيان والته، وألا يبقى لهم على الأرض والحياة الآخرة وجود. روى الحكاية كما عاشها ورآها، وحتى أمنية حور في دفن أبيه وأمه سجلها على الحائط.

ونقش سن نجم القصة بإتقان ومهارة، أسطورة جاءت فيها الآلهة إلى الأرض كهيئة البشر، وهذه المرة انتصر ست إله الفوضى والشر، وجلس على عرش الأرضيين، ولم يُفَزْ حور ولا تحوتي إلا ببلوغ حقول الآرو التي آمنّا بها، حيث الخلود الذي يعتقدان أنه حق.

دخل كا سرقت المسن إلى ممر مزين بتعاويد حفرتها زوجته بيديها، حكاية الخلق ونصوص من كتاب «الكهوف» وفصول من كتاب «السماء»، وقاده الممر إلى غرفة دفن أكبر، تراحمت على جدرانها نصوص جنائزية وتكررت صورة الإلهة الحامية سرقت في هيئته هو. بشري حنطي اللون بشعره المضفر وخنجره المميز، يحارب «أبو فيس» ويقطع أوصاله، يحمي شجرة الجميز وتناصره آلهة الشمال والجنوب. نعم هكذا رأته زوجته، وهي من جعلت سن نجم يرسمه في هذه الصورة، كا سرقت، قرين الآلهة العقرب حامي الموتى والأحياء. لم يكن الشرير الذي أراد العرش وسعى إليه بالدماء والغدر، بل كان صديقاً وفيّاً وأخاً مخلصاً. تذكرها وعيناه تتفحصان خمسة توابيت مرصوفة أمامه تباعاً.

التابوت الأول خشبي في هيئة أوزير، مُكفن باللون الأبيض، ووجه أخضر شاحب وعينان واسعتان تحمِلقان إلى العدم، وعلى كتفه كُتِبَ بلون أخضر اسم صاحبه، عحاتيتي صياد من منف، زوج مخلص، وأب صالح.

والتابوت الثاني في هيئة إيسث الأم العظيمة، عُشِقَ خشبه المنحوت كجناحين بزجاج ملون تموجت ألوانه بفعل وهج المشاعل، وكُتِبَ في موضع القلادة على صدرها، إياح موس زوجة تقية، وأم حنون.

الثالث كان ناووسًا من الجرانيت الوردي يقبع بداخله تابوت فضي على هيئة حور الذهبي، برأس الصقر وجسد بشري، ونُقش على صدره، حور حتب الشجاع، رَسَام الآلهة.

أتى به من طيبة وتكلف عناء نقله هو وصاحب الناووس الرابع الرخامي الأبيض، وبداخله تابوت عجيب بهيئة جحوتي سيد الكلمات المقدسة، حيث يقبع جثمان تحوتي بن عحا الوفي، حارس الملك توت عنخ آمون.

وعلى مقربة منهما كان الناووس الخامس، من البازلت الأسود، يحوي تابوتًا خشبيًا بسيط التفاصيل على هيئة امرأة جميلة، عليه نقوش جنائزية ورُسمت على جوانبه صور راعي الموتى، ذلك الإله الذي كانت زوجته الحبيبة نخ تي، كاهنة مطهرة له، سيدة قلبه وإكسير حياته. وبالقرب منها صندوق خشبي صغير وُضعت فيه مومياء قطتها باسيت.

مضى ثمانية أعوام منذ أودع محبوبته بيت الأبدية، تحمّل مشقة الدفن وحده من دون عون، يوم رحلت عنه شعر بأن روحه تخبو، لم تترك له ذرية ولم يبقَ له سوى الذكريات، يزورها مع اكتمال كل قمر، ويحرص على عدم تتبع أحد له، وهذه المرة غير ما سبقها، لن يعود إلى منف، ولن يبرح المكان الذي أعده لنفسه. رجع إلى الغرفة الأولى ودفع بكل ما تبقى في جسده من جهد، حجرًا بارزًا في الحائط على هيئة أسد، وبالكاد تحرك الحجر، وسمع صوت ارتطام وانهيار صخور وأحجار خارج الباب، ابتسم وقد أفلح صُنعه بغمر المدخل والدرج بالرديم، لم يأت ليخرج مرة أخرى.

كان قد جهز في غرفة الدفن مقعدًا فريد الصنع من النحاس والبرونز المعشق بخشب الأرز، ومسنداه نُحِتَا على هيئتي إنبو، ككلبي حراسة أسودين أعينهما من الكوارتز المشع، وجلس قبالة الأضرحة الخمسة متأملًا المكان وسكونه، مشاهدًا الصور والكتابات الموجودة على الجدران من حوله، تذكر يوم خرج من الكرنك بصحبتها، وأخبرها بما كان من أمر الملك الجديد، صدقته ورحلت معه إلى البر الغربي، حيث نهبا قبر آي معًا، بالكاد أقنعها بفعل الأمر، وكان عليهما الإسراع قبل أن يدنسه حور محب، الذي أطلق يد كهنة آمون وأتباعه لتحطيم تماثيل سلفه، محاطهم كل ذكر لأختاتهن وأبنائهن، وفكك معابد آتون وهدم مدينته، ولولا السيل الجارف الذي انهال على وادي الملوك، لاستطاع أن يدمر بيت أبدية الملك الصغير المغدور، توت عنخ آمون.

ومن اليوم الذي غادرا فيه طيبة لم يعودا إليها قط. كتب إلى المدجاي المسن نب خنوم، بأنه اضطر إلى الرحيل من دون أن يذكر له شيئًا، وأعلمه أنه باقٍ في منف هو وزوجته، ومن بعد موت قائد المدجاي، زاره جدف ودعمه لإنهاء المقبرة والاعتناء بصاحبيه ونقلهما. مرت أمامه مشاهد من حياته الزاخرة بالمواقف والأحداث، تحسس خاتم عنخ إسن آمون بجيبه، هذا كل ما تبقى من الملكة التي لا يُعرف مصيرها. عاصر ملوكًا عدة لم يلبث بعضهم إلا قليلًا، حتى حور محب لم يعمر طويلًا، مات بعد أن نظم البلاد وأعاد الموظفين إلى أعمالهم، وسن القوانين وأقام قواعد النظام في البلاد من جديد، هكذا يقول أتباعه ومخلصوه، وسُمِّي وزيره رعمسيس وليًا للعهد من

بعده، والذي مات هو الآخر مخلفاً ابنه الصبي سיתי ملكاً. عجيب أمر هذه الحياة، لا يستطيع فيها المرء أن يكون شريراً أو طيباً على الدوام، ولا أحد يستطيع تفسير دوافع الناس وأهوائهم إلا هم. حظي حور محب بالملك والمجد الذي أراد، ولكن هل يستطيع الأموات حتى لو كانوا ملوكاً مؤلهين الذود عن أنفسهم حين تُنهب قبورهم وتُدنس أكفانهم؟!

نظر إلى التواييت حيث المكان خاوٍ تماماً من أي غرض. إن أثمن شيء في هذا القبر هو الحكاية على الجدران، وخنجر ست الأثير بيد والأخرى وضعها على رأس المسند، وأرخی جسده إلى ظهر الكرسي، وأغمض عينيه طوعاً، وهو يتذكر ما كان عليه، كيف أصبح، وكيف أمسى، وهو الذي لم يؤمن بأيٍّ من الآلهة يوماً. يطمح الآن إلى أن يكون له مكان مع رفاقه، وعائلته أينما كانوا. وانطفأ المشعل.

أسماء وصفات بعض الآلهة التي وردت في الرواية

- نون: هو إحدى القوى الكونية في مصر القديمة، وكان يوصف بأنه هو القديم الأزلي، وأحياناً بأنه هو الذي كان موجوداً في الزمن الأول، ومن هذا البحر أو المحيط الأزلي ظهرت الربوة المقدسة التي هي أساس كل الخلق. صُوِّرَ على أنه الخصم الأزلي للحياة، والشر الذي يريد فناء العالم، ويُعد في بعض المذاهب «أبا الآلهة»، وخصوصاً الثامون المقدس في مدينة الأشمونين، وهو أيضاً والد «أبو فيس» ثعبان الشرور.
- آتوم رَع: خالق الكون ورأس عقيدة التاسوع المقدس، واسمه يعني التام أو الكامل، وهو إحدى صور رَع إله الشمس. يوصف على شكل رجل يرتدي الزي الملكي، وأحياناً يرتدي التاجين الأحمر والأبيض، تاجي مصر العليا والسفلى، وفي بعض الأحيان يُرسم على شكل أفعى، يمسك بيده اليمنى الصولجان الطويل، وبيده اليسرى رمز الحياة.
- شو: طبقاً للأسطورة هو ابن آتوم رَع، ويجسد الهواء أو الأثير.

كان يُصوَّر في بعض الأحيان بأنه رجل يرتدي غطاء الرأس مع ريش طويل.

- **تفنوت:** ابنة آتوم رع، وزوجة شو، وأم الأرض والسماء. وتُمثَّل الرطوبة والنيران، وتُرسَم في هيئة امرأة برأس لبؤة.
- **جب:** يُمثِّل الأرض، وهو بذلك يعد إلهًا للخصوبة، وخلفًا لجده آتوم وأبيه شو اللذين انسحبا بعد ذلك إلى مرعاهما السماوي. وبقي هو على الأرض راعيًا لحق الملكية. يصور على هيئة رجل على رأسه إوزة أو بطة، أو رجل مُستلقٍ على الأرض في كثير من الأحيان.

- **نوت:** هي أخت جب، وابنة شو وتفنوت، وهي إلهة السماء. تُرسَم عادةً كسيدة مرصعة بالنجوم، وتعد من أهم الآلهة المصرية القديمة.

- **أوزير:** يُسمَّى في اليونانية «أوزيريس» إله البعث والحساب، وهو رئيس محكمة الموتى، وأول ملوك الأرض وفق الميثولوجيا المصرية القديمة، ويعد من أهم الآلهة. يُمثَّل في هيئة رجل ذي وجه أخضر مُكفَّن، وعلى رأسه تاج أبيض بريشتين.

- **إيست:** أو إيزيس، إلهة السحر والحماية ومثال للوفاء والمحبة. تُسمَّى أيضًا «الأم العظيمة»، وزوجة أوزير، وتطورت عبادتها في كثير من الثقافات والحضارات. تُمثَّل في كثير من الأحيان كسيدة على رأسها العرش.

- **ست:** إله الفوضى والظلام، وسيد الشرور، ويعد الإله الرئيسي في الأسطورة الأهم في الميثولوجيا المصرية، ويُصوَّر على هيئة

جسد بشري له رأس حيوان أسطوري، قد يكون ذئبًا أو كلبًا وربما آكل نمل.

- نفثيس: تُسمَّى في المصرية القديمة «نبت-حوط»، ومعناها سيدة البيت، هي إلهة للولادة وللموت، راعية الملك وحامية الأطفال والكبار، ووفق الأسطورة هي أم أنوبيس وزوجة ست.

- حور: أو كما يُطلق عليه «حورس» ابن أوزير وإيست، هو رمز الملكية، ويعد اسمه اللقب الأقدم الذي تسمَّى به ملوك مصر، حور الذهبي، سيد الأفق. صُوِّر على هيئة صقر أو رجل برأس صقر. ويعد من أقوى الآلهة ورمزًا إلى الحق والقوة والشجاعة.
- إنبو: أو أنوبيس، من أقدم الآلهة، وهو راعي الموتى ومحنطهم، والعنصر الأهم في حماية المقابر والأموات، وكذلك هو القيم في قاعة الحساب. يُصور في هيئة ابن آوى أسود، أو رجل له رأس كلب.

- جحوتي: أو تحوت، هو أول من كتب واستخدم القلم، يعد إله الحكمة والكلمات المقدسة. له دور بارز في العقيدة المصرية، ويُصوَّر عادةً في هيئة طائر إيبس - أبو منجل - أو رجل برأس طائر يمسك قلمًا وورقة.

- خونسو: إله القمر، وفي عصر الدولة الحديثة عُدَّ ابنًا لآمون رع، ويُصور في كثير من الأحيان في هيئة شاب ذي ضفيرة جانبية وعلى رأسه هلال.

- ماعت: إلهة الحق والعدل والنظام في الكون. تُمثَّل في هيئة سيدة تعلق رأسها ريشة النعام رمز العدالة، أو سيدة بجناحين عظيمين.

- خنوم: هو الإله الخالق للبشر من طمي النيل على عجلة الفخار. وبعض الروايات تقول إنه كان يُشكّل الأطفال الصغار من طمي النيل المتوفر عند أسوان، ويضعهم في أرحام أمهاتهم. يُصور في هيئة رجل له رأس كبش ذي قرنين.
- نيث: إلهة الحرب والنسيج والصيد، وتُعد في أسطورة التاسوع عشيقة ست، ويقال إنها خلقت نفسها من المحيط الأزلي نون، كما فعل أتوم رع.
- آمون رع: أو آمون، هو إله الشمس والرياح والخصوبة، وطيبة هي مركز عبادته، ومعنى اسمه هو الخفي، لذا يُسمّى «سيد الخفاء». علا شأنه في عصر الدولة الوسطى، وصار الإله الرئيسي للدولة منذ طرد الهكسوس، وذلك عبر دمج مع الإله رع، ويصور كرجل على رأسه ريشتان عظيمتان.
- بتاح: كان تأليهاً للربوة المقدسة في قصة بدء الخليقة، ورباً للحرفيين والصناع. حظي بمكانة رفيعة ومذهب خاص في مدينة منف، وإليه يُعزى اسم مصر الحالي، حيث كانت تُسمّى «أرض الإله بتاح»، والذي حُرف عبر اليونانية القديمة إلى «إيجيبتو». يُصوّر في هيئة رجل مُكفّن ذي وجه أخضر.
- سخمت: ابنة أتوم رع، إلهة الانتقام والبطش، وهي أحد التجسيدات المنفصلة للإلهة تفنوت، وكذلك باسيت - القطه -، وكذلك هي أصل التجسيد للإلهة حتحور. تُصور في هيئة سيدة برأس لبؤة في كثير من الأحيان، وهي زوجة بتاح وأم نفرتم.
- موت: تعد إلهة بدائية مرتبطة بالمياه الأزلية التي وُلد منها كل شيء.

- قليل في بعض الأحيان إن موت أنجبت العالم من خلال التوالد العذري، ولكنها مثلت في العقيدة المصرية زوجة آمون رع. وعلى الرغم من اعتقاد أتباعها أنها هي أم كل شيء في العالم، فإنها كانت مرتبطة بشكل خاص بوصفها والدة الإله القمري خونسو.
- **حتحور:** هي إلهة السمر والحب والجمال، والسعادة والموسيقى والخصوبة. وُجد لها نقش على لوحة نارمر، وكان يرمز إليها بالبقرة أو سيدة جميلة على رأسها قرنا بقرة بينهما الشمس، وهي أحد التجليات المنفصلة لسخمت، وكذلك زوجة حور وأم أبنائه الأربعة، وكانت تتمتع بشعبية كبيرة بين الناس في ربوع الأرض.
 - **سوبيك:** يُقال إنه ابن ست ونيث، وهو إله مرتبط بتماسيح النيل. ويمثل صورياً إما في شكل التمساح، وإما في شكل إنسان برأس التمساح، وارتبط كذلك بالسلطة الملكية والخصوبة والبراعة العسكرية، وقد عُدد كذلك إلهًا وقائيًا ضد الأخطار بصفات طاردة للشر.
 - **منتو:** أو الثور القوي، إله الحرب والنصر، وهو أحد تجليات حور، وصُور على هيئة رجل برأس صقر عليه تاج من ريشتين بينهما قرص الشمس، وكان يُصور برأس عجل أحياناً.
 - **نخبيت:** إلهة حامية وتُمثل أنثى النسر، وعُبدت في وقت مبكر من عصر ما قبل الأسرات، وهي الراعية لمصر العليا ورمزها المقدس.
 - **وادجيت:** الإلهة الحامية لمصر السفلى، وترمز إلى حكم الملك، وكانت تُرسم في شكل أنثى الكوبرا.

- آتون: هو صورة من صور رع. تم توحيد وفرض عبادته في عهد أخناتون كإله واحد لا يشاركه أي من آلهة مصر القديمة، ويُرسم في هيئة شمس أشعتها تنتهي بأيادٍ بشرية.
- مين: إله الخصوبة والفحولة، ويعد من أقدم الآلهة المصرية، بدأت عبادته في عصر ما قبل الأسرات. وفي أغلب الأحيان يُصوّر في شكل ذكر بشري بقضيب منتصب، ويده اليمنى تحمل مِنشَة، ومركز عبادته في مدينة أخميم.
- إيبِت: وتُسمّى أيضًا «تاورت» وهي إلهة الأمومة والحماية والوفرة. تُرسم في هيئة فرس نهر، وكثيرًا ما تُصوّر وهي ترضع الملوك من ثدييها الضخمين، وتلقب بـ«سيدة الحماية السحرية».
- نفرتم: إله الشفاء والصحة، وهو ابن بتاح وسخمت وفق مذهب أهل منف، ويُمثّل في هيئة صبي بصفيرة جانبية.



telegram @
yasmeenbook

المؤلف

إبراهيم أحمد عيسى روائي وباحث تاريخ، من مواليد مدينة الإسكندرية عام ١٩٨٤. حاصل على بكالوريوس نظم معلومات، ودبلومة في صناعة السينما الديجيتال. شارك في كتاب «التاريخ كما كان» الصادر عن فريق بصمة للأبحاث التاريخية، وله عدة مقالات وأبحاث تاريخية نُشرت في مواقع ومدونات إلكترونية. صدرت له روايات عديدة، من أهمها: «ابقَ حيًّا»، و«باري: أنشودة سودان» (جائزة كتارا للرواية العربية عام ٢٠١٨)، و«حكاية الأشبوني» (القائمة الطويلة لجائزة راشد بن حمد للإبداع عام ٢٠١٩)، و«ذئب وحيد - الجزء الأول من ثلاثية تلال الشمس» (القائمة القصيرة لجائزة ساويرس الثقافية فرع شباب الأدباء عام ٢٠٢٢)، و«بنو الأزرق - الجزء الثاني من ثلاثية تلال الشمس».



تدور أحداث هذه الرواية في مصر غير التي نعرفها الآن، وفي أثناء فترة عصيبة وضبابية لم يصلنا منها إلا القليل، حيث يدور صراع بين كهنة آمون وجيش مملكة تهوي إلى الفوضى بعد موت ملكها.

في حين نتابع مع تحوتي بحثه عن قاتل ملكه في حبكة تشويقية مثيرة، نتعرف على صاحبه حور حتب الرسام، والكاهنة نخ تي وما تخفيه من أسرار، وغريب الأطوار كا سرقت وصراعه مع الآلهة؛ إنهم بشر مختلفون جمعتهم الأقدار، على الرغم من تباين رؤاهم ومبادئهم ونظرتهم إلى الحياة، داخل إطار درامي اجتماعي، ورؤى فلسفية حول الحياة والموت، والآلهة والبشر، والخير والشر، وأساطير القدماء.

telegram @yasmmeenbook

